اصول التربية في ضوء المدارس الفكرية

اسلامياً - وفلسفياً

السيد الدكتور

حسن الحياري

دار الأمل

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

١٨٩

حسن حسن أحمد الحيـــاري

أُصول التربية في ضوء المدارس الفكرية/ حسن أحمـــد

الحياري .- إربد: دار الأمل، ١٩٩٣

(٣١٢)ص

ر. أ(١٩٩٣/٦/٥٥٧)

١ـ الفلسفة الإسلاميـــة أ ـ العنـــوان

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

دار الأمل للنشر والتوزيع

تلفون (٢٧٦١١٧٤) - ص . ب (٤٦٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى

- إنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ الى أهلِها وإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تحكُمُوا بالعَدلِ إنَّ الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إنَّ اللهَ كَانَ سَميعاً بَصيراً* يا أيُّها الذّينَ آمَنوا أطِيعُوا اللّهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأولي الأمرِ مِنْكُمْ فإن تَنَازَعْتُمْ في شَيءٍ فَرُدُّوهُ الى اللّهِ والرَّسُولِ إنْ كُنْتُمْ تُؤمِنُونَ باللّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وأحْسَنُ تَأويلاً* ألَمْ تَرَ الى الذّينَ يَزْعُمُونَ أنَّهُمْ آمَنوا بِما أُنزِلَ إلَيْكَ وَما أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُريدُونَ أنْ يَتَحاكَموا الى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُريدُ الشَّيطانُ أن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعيداً* وإذا قِيلَ لَهُم تَعالَوا الى مَآ أنزَلَ اللّهُ وَالىَ الرَّسُولِ رَأيْتَ المُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً -

النساء «٥٩ - ٦١».

ـ دعـــاء ـ

اللهُمَّ إنَّ الظَّلَمَةَ جَحَدوا آياتِكَ، وَكَفَروا بِكِتابِكَ، وكَذَّبوا رُسُلَكَ، واستَنكَفوا عَنْ عِبادَتِكَ، وَرَغِبوا عَنْ مِلَّةِ خَليلِكَ، وبدَّلوا ما جاءَ بِهِ رسولِكَ، وَشَرَعوا غيرَ دِينِكَ، واقتَدَوا بِغَيرِ هُداكَ، واستَنُّوا بِغَيرِ سُنَّتِكَ، وَتعدَّوا حُدُودَكَ، وَسَعَوا مُعاجِزينَ في آياتِكَ، وَتعاوَنُوا على إطفاءِ نُورِكَ، وَصَدُّوا عَنْ سَبيلِكَ، وَكَفَروا نَعمآءَكَ، وشاقُوا وُلاةَ امرِكَ، وَوالَوْا أعدآءَكَ، وَعادَوْا اولياءَكَ، وَعَرَفُوا نعمَتَكَ ولم يَذكُرُوا آلآءَكَ، وأَمِنُوا مَكرَكَ، وَقَسَتْ قُلُوبُهُم عَنْ ذِكرِكَ، واستَحَلُّوا حَرامَكَ، وَحَرَّمُوا حَلالَكَ.

اللّهُمَّ اكفُفْ بأسَهُم، وافلُلْ حَدَّهُم، وَأوهِن كَيدَهم، وَأشمِتْ عَدُوَّهُم واشفِ صُدُور المُؤمِنينَ. اللّهُمَّ إنَّهُم أضاعُوا الصَّلَواتِ، واتَّبَعُوا الشَّهواتِ، وَعَمِلُوا السيئاتِ. اللّهُمَّ فَخُذهُم بالبَلِيّاتِ، وأحلِل بِهِمُ الويلاتِ، وَأرِهِمُ الحَسَراتِ يا اللهُ يا إلهُ الارضينَ والسَّماواتِ.
اللّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحمَّدٍ وآلِ مُحمَّدٍ، وَارحَمنا بِرَحمَتِكَ يا أرحَمَ الراحِمينَ.

الصحيفة السجادية
"الامام علي بن الحسين عليهما السلام"

المقدمة

لقد شاء الحق سبحانه وتعالى ان يخلق الانس والجن دون سائر المخلوقات لعبادته تشريعاً وليس تكويناً مثل بقية مخلوقاته. لذلك وهب الانسان حرية الاختيار في تحديد معتقداته وافكاره بعد ان بين له سبحانه وتعالى سبيل الحق وطرق الضلالة عن طريق كتبه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً. ان هذا الخلق التشريعي للانسان جعله يتميز عن سائر المخلوقات بعدة صفات منها؛ فطرة الانسان على دين التوحيد، وحرية الاختيار بين طريق الخير وبين طرق الشر، وحب الشهوات، وتركيب الانسان وما يحتوي عليه من جانبي الفجور والتقوى، وتقرير الاختبار على الانسان في الحياة الدنيا، والمثول للحساب في اليوم الآخر بناء على ما قدم الانسان لنفسه في الحياة الدنيا.

وبناء على رحمة الباري عز وجل وتلطفه بالانسان فانه لم يكل الانسان لقدراته المحدودة في الوصول الى سدرة الصواب في هذا الوجود والتصدي لعدوه اللدود ابليس والتحرر من احابيله وتسويلاته، فإنه بعث للانسان رسالة الاسلام عن طريق الانبياء والرسل هدى ورحمة للناس في الدنيا والآخرة. ولقد نادى بهذه الرسالة الانبياء والرسل كافة على مدار التاريخ البشري، فما وجدوا من اقوامهم إلا الانكار، والتكذيب، والتشريد، واثارة الشكوك والاقاويل الهابطة، هذا بجانب السخرية والاستهزاء بهم صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً. وقد شاءت حكمته جل وتعالى شأنه ان يختم رسالته ويتم نعمته على الناس على

يد خاتم الانبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم، ومن شدة لطفه وترحمه على الناس سبحانه وتعالى انه وعد بحفظ هذه الرسالة الغراء من ان تنال منها ايدى العابثين والمتأبطين شراً.

وقد استطاعت الامة الاسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ان ترقى الى قمة القمم بين سائر الامم عندما سارت في ضوء رسالة الاسلام الوضاءة وهي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ولكن عندما ابتعد الناس بالتدريج عن اتباع الهدى الاسلامي المنير مؤثرين بذلك اتباع شهواتهم ورغبات اسيادهم، وما رافق ذلك الانحراف من تأويلات جائرة للنصوص القرآنية الكريمة وسياسة الدس والوضع في الاحاديث النبوية الشريفة من قبل فقهاء السلاطين ومن وشجت عروقه على طريقتهم، حتى وصلنا الى المستوى الهابط الذي نعيشه في هذه الايام. فإذا ما تأملنا المجتمعات التي تعلن عن ذاتها امام المجتمع الدولي انها اسلامية فإننا نجد قمة التناقضات الفكرية مستقرة في اذهان الناس، هذا بجانب الانفصام الحاد بين الافكار التي تلوكها الالسن والانماط السلوكية في شتى مناحي الحياة. اضف الى ذلك المخالفات الصريحة للمبادئ الاسلامية الاساسية في جميع القضايا الحياتية. مما ادى الى تشويه صورة الاسلام ومبادئه في اذهان الناس على المستويين المحلي والدولي ظناً من الناس كافة ان ما يرونه في هذه المجتمعات المتخلفه يمثل حقيقة الاسلام وانعكاساً لتعليماته. والحق ان جميع ما يجري في هذه المجتمعات لا يمثل حقيقة الاسلام ومبادئه. فالاسلام يأمر بالعدل، وازالة الظلم، والمساواة، واطلاق الحريات، والاخاء، والتعاون، وعدم الاستغلال، وتحريم

الربا، وعدم الغش، والابتعاد عن الفتنة والنميمة، ويأمر بالصدق وينهى عن الكذب، ويأمر بالامانة والابتعاد عن شهادة الزور، ويدعو الى التماسك والوحدة وينهى عن التفتت والفرقة، ويأمر بالاخلاص والولاء واتقان العمل. فأين المجتمعات الاسلامية وما يجرى فيها عن هذه الاخلاق الكريمة التي أمر الاسلام بها؟

ان حقيقة هذه المجتمعات وما يجري فيها يكمن في انها اصبحت مستودعاً تصب فيه الشهوات الفردية وانعكاساتها التأويلية والسلوكية، وانتشار الافكار الفلسفية المتضادة ذاتياً من جهة ومع تعليمات الاسلام من جهة أخرى. هذا بجانب الغزو الثقافي الحالي لتلك المجتمعات وما صاحبه من شعارات قومية واقليمية زادت في إثارة الزوابع الفكرية وانتشار الخلل والتناقض في الانماط السلوكية داخل المجتمع الواحد.

لقد جاء هذا الكتاب بفصوله الثمانية ليبين للقارئ العزيز كيف تكون التربية واصولها الاساسية تنبثق من المبادئ الفكرية التي تميز مجتمعاً عن آخر في وقت تعيش فيه اغلب المجتمعات الاسلامية بلا هوية سواء على المستوى الايدولوجي او المستوى التربوي، راجياً الباري عز وجل ان يكون في هذا الكتاب من الخير ما يساعد أمتي في النهوض من سباتها العميق والعودة الصادقة الى النهج الذي جعل منها في السابق خير أمة اخرجت للناس.

والله ولي التوفيق

السيد الدكتور حسن الحياري

المحتويات — رقم الصفحة

الفصل الأول

الأبعاد الفكرية لمفهوم الحياة الدنيا

الابعاد الفكرية لمفهوم الحياة الدنيا

منذ اللحظة الأولى التي وجد الإنسان فيها نفسه على هذا الكوكب ذهب ليبحث عن حقيقة وجوده وما يتصل به من حقائق توضح له حقيقة الحياة. وقد هدفت هذه الدراسة لتوضيح المفهوم الحقيقي للحياة الدنيا وذلك عن طريق طرح جميع الأسس والمباديء الفكرية التي استطاع أن يصوغها الإنسان وفق ما توصل إليه من تأمل، وتفكير، وبحث حول الحياة الدنيا.

كما بينا قول الحق سبحانه وتعالى حول حقيقة الحياة الدنيا، فقد تبين أن هناك مفهومين متضادين للحياة الدنيا. ففي الوقت الذي اعتقد فيه الإنسان أن الحياة الدنيا تشكل نهاية، طموحاته، وأهدافه، ومبلغ علمه، نجد أن الحق سبحانه وتعالى بين حقيقة الدنيا على أنها دار اختبار وفناء، كما أنها تعد مقدمة للحياة الأخرى. وهذا ما توصلت اليه هذه الدراسة.

الابعاد الفكرية لمفهوم الحياة الدنيا

مقدمة : -

تعد الحياة الدنيا وما يتصل بها من أسرار من أهم الأمور التي شغلت الإنسان عبر تاريخه. فقد شغلته وهو في طوره البدائي كما شدت انتباهه بشكل قوي وكبير وهو يقوم بنسج تاريخه الحضاري، وما تزال تشغله وتجذب اهتماماته في هذه المرحلة المادية التي تشكل أوج حضارته الإنسانية. وستبقى الحياة الدنيا وأسرارها محطة أنظار الباحثين والعلماء في مختلف اهتماماتهم الفكرية وتخصصاتهم العلمية حتى يرث الحق سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها. هذا بجانب اهتمام الإنسان العادي بهذه المعضلات التي تلف حقيقة الحياة الدنيا لما لها من آثار واسعة النطاق على مجريات أموره الحياتية وتطلعاتة المصيرية.

لقد حاول الإنسان الوصول إلى لباب القضايا المهمة التي شغلته منذ فجر تاريخه عن طريق العقل الإنساني بعد أن صدف عن النهج الإلهي الذي أرسله الحق سبحانه وتعالى هدى ورحمة للناس أجمعين. وهذا التوجه الإنساني نحو التعرف إلى أسرار الوجود بالاعتماد الكلي على العقل الإنساني أطلق عليه الفكر الفلسفي. ومن أبرز الفلسفات التي كان لها تأثيرها العميق في تشكيل المفاهيم والمعتقدات الإنسانية حول الحياة الدنيا وأسرارها الفلسفة اليونانية.

وقد استطاع الإنسان عبر تاريخة الطويل أن يكون عدة مفاهيم ومعتقدات حول الحياة الدنيا وما يتصل بها من أسرار. وقد تتفق بعض هذه المفاهيم والمعتقدات مع بعض في عدة جوانب وتختلف في جوانب أخر. وهذا يعود إلى مصادر المعرفة التي قصدها الإنسان للوصول إلى تصور دقيق لمفهوم الحياة الدنيا. هذا بجانب الاهتمامات الذاتية والشهوية للإنسان في مختلف مراحل وجوده الذاتي عبر التاريخ ومدى تأثيرها عليه وهو يسعى جاهدا للوصول إلى حقيقة الحياة الدنيا.

وقد اتجه الإنسان منذ فجر تاريخه حتى يومنا هذا للبحث في بعض القضايا الأساسية التي تقوده بدورها إلى تشكيل مفهوم خاص بالحياة الدنيا. ومن أهم القضايا التي طرقها الإنسان بحثا، وتحليلا، وتأملا: فكرة الألوهية، وطبيعة الكون، وحقيقة الموت، والبعث والخلود، وطبيعة الذات الإنسانية، ومكانة الإنسان في

الكون، والخير والشر، وعلاقة الفرد بالجماعة.

وقد اختلفت الآراء البشرية في هذه القضايا الأساسية بشكل واسع مما أدى إلى تكون فلسفات متعددة ومذاهب فكرية نتج عنها تشكيل تجمعات إنسانية فكرية لكل منها تصورها الخاص للحياة الدنيا في ضوء مفهومها للقضايا الأساسية السالفة الذكر. لذلك أمسى لكل تجمع إنساني من هذه التجمعات الفكرية عقائده، ومثله، وعاداته، واهدافه التي يسعى إلى تحقيقها جميعا من خلال تربية أبناء المجتمع الواحد وفق إطارهم الفكري العام للحياة الدنيا.

ولكن الحق سبحانه وتعالى بحكمته، وعزته، وجلاله، وتلطفه بعباده، ومعرفته التامة الدقيقة للانسان وما جسد فيه من قدرات محدودة لا تمكنه من الوصول الى سدرة الصواب في تلك الأمور الأساسية التي شدت انتباهه عبر تاريخه، فقد وعد الله الإنسان ان يبعث له الحق المبين الذي ينطق بكل ما يحتاجه من أمور وقضايا أساسية تنير له أسس التفكير والاعتقاد السليم للمعضلات كافة التي لا يستطيع الإنسان بقدراته المحدودة أن يسبر غورها ويصل إلى مكنوناتها لأنها خارج طوق وسائله وقدراته. وقد اختار الحق سبحانه وتعالى اصفياءه من البشر من أنبياء ورسل لتبليغ هذا الحق المنير، أساس الهداية والرشد إلى الإنسان في عدة حقب من تاريخه لكي لا يكون للانسان على الله حجة يوم المثول أمام الحق سبحانه وتعالى. وقد بدأ هذا النور في الوصول إلى الإنسان ليضيء له السبل كافة والقضايا التي يحتاجها منذ سيدنا نوح عليه السلام، واكتمل هذا النور المبين بخاتم الإنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي ضوء ما تقدم نستطيع أن نقر أن هناك مفهومين أساسيين للحياة الدنيا، فالمفهوم الأول يمثل ما وضحه لنا الحق سبحانه وتعالى عن طريق الأنبياء والرسل وما صاحبهم من كتب سماوية. أما المفهوم الآخر فتمثله الآراء كافة المتعددة التي وصل إليها الإنسان عن طريق بحوثه، وتأملاته حول الحياة الدنيا وما يتعلق بها من أسرار ومكنونات. وسوف نبين في هذه الدراسة كلا المفهومين للحياة الدنيا مبتدئين بالمفهوم الإسلامي لأنه لازم الإنسان منذ بداية وجوده على هذا الكوكب. ويبدو ذلك واضحا جليا في قوله تعالى:

«قُلْنا اهبِطوا منها جَميعاً فإما يأتِيَنَّكُم مني هُدىً فَمَن تَبِعَ هُداي فلا خَوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنون» والذين كَفروا وكَذبوا بآياتِنا

أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (١)

وقال تعالى:

«قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى» (٢)

المفهوم الإسلامي للحياة الدنيا

حسبنا البشر أن نعلم جميعا أن المفهوم الإسلامي للحياة الدنيا يمثل قول الحق سبحانه وتعالى حول بعض ما خلق في هذا الوجود بجانبيه الفيزيقي والميتافيزيقي، رحمة وتلطفا منه بعباده من الإنس، لعلمه التام والدقيق أن الإنسان لن يقوى على الوصول إلى سدرة الصواب في هذا الموضوع باعتماده على قدراته المحدودة التي جسدها فيه سبحانه وتعالى.

ويلزمنا أن نعلم علم اليقين أن الحق سبحانه وتعالى وصف لنا الحياة الدنيا وبين لنا قدرها في الوجود الكلي للوجود في ضوء علمه الشامل والمحيط بكل شيء، وحكمته التامة، وقدرته المطلقة، وخلقه لكل شيء في هذا الوجود. لذلك فإن هذا المفهوم الساطع بني على حقائق وعلم ثابت لا يشوبه أي زلل أو خطأ. كما بين لنا سبحانه وتعالى كيف سينظر الإنسان إلى الحياة الدنيا وما سيؤول إليه مصيره في دار الخلود وفق نظرته للحياة الدنيا وسلوكه في ضوء ذلك. فالإنسان الذي عد الحياة الدنيا مبلغ علمه ونهاية طموحاته وأهدافه يكون قد اخفق في فهم حقيقتها، أما الإنسان الذي عد الحياة الدنيا جزءا محدودا من الوجود يكون قد أصاب حقيقتها.

إن المفهوم الإسلامي للحياة الدنيا ينطوي على ثلاث قضايا أساسية هامة توضح لنا المفهومين الكلي والجزئي للحياة الدنيا. فالقضية الأولى تمثل وصف الحق سبحانه وتعالى لطبيعة الحياة الدنيا وما تجسد فيها من متع شهوية، وزخارف، ومفاتن جعلتها تتصف بالغرور، ويغوى بها ويفتن من جعلها مبلغ علمه ومركز اهتماماته. ويشهد على ذلك قوله عز من قائل في الآيات القرآنية الحكيمة التالية:

---

١ - سورة البقرة، آيه ٣٨-٣٩.

٢ - سورة طه، آيه ١٢٣.

قال تعالى:

«وَمَا الحياةُ الدُّنيا إلاّ لَعِبٌ وَلَهوٌ وَلَلدّارُ الآخِرَةُ خيرٌ لِلّذِينَ يَتّقُونَ أفلا تَعقِلون» (١)

قال تعالى:

«وَمَا هذه الحياةُ الدُّنيا إلاّ لَهوٌ وَلَعِبٌ وإنّ الدّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لو كانوا يَعلَمونَ» (٢)

قال تعالى:

«إنّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهوٌ وإن تُؤمِنُوا وَتَتّقوا يُؤتِكُم أُجورَكُم ولا يَسئَلكُم أموَالَكُم» (٣)

قال تعالى:

«اعلَمُوا أنّما الحَياةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَينَكُم وَتَكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ كَمَثَلِ غَيثٍ أعجَبَ الكُفّارَ نَباتُهُ ثُمّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصفَرّاً ثُمّ يَكونُ حُطاماً وفي الآخِرَةِ عَذابٌ شَديدٌ ومَغفِرةٌ مِنَ اللهِ ورِضوانٌ وما الحَياةُ الدُّنيا إلاّ مَتاعُ الغُرورِ» (٤)

قال تعالى:

«كُلُّ نَفسٍ ذائِقَةُ الموتِ وإنّما تُوَفّونَ أُجورَكُم يَومَ القِيامةِ فَمَن زُحزِحَ عَنِ النارِ وأُدخِلَ الجَنّةَ فقد فازَ وما الحياةُ الدُّنيا إلاّ مَتاعُ الغُرورِ» (٥)

إن هذا النداء اللطيف الذي يوجهه الله سبحانه وتعالى إلى أحد مخلوقاته وهو الإنسان في الآيات السابقة التي تنطوي على حقيقة الحياة الدنيا، يدل على رحمة الحق سبحانه وتعالى وتلطفه بهذا الإنسان الذي كرمه على سائر المخلوقات(٦) إذ كشف له حقيقة هذه الحياة الدنيا وما تجسد بين ثناياها من متع وزخارف ومفاتن تجعل الإنسان الذي صدف عن الخط الرسالي مخدوعا بهذه المتع والزخارف الدنيوية ومنساقا وراءها حتى يجد نفسه ماثلا أمام الحق سبحانه وتعالى ليعلم علم اليقين يوم لا تنفع توبة ولا ندم، إنه ذهب ضحية هذه الدنيا ومفاتنها.

---

١ - سورة الانعام، آيه ٣٢.

٢ - سورة العنكبوت، آيه ٦٤.

٣ - سورة محمد، آيه ٣٦.

٤ - سورة الحديد، آيه ٢٠.

٥ - سورة ال عمران ١٨٥.

٦ - انظر مكانة الإنسان في الكون، التصور الاسلامي للوجود، للمؤلف.

حسبنا أن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى عندما يصف لنا حقيقة الحياة الدنيا إنما يصف شيئا من مخلوقات خلقها وهو العالم الوحيد بأسرارها ومقدارها في هذا الوجود الذي خلقه ويجهل الإنسان قسما كبيرا منه ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذه الحياة الدنيا ليضع الإنسان امام الاختيار بعد ان وهبه الملكة العقلية التي تميز بها عن سائر المخلوقات. ولكن الباري عز وجل لم يكل الإنسان لعقله فقط للوصول إلى أسرار الحياة ومكنوناتها ؛ لعلمه التام أن الإنسان لا يقوى على هذه المهمة؛ لأنه خلقه وجسد فيه من القدرات التي يعلمها تماما أنها عاجزة عن أن تسبر غور أسرار الحياة الدنيا ومكنوناتها. لذلك بعث الأنبياء والمرسلين لهذا الإنسان بالكتاب والحكمة ليأخذ بيد هذا الكائن إلى الطريق القويم الذي ينير لأتباعه حقيقة الحياة الدنيا من أجل أن يسلكوا في شتى ميادين الحياة وفق هذا المفهوم الساطع للحياة الدنيا. وعندما يعي الإنسان حقيقة الحياة الدنيا يجب أن يسير في ضوء ذلك في مجالات الحياة كافة. لذلك نجد أن الباري عز وجل خاطب قسما من المؤمنين الذين تخاذلوا عن القيام بواجب الجهاد وكأنهم قدروا الحياة الدنيا أكثر مما تستحق إذ قدموها على الآخرة من حيث القيمة. فإن فعلوا ذلك فإنهم يستحقون العذاب الأليم.

قال تعالى:

«يا أَيُّهَا الذين آمَنوا ما لَكُم إذا قِيلَ لَكُم انفِروا في سبيلِ اللهِ اثّاقَلتُم إلى الأرض أَرَضِيتُم بالحياةِ الدُّنيا مِنَ الآخرةِ فما مَتاعُ الحياةِ الدنيا في الآخرةِ إلاّ قليلٌ* إلاّ تَنفِروا يُعَذِّبكُم عَذاباً أليماً ويَستَبدِل قوماً غَيرَكُم ولا تَضُرُّوهُ شَيئاً واللهُ على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ» (١)

نعم إن الذي يخشى الجهاد ويتقاعس عن النفير في سبيل الله يكون قد أخطأ حقيقة الحياة الدنيا وأعطاها وزنا أكثر من حقيقتها لإنه لو عرف أنها زائلة على أي وجه كان، وما يستفيد الإنسان منها إلا كل ما يقربه زلفى إلى الله سبحانه وتعالى ليسعد بذلك في الحياة الآخرة، لما تردد لحظة واحدة في الخروج إلى ساحة الجهاد، إلى الباب الذي جعله الله لخاصة أوليائه من أجل أن يستشهدوا في سبيله ويكونوا من الفائزين، أما الذين يخشون الانتقال إلى الحياة الآخرة، دار الخلود والسلام، فهم الذين استطاعت الحياة الدنيا أن تفتنهم بزخارفها ومفاتنها التي تلاقي إقبالا شديدا عند الإنسان الذي تسيطر عليه شهواته، وإذا انساق الإنسان وراء

١ - سورة التوبة، آيه ٣٨-٣٩.

هذا التوجه فإن الحياة الدنيا تسيطر على تفكيره ومعتقداته وجميع أنواع سلوكه إذ تتشكل أهدافه وغاياته في ضوء هذا المفهوم الذي لا يتعدى الحياة الدنيا، وعندما تكون الحياة الدنيا مبلغ علم هذا الإنسان أصبحت في نظره الوجود بأكمله بدلا من أن تكون جزءا منه، وكم من الإنس والجن أصبحوا عبيدا للحياة الدنيا عندما انساقوا وراء مفاتنها ومحاسنها وأدبروا عن جادة الطريق.

قال تعالى:

«يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ أَلَم يَأتِكُم رُسُلٌ مِنكُم يَقُصُّونَ عَلَيكُم آياتي وَيُنذِرونَكُم لِقاءَ يَومِكُم هذا قالوا شَهِدنا على أَنفُسِنا وَغَرَّتهُمُ الحياةُ الدُّنيا وشَهِدوا على أَنفُسِهِم أَنَّهُم كانوا كافِرينَ» (١)

فالحياة الدنيا بما احتوت وتجسد فيها من مفاتن وزخارف جعلت الإنسان ينشد إليها لأنها تتفق مع شهواته التي تنازعه ليلا ونهارا على غشيانها تاركا وراءه نهج الله سبحانه وتعالى الذي تتجسد فيها الرسالات الإلهية التي جاءتنا عن طريق الرسل. لذلك فإن الحق سبحانه وتعالى ينصح الإنسان بأن لا يغتر بالحياة الدنيا ومفاتنها ويعرض عن حقيقتها لأنها دار ابتلاء وفناء، وما يقدمه الإنسان فيها من خير أو شر سوف يلاقيه أمامه عندما يمثل أمام الحق سبحانه وتعالى.

قال تعالى:

«يا أَيُّها الناسُ إِنَّ وَعدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنيا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرورُ» (٢)

لذلك فإن الباري عز وجل طلب من عباده الأوفياء أن يستخدموا جميع ما وهبهم الله من نعم مختلفة في ضوء الحقيقة التي وضحها لهم في كتابه العزيز بخصوص الحياة الدنيا والحياة الآخرة، على أن الحياة الدنيا هي دار الابتلاء والفناء وما يعمله الإنسان في الحياة الدنيا سوف يؤهله للحياة في دار الخلود إما في الجنة التي وعد بها المتقون وإما في نار جهنم مصير الذين ابتعدوا عن النهج الإلهي القويم. وفي ضوء ذلك جاءت الآية الكريمة التي تحث الإنسان على أن يسعى في حياته الدنيا إلى طلب الآخرة بكل قوة وما أوتى من عزم وألا ينسى نصيبه من الحياة الدنيا بعد أن يكون قد جد واجتهد وتفانى في طلب الحياة الآخرة. ولكن طلب الدنيا أيضا يجب أن يكون وفق مفهومه للآخرة وما يقربه منها حسب ما

١ - سورة الأنعام، آيه ١٣٠.

٢ - سورة فاطر، آيه ٥.

وضحه لنا الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز.

قال تعالى:

«وابتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدّارَ الآخِرَةَ ولا تَنسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنيا وأحسِن كما أحسَنَ اللهُ إليكَ ولا تَبغِ الفَسادَ في الأرضِ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفسِدينَ» (١)

أما القضية الثانية فتكمن في نظرة الإنسان نحو الحياة الدنيا. فمن الناس من عرف كنه الحياة الدنيا واسرارها ولم يعطها سوى قدرها فأعطاها ما تستحق وأخذ منها ما يقوي موقفه وينير مستقبله في الحياة الآخرة يوم المثول أمام الحق سبحانه وتعالى.

فهذا النوع من البشر يكون قد استخدم الحياة الدنيا وغنم منها ما يؤهله للخلود في جنات النعيم. وهؤلاء هم الذين استقاموا على النهج الإلهي وساروا في ضوئه وتفيؤوا ظلاله في أمورهم كافة الحياتية، وكان همهم الوحيد في الحياة الدنيا النجاح في دار الابتلاء للفوز في الدار الآخرة. أنهم اتصلوا بالرحمن عن طريق تصديقهم رسله واتباع الذكر الحكيم الذي بعث إليهم لينير طريقهم، فمن القرآن الكريم عرفوا أن الله سبحانه وتعالى خلق الموت والحياة ليبلوا الإنسان ماذا سيفعل في الحياة الدنيا وفي ضوء عمله في هذه الحياة سيؤول مصيره في الحياة الآخرة.

قال تعالى:

«الذي خَلَقَ المَوتَ والحَياةَ لِيَبلُوَكُم أيُّكُم أحسَنُ عَمَلاً وهُوَ العَزيزُ الغَفورُ» (٢)

أما القسم الآخر من الناس فقد أعرضوا عن ذكر الله ونظروا إلى الحياة الدنيا بمنظار ذاتي شهوي إذ أصبحت الدنيا مبلغ علمهم ومحور اهتماماتهم ونهاية غاياتهم وآمالهم بدلا من أن يستخدموا الدنيا لمصالحهم واهدافهم وهذا هو الأساس الذي يرتكز عليه نجاحهم في دار الاختيار والفناء. فالإنسان عند الحق سبحانه وتعالى أكرم من الحياة الدنيا التي خلقت هي والموت فقط من أجل اختباره، ولكن هيهات أن يفقه الإنسان مكانته السامقة التي وهبه إياها الخالق جلت وتعالت قدرته، فذهب هذا القسم من البشر ليتنازل عن مكانته من سيادة الحياة الدنيا واستخدامها لتحقيق غاياته

---

١ - سورة القصص، آيه ٧٧.

٢ - سورة الملك، آيه ٢.

وأهدافه إلى عبادة الحياة الدنيا وما تنطوي عليها من زخارف ومفاتن حتى أمسى هذا النوع من البشر عبيدا لهذه الحياة الدنيا، فجميع تصوراتهم واهتماماتهم وقضاياهم المتعددة لا تتعدى حدود الحياة الدنيا، إنها ملكتهم بزخرفها وغرورها، كيف لا؟ وهم عبيد شهواتهم قبل أن يكونوا عبيدا للحياة الدنيا. إنهم أدبروا عن الحق المبين الذي جاء به الرسل والأنبياء لأنه لا يتناسب وأهواءهم وشهواتهم، فأصبحوا ضحايا للحياة الدنيا تسوقهم أهواؤهم وشهواتهم فقط نحو مفاتنها وزخرفها.

وقد خاطب الحق سبحانه وتعالى الإنسان من خلال الآيات القرآنية الحكيمة ليستخدم دنياه من أجل الآخرة. ولكن قسما من الناس لا يريدون إلا الحياة الدنيا وما فيها من شهوات، والقسم الآخر من الناس يريد الحياة الدنيا كوسيلة توصله إلى الفوز العظيم في اليوم الآخر، يوم المثول أمام الباري عز وجل. وتبدو النظرة الإنسانية المزدوجة للحياة الدنيا «نظرة الإنسان الذي اقتصرت فقط على الحياة الدنيا ونظرة الإنسان الذي فهم الحياة الدنيا على أساس أنها مقدمة للآخرة» واضحة جلية في الآية الكريمة التالية:

قال تعالى:
«وَلَقَد صَدَقَكُمُ اللهُ وَعدَهُ إِذ تَحُسُّونَهُم بِإِذنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلتُم وَتَنازَعتُم فِي الأَمرِ وَعَصَيتُم مِن بَعدِ ما أَراكُم ما تُحِبُّونَ مِنكُم مَن يُرِيدُ الدُنيا وَمِنكُم مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ...» (١)

أما الذين غفلوا عن حقيقة الحياة الدنيا وضلوا في سعيهم إذ عدوها هدفا منشودا فإن الحق سبحانه وتعالى وصفهم بأنهم عرفوا فقط ظاهر الحياة الدنيا ولم يجتلوا حقيقتها، كما أنهم غفلوا تماما عن حقيقة الآخرة والتي تعد غاية كل إنسان لبيب.

قال تعالى:
«يَعلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الحَياةِ الدُّنيا وَهُم عَنِ الآخِرَةِ هُم غافِلُونَ» (٢)

أما القضية الثالثة والأخيرة فتكمن في مصير الإنسان في ضوء نظرته للحياة الدنيا. فالإنسان الذي فهم حقيقة الدنيا وسار في ضوء ذلك في شتى أموره الحياتية فإنه يكون قد استخدم الحياة الدنيا وما فيها من متع ومظاهر للوصول الى الهـــــدف

١ - سورة ال عمران، آيه ١٥٢.
٢ - سورة الروم، آيه ٧.

الأسنى وهو الفوز في دار الابتلاء (الحياة الدنيا) ليكون مصيره في الآخرة في جنات النعيم التي أعدت لهؤلاء الذين كانوا على درجة عالية من التبصر والتفكر إذ استخدموا ملكتهم العقلية بأفضل وأنجح السبل فأصبحت الحياة الدنيا بالنسبة لهم وسيلة توصلهم إلى جنات النعيم.

أما القسم الآخر من البشر، فهم الذين ضلوا الطريق بسبب بعدهم عن النور السماوي المبين، هذا إلى جانب عدم استخدامهم الملكة العقلية التي وهبها الله سبحانه وتعالى للإنسان بالصورة الصحيحة. لذلك فإنهم نظروا للحياة الدنيا على انها غاية وليست وسيلة، فملكتهم بمظاهرها البراقة ومفاتنها الخادعة ومتعها الزائلة ليغدوا عبيدا لها بالرغم من أن الله سبحانه وتعالى مكن الإنسان من أن يملك الحياة الدنيا ويسيرها وفق أهدافه النبيلة.

والشيء العجيب الذي لا يتعداه عجب أن هؤلاء الذين ملكتهم الحياة الدنيا لسوء استخدامهم الهبة الإلهية المتمثلة بالملكة العقلية، ذهبوا لينالوا من الذين ملكوا الحياة الدنيا واتخذوها وسيلة للوصول إلى غاياتهم النبيلة لحسن استخدامهم لعقولهم واتباعهم نهج الله القويم عن طريق إثارة الخرافات والأوهام والترهات، فتارة ينعتونهم أنهم لم يستخدموا عقولهم وتارة أخرى يصفونهم بالرجعية والتخلف وأنهم ليس لهم علم بسياسة واقتصاد، وادارة وإرشاد، ولا في فنون الحرب وإدارة شؤون البلاد. نعم كل هذه التهم المغرضة وغيرها من المهاترات التي نطق بها هؤلاء الذين ملكتهم الدنيا لتعلقهم المفرط بشهواتهم التي وشجت عليها نفوسهم جميعها جاءت لتنم على جهل هؤلاء القوم بحقيقة الإنسان وحقيقة دنيا الإنسان، ومكانة هذا الإنسان في الوجود. إن العجب ألا يذهب هؤلاء الناس إلى كيل التهم وإثارة العبارات الجوفاء حول الذين عرفوا حقيقة الحياة الدنيا من خلال نظرتهم الكلية للوجود. فأصبحت الحياة الدنيا جزءا من كل وليست كل شيء كما خدع بها عبيدها. إنهم عندما يذهبون إلى إشاعة هذه الأقاويل الوضيعة ينطلقون من مفاهيمهم الفجة وإدراكهم المحدود وشهواتهم المتعددة والمتغيرة بحسب الظروف والمناسبات، لذلك تجدهم ينظرون إلى كل شيء في الوجود من خلال شهواتهم حتى أصبحت عقولهم تتبع شهواتهم المتقلبة والتي تتلون بحسب الظروف، ألم يكفهم انهم جعلوا العقل مقودا لشهواتهم بدلا من أن يكون قائدا لسلوكهم، واستخدمتهم الدنيا بدلا من أن يستخدموها فذهبوا إلى إثارة الاشاعات والتهم المغرضة حول الذين عرفوا حقيقة

الحياة الدنيا وحقيقة العقل الإنساني وتصرفوا في ضوء ذلك فساقوا الدنيا وما فيها لتحقيق غاياتهم النبيلة وجعلوا من العقل قائدا لتصرفاتهم وسلوكهم.

فمن هذا الموقع نحب أن نوجه مجموعة من الأسئلة والاستفسارات لهؤلاء الذين ضلوا الحقيقة التي تتعلق بكيانهم ووجودهم الدنيوي والأخروي واتهموا الطرف الآخر الذي اجتلى حقيقة ما فاتهم بأنهم متخلفون ورجعيون وإلى غيرها من التهم.

- هل الإنسان الحر هو الذي يستخدم الدنيا لتحقيق أهدافه وغاياته أو الذي تستخدمه الدنيا ليغدو عبدا من عبيدها؟

- هل الإنسان المتخلف الجاهل هو الذي يملك الدنيا أو الذي تملكه الدنيا؟

- هل الإنسان العالم الذي يعلم حقيقة الحياة الدنيا ويسوقها لتحقيق اهدافه أو الذي ينجر وراء متعها الزائلة؟

- هل الإنسان المفكر العالم الذي يصل إلى حقيقة مكانة الإنسان في الكون ويتصرف في ضوء ذلك، أو الذي يسلب الإنسان مكانته السامقة في الوجود ويهوي به إلى رتبة وضيعة لا يضاهيه فيها مخلوق؟

- من هو الذي يكرم العقل الإنساني ويعلي من شأنه الذي يجعله تابعا لشهواته أو الذي جعل منه قائدا لسلوكه وتصرفاته؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة لا تحتاج إلى علم غزير أو فراسة عالية فهي واضحة بوضوح أسئلتها، هذا إذا ما أراد الإنسان ألا يمارس هوايته الجدلية للالتفاف على الحقائق الساطعة.

ففي الوقت الذي ستكون فيه الجنة هي المأوى للذين اجتلوا حقيقة الحياة الدنيا وسلكوا في ضوئها شتى مناحي الحياة فإن جهنم ستكون الموئل للذين وقعوا في شباك الحياة الدنيا وغرتهم بمفاتنها ومحاسنها ومتعها الزائلة حتى أصبحت مبلغ علمهم ومركز اهتماماتهم. ويبدو ذلك واضحا جليا في قوله سبحانه وتعالى:

«ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ* أُولَئِكَ الذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ* لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ

الخاسِرونَ» (١)

قال تعالى:

«أُولئِكَ الذينَ اشتَرَوا الحَياةَ الدُّنيا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنهُمُ العَذَابُ ولا هُم يُنصَرونَ» (٢)

قال تعالى:

«وقِيلَ اليَومَ نَنساكُم كَمَا نَسِيتُم لِقَاءَ يَومِكُم هَذا ومَأواكُمُ النارُ وَمَا لَكُم مِن ناصِرِينَ* ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذتُم آياتِ اللهِ هُزُوا وَغَرَّتكُمُ الحَياةُ الدنيا فاليَومَ لا يُخرَجونَ مِنها وَلاَ هُم يُستَعتَبونَ» (٣)

قال تعالى:

«إنَّ الذينَ لا يَرجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بالحَياةِ الدُّنيا واطمَأَنّوا بِها والذين هُم عَن آياتِنا غافِلونَ* أُولئِكَ مأواهُمُ النارُ بِما كانوا يَكسِبونَ* إنَّ الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ يَهديهم رَبُّهُم بإيمانِهِم تَجري مِن تَحتِهِمُ الانهارُ في جَنَّاتِ النعيم» (٤)

نعم هذا هو الفرق الشاسع بين الفريقين من حيث المصير الذي سيؤول إليه كل طرف في الآخرة. إنه المستقبل الخالد للإنسان إما في جنات النعيم وإما في نار جهنم، فهذا المستقبل الذي يجب أن يشد انتباه الناس من حيث الفكر والمعتقد والسلوك، والتضحية بالمال والنفس، وليس المستقبل الذي يتحدث عنه أغلب الناس في هذه الأيام. فكلهم يريد أن يشيد مستقبله الدنيوي بكل ما أعطي من قوة بالطرق والأساليب المعروفة كافة لدى البشر ظنا منهم أنه لا يوجد مستقبل سوى هذا النوع. فمن المخجل والمؤسف حقا أن نجد أغلب الذين يظهرون إسلامهم يذهبون إلى هذا النوع الهابط من أنواع المستقبل، فشدتهم الدنيا إلى زخرفها وجمالها ومتعها الزائلة، فأصبحت محور اهتمامهم ومبلغ علمهم، ومن هنا برز الفرق الشاسع بين معتقداتهم ومجموعة سلوكاتهم المناقضة لتلك المعتقدات، وفي ضوء ذلك نستطيع أن نفهم قول الحق سبحانه وتعالى الذي خاطب فيه المؤمنين الذين لا يريدون أن يخرجوا إلى الجهاد في سبيله وكيف كان الوعيد لهم إن لم يخرجوا للجهاد وكيف يجب أن ينظروا إلى الحياة الدنيا على أنها مقدمة للآخرة.

١ - سورة النحل، آيه ١٠٧ - ١٠٩.
٢ - سورة البقرة، آيه ٨٦.
٣ - سورة الجاثية، آيه ٣٤ - ٣٥.
٤ - سورة يونس، آيه ٧ - ٩.

قال تعالى:

«يا أيُّها الذينَ آمنوا ما لَكُم إذا قِيلَ لَكُمُ انفِروا في سَبيلِ اللهِ اثّاقَلتُم إلى الأرضِ أرَضيتُم بالحياةِ الدنيا مِنَ الآخرةِ فما مَتاعُ الحياةِ الدنيا في الآخرةِ إلاّ قليلٌ، إلاّ تَنفِروا يُعَذِّبكُم عَذاباً أليماً وَيَستَبدِل قَوماً غَيرَكُم ولا تَضُرّوهُ شيئاً واللهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ» (١)

وبعد إظهار الفرق بين متاع الحياة الدنيا وبين الآخرة وما يجب على المؤمن في ضوء ذلك من تصرف وسلوك فقد وجه الحق سبحانه وتعالى أنظار المؤمنين إلى طريق الخير والصواب، حين خاطبهم بقوله عز من قائل:

«انفِروا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدوا بأموالِكُم وَأنفُسِكُم في سَبيلِ اللهِ ذٰلِكُم خَيرٌ لكُم إن كُنتُم تَعلَمُونَ» (٢)

وهناك العدد الهائل من الأحاديث النبوية الشريفة التي حث فيها أصحابه وأتباعه وأبناء أمته المسلمة على فهم الحياة الدنيا على حقيقتها وعدم الاهتمام بها أكثر من قدرها. والعمل فيها ليس من أجلها ولكن للوصول إلى الآخرة ونعيمها. ولكثرة هذه الأحاديث الشريفة سوف نورد نماذج منها لتحقيق المراد دون الإطالة والإسهاب.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: جلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر وجلسنا حوله، فقال «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» (٣)

وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» (٤)

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء» (٥)

---

١ – سورة التوبة، آية ٣٨– ٣٩.

٢ – سورة التوبه، آية ٤١.

٣ – متفق عليه، رياض الصالحين ١٦٦.

٤ – متفق عليه.

٥ – رواه مسلم، رياض الصالحين.

وعن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»(١)

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(٢).

ومن المفيد جدا أن نرى معاً كيف فهم ابن القرآن وفارس الإسلام وربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام الحياة الدنيا، وكيف كان يصفها لأصحابه ويحذرهم منها. ولكثرة الخطب التي تناول فيها إمام البررة والمتقين الحياة الدنيا، فإننا سوف نورد بعضا منها لتوضيح المراد دون الإطالة والإطناب.

قال الإمام علي كرم الله وجهه في إحدى خطبه واصفا الدنيا: «ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها (جرى معها في مطالبها) فاتته، ومن قعد عنها واتته ومن أبصر بها (استخدمها لآخرته) بصرته ومن أبصر أليها (أصبحت مبلغ علمه واهتمامه) أعمته»(٣)

وفي خطبته الغراء يقول عليه السلام «... أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب لكم الأمثال، ووقت لكم الآجال، وألبسكم الرياش وأرفع لكم المعاش وأحاطكم بالإحصاء، وأرصد لكم الجزاء، وآثركم بالنعم السوابغ والرفد الروافغ، وأنذركم بالحجج البوالغ وأحصاكم عددا. ووظف لكم مددا في قرار خبرة ودار عبرة. أنتم مختبرون فيها ومحاسبون عليها فإن الدنيا رنق مشربها ردغ مشرعها، يونق منظرها ويوبق مخبرها. غرور حائل وظل زائل، وسناد مائل، حتى إذا أنس نافرها واطمأن ناكرها قمصت بأرجلها، وقنصت بأحبلها وأقصدت بأسهمها وأعلقت المرء أوهاق المنية. قائدة له إلى ضنك المضجع ووحشة المرجع ومعاينة المحل وثواب العمل»(٤)

١ - رواه البخاري، رياض الصالحين.

٢ - رواه مسلم، رياض الصالحين.

٣ - نهج البلاغة، الجزء الاول، ص١٣٠ - ١٣١.

٤ - نهج البلاغة، الجزء الاول ص١٣٣ - ١٣٤.

وفي خطبة أخرى يقول فيها«عباد الله أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبوا تركها، والمبلية لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها. فإن مثلكم ومثلها كسفر سلكوا سبيلا فكأنهم قد قطعوه، وأموا علما فكأنهم بلغوه وكم عسى المجري إلى الغاية ان يجري إليها حتى يبلغها. وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه وطالب حثيث يحدوه في الدنيا حتى يفارقها.

فلا تنافسوا في عز الدنيا وفخرها، ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها، ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها. فإن عزها وفخرها إلى انقطاع، وإن زينتها ونعيمها إلى زوال وضرائها وبؤسها إلى نفاد. وكل مدة فيها إلى انتهاء، وكل حي فيها إلى فناء. أوليس لكم في آثار الأولين مزدجر، وفي آبائكم الماضين تبصرة ومعتبر إن كنتم تعقلون. أولم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلف الباقين لا يبقون. أولستم ترون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال شتى فميت يبكي وآخر يعزي وصريع مبتلى. وعائد يعود وآخر بنفسه يجود، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وعلى أثر الماضي ما يمضي الباقي»(١).

إن ما ذكره الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبه البليغة الحكيمة حول الدنيا وصفاتها وكيف يجب أن ننظر إليها ونتعامل معها ينبثق من فهمه الصائب الدقيق لكتاب الله وسنة رسولنا الامين. هذا الفهم المتميز يبين لنا آثار المدرسة النبوية الشريفة في تفكير الإمام كرم الله وجهه. وما أحوجنا معشر المسلمين في هذه الأيام إلى أن نعي حقيقة وجودنا، وحقيقة دنيانا، وطبيعة نهجنا الإسلامي المنير، وأسس ومعالم مدرسة رسولنا الكريم لنصلح ما فسد من عقائدنا وأنماط سلوكنا، وننهض من سباتنا العميق على حين تتداعى علينا الأمم كتداعي الأكلة على قصعتها، إننا في أمس الحاجة للانتظام في المدرسة القرآنية الحكيمة والتي خرج منها رسولنا الكريم أصحابه البررة الطاهرين الذي شكل جمعهم الكريم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. إن هذه المدرسة الطاهرة زودت أبناءها بمشاعل النور والمعرفة وساروا في ضوء ذلك في طلب الدنيا وما فيها بهدف الفوز في الآخرة. لذلك ليس غريبا أن نجد أحد تلاميذ هذه المدرسة وهو الإمام علي كرم الله وجهه يتحدى الدنيا قائلا «يا دنيا يا دنيا إليك عني، أبي تعرضت، أم إلي تشوقت. لا حان حينك، هيهات غري غيري. لا حاجة

١ - نهج البلاغة، الجزء الاول. ص١٩١ - ١٩٢.

لــي فيك. قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها. فعيشك قصير، وخطرك يسيــر، وأملك حقيــر. آه مـــن قلــة الــزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المـــورد»(١)

الشكل رقم (١) يوضح حقيقة الحياة الدنيا في ضوء النهج الإلهي، كما يبين طريقة الفهم للقضايا الأساسية المتصلة بالحياة الدنيا والمصدر الذي انبثقت منه ويوضح أيضا أن الأهداف العامة والخاصة للإنسان تتكون من خلال الفهم الدقيق للحياة الدنيا. ويسعى الإنسان إلى اختيار الأسس والأساليب التربوية لتحقيق أهدافه بما ينسجـــم مع فهمـــه ومعتقداته للحياة الدنيا والمرتكزات التي أسس عليهــا هـــذا الفهـــم.

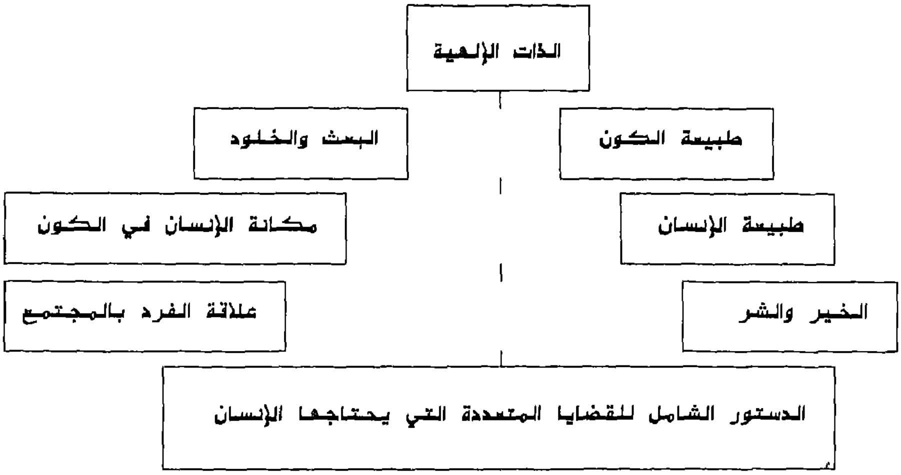
الحياة الدنيا في ضوء المدارس الفكرية البشرية

بعـد أن عرضنـــا فـــي الصفحـات السابقــة المفهـــوم الاســـلامي للحيـــاة الدنيـا ومــا ينعكـس عنـه مـن حقائـق وجوديـة هامـة، وكيـف واجـه الإنســـان تلـك الحقائـــق، لا بـد لنـــا مـــن أن نعطـــف بنظـــرنا الـــى مـــا وصـــل اليـــه الإنســـان بقدراتـــه الذاتيـــة حـــول هـــذا الموضوع، إذ استخـــدم الإنســـان الوسائـــل والطـــرق كافـــة عبـــر تاريخـــه ليبحـــث ويتأمـــل الحقائـق الوجوديـة الهامـة ليسيـر فـي ضـــوء مـــا توصـــل اليـــه مـــن حقائـــق واوهـــام حـــول تلـــك القضايا. وتجدر الإشـــارة الـــى ان الإنســـان الـــذي ادبـــر عـــن النهـــج الالهـــي لـــم يأخـــذ بأيـــة حقيقـة من الحقائق الاولـى والهامـة التـي بينهـا للنـاس الحـق سبحانـه وتعالـى. فالإنســـان لـم يعـط ادنـى اهتمـــام الـــى حقيقـة خلـق آدم وهـو اصـل البشـر، فـي عالـم الغيـــب، ولا الى حقيقـــة وجـــود

---

١ - نهجح البلاغة، الجزء الرابع، ١٦- ١٧.

الشكل رقم (١)



الحق سبحانه وتعالى

المصدر

طريق الوحي

الرسل والأنبياء

القرآن الكريم

السنة النبوية الشريفة

الإنسان

المفهوم الحقيقي للحياة الدنيا

الأهداف العامة والخاصة للإنسان

في ضوء فهمه للحياة الدنيا

التربية لتحقيق الأهداف الجماعية والفردية

آدم وحواء وتجربتهما مع عدو البشرية ابليس. ولا الى حقيقة هبوط آدم وحواء الى هذا الكوكب مع عدوهما اللدود، ولا الى حقيقة ان النهج الالهي بعثه الحق سبحانه وتعالى ليحرر الإنسان من وساوس وتسويلات عدوه الأشر ابليس، ويقوده الى طريق الحق المبين. فجميع هذه الحقائق وضعت في عالم النسيان عند الإنسان الذي صدف عن النهج الالهي، وذهب ليبحث بطريقته الخاصة معتمدا على قدراته الذاتية للوصول الى ما تصبوا اليه النفوس وما يداعب ما في الصدور من هوى ومجموعة شهوات تدفعه ليلا نهارا على غشيانها.

وإذا أمعنا النظر عبر تاريخ البشرية فإننا نجد الانسان الذي نأى بجانبه عن طريق الحق قد آمن بعدة اوهام وأساطير رافقته وهو ينسج حضارته الانسانية عبر تاريخه المديد. وقد كانت انعكاسات هذه الاوهام والاساطير تشكل خطرا جسيماً على مكانة هذا الإنسان في الوجود، لذلك فإن الإنسان عبر تاريخه اعلن عبوديته الى الانهار والبحار، والشمس والنار، والى بعض انواع الحيوانات، والى الحجارة التي كان ينحتها بيده واكوام التمر التي كان يرصها بيده، كما اذعن الى عبودية إنسان مثله والالتزام بكل شيء تعكسه هذه العبودية على سلوكه، إضافة الى ان قسما من الناس ذهب ليعبد هواه وبذل اقصى طاقاته في تحقيق كل ما يفرضه عليه اتباع الهوى من اهداف متعددة تتغير حسب الظروف والمناسبات. وكل انسان سنحت له الظروف ان يجتلي تاريخ الإنسان عبر القرون السالفة سيجد أن الانسان الذي ابتعد عن النهج الالهي القويم عاش هذه الفترة من تاريخه وهو يجهل حقيقة نفسه وحقيقة حياته ومستقبله الوجودي، كما جهل الحقائق الوجودية كافة التي تنير له الدرب في صنع مستقبله الأخروي. لذلك فإن هذا الإنسان ذهب ليكون مفاهيم متعددة متباينه حول الحياة الدنيا بسبب الاوهام والأساطير التي استقرت في ذهنه عبر تاريخه الطويل، وقد كلفته الشيء الكثير من المعاناة والالام والحروب الشرسه التي جرت الويلات والمصائب على كاهل هذا الأنسان، هذا فضلا عن مستقبله الوجودي المظلم الذي لم يعد له شيئا بسبب غفلته وانشغاله باتباع اهوائه عن المصير الذي سيؤول اليه باتباع الدنيا وما فيها من متع شهوية.

لقد جاءت المحاولات والدراسات البشرية حول الحياة الدنيا والقضايا الوجودية عبر تاريخ هذا الإنسان ضمن فلسفات ومدارس فكرية، تشابه بعضها مع بعض في نقاط واختلفت في نقاط أخرى. لذلك فإننا نرى لكل فلسفة او مدرسة

فكرية طابعها الخاص الذي يميزها عن بقية المدارس الأخرى. وهذا الاختلاف يعود الى طبيعة الإنسان واختلاف الاهواء من شخص الى آخر ومن وقت الى آخر. وقد اتبع كل فلسفة او مدرسة فكرية قسم من الناس على اساس ان هذه المدرسة هي التي تنطلق بالحق والحقيقة وتناسب الانسان في ظروفه وطموحاته كافة، وقد استخدم اتباع كل مدرسة فكرية جميع قدراتهم المتعددة للذود والدفاع عن المبادىء الاساسية التي تنادي بها مدرستهم ومدى صلاحيتها للإنسان في جميع ظروفه وازمانه المتعددة. وسوف نورد المبادىء الاساسية لكل فلسفة من هذه الفلسفات لنرى معاً كيف اختلفت هذه الفلسفات بعضها مع بعض حول القضايا الاساسية التي شغلت الإنسان عبر تاريخة، وكيف فهم اتباع كل فلسفة الحياة الدنيا من خلال مبادىء مدرستهم الفكرية.

١ – الفلسفة الطبيعية (Naturalism)

تعد الفلسفة الطبيعية النبع الذي انبثقت منه سائر الفلسفات الأخرى إذ انعكست مبادىء هذه الفلسفة على بقية الفلسفات الأخرى بنسب متفاوته. ويرجع تاريخ هذه الفلسفة الى القرن السادس قبل الميلاد على يد فلاسفة ملسان الذين كانوا يقطنون في شرق تركيا والذين كانوا اول من حاول البحث عن حقائق الاشياء بالاعتماد كلية على الطبيعة. وزعيمهم ثالس (Thales) صرح بضرورة الماء لكل شيء حيث يعد العامل المشترك بين جميع الاشياء في الطبيعة. وقد تطورت هذه الفلسفة في القرن الخامس قبل الميلاد على يد الفيلسوفين الشهيرين لوسبوس (Leucippus) وديمقرتس (Democritus) اللذان كانا يقطنان في جزيرة قبرص. وقد صرح هذان الفيلسوفان ان كل شيء في هذه الطبيعة يمكن تقسيمه الى اجزاء صغيره او ذرات متناهية لا يمكن تحطيمها او تجزئتها. كما انهما لا يعتقدان بالمصادفة، فكل شيء في هذه الطبيعة مكون من ذرات مرتبة بطريقة منظمة فعلى الانسان ان يعيش بانسجام تام مع هذه الطبيعة المنظمة.

وقد وصلت الفلسفة الطبيعية القديمة القمة على يد الفيلسوف ابيقورس (Epicurus) في القرن الرابع قبل الميلاد الذي كان ينادي بالحياة السعيدة الخالية من الالم والخوف. وقد اعتقد بقانون المصادفة في حركة الذرات في تكوين بعض العناصر دون المساس في تحديد حقيقة الاشياء.

ويعد الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو رائد هذه الفلسفة في ضوء ما قدم من افكار في كتاباته: نظرية العقد الاجتماعي وإميل. ومن اهم مبادئ هذه الفلسفة: (١)

١- الشيء الوحيد الحقيقي في هذا الكون الطبيعة.

٢- الطبيعة هي مفتاح الحياة، وان كل شيء نعمله هو جزء من الطبيعة.

٣- كل شيء في هذه الحياة يتحرك حسب قوانين الطبيعة.

٤- الطبيعة لا تتغير لذلك يمكن الاعتماد عليها.

٥- ان كل فرد يعد أهم من المجتمع، ان اهداف المجتمع تعد ثانوية اذا ما قورنت باهداف الفرد.

٦- الانظمة الاجتماعية مقبولة لانها تمنع الفوضى وليس لانها جيدة.

٢ - الفلسفة المثالية (IDEALISM)

على الرغم من ان السومريين وقدماء المصريين كانوا يعتقدون بجزء كبير من افكار الفلسفة المثالية، إلا ان تاريخ هذه الفلسفة يعود الى سقراط (469. 339 B.C) الذي كان ينادي بافكار الفلسفة المثالية. ولكن اقترن اسم هذه الفلسفة باسم افلاطون (Plato. 427 _ 347 B.C) لإنه هو الذي دونها ورتبها بشكل منظم. ومن اهم مبادىء الفلسفة المثالية: (٢)

١- وجود الإنسان في هذه الحياة يرتكز تماما على العقل.

٢- جميع الاشياء الحقيقية تأتي من العقل.

٣- ان الانسان يترجم ويحلل كل شيء بواسطة العقل.

٤- ان الانسان اهم من الطبيعة.

٥- ان القيم الخلقية لا تتأثر بسلوك الافراد، فهي ثابتة لا تتغير حسب الظروف.

1- Clark, Gordon H. Thales to Dewey, Ahistory of philosophy. Houghton Mifflin, Boston, 1957.

2- Butler, J.Donald. Four philosophies and Their practice in Education and Religion, 3d ed Harper and Row, Newyork, 1969, PP.29-41.

٦- ان الانسان لديه الحرية في ان يختار بين الصواب والخطأ.
٧- العقل يعد القوة الاساسية التي تساعد الانسان لكشف اسرار الكون، ويمكن استخدام المنطق والتحليل الى جانب الاسلوب العلمي لكشف اسرار الكون.

٣ - الفلسفة الواقعية (REALISM)

يعد ارسطو (Aristotle , 384 - 322 B.C) زعيم الفلسفة الواقعية كما انه أحد تلامذة افلاطون ومن ابرز خصومه اللاحقين إذ رفض تماما فكرة افلاطون عن عالم المثل والافكار. ومن اهم مبادىء هذه الفلسفة: (١)

١- ان عالم الحس حقيقي وهو كما نحسه ونراه.
٢- ان العالم جزء من الطبيعة ويمكن التعرف إلى اسراره عن طريق الاحاسيس والخبرات.
٣- جميع الاشياء المادية التي تحدث في هذا العالم تعتمد على القوانين الطبيعية.
٤- القوانين الطبيعية تسيطر على حركة الكون.
٥- يمكن للانسان معرفة الحقيقة عن طريق الاسلوب العلمي والوسائل التجريبية، علما ان الانسان لا يستطيع ان يعرف كل شيء.
٦- لا يمكن فصل العقل عن الجسم، كما انه لا يوجد اي سيطرة لاحدهما على الآخر، ولكن هناك علاقة منسجمة بين الاثنين.
٧- يحق للفرد ان يحدد اعتقاداته بنفسه.

٤ - الفلسفة النفعية، البراجماتية (PRAGMATISM)

تعد هذه الفلسفة المشاركة الامريكية الجادة في الفكر الفلسفي، ويعود الفضل في هذا الفكر الفلسفي الى كل من:

أ- تشارلز بيرس (Charles s. Perice - 1839 - 1914)
ب- وليم جيمس (William James - 1842 - 1910)
جـ- جون ديوي (John Dewey - 1859 - 1952)

1- Charles A. Bucher, Foundations of physical Education, 7th ed. C.V Mosby, St. Louis, 1975 PP. 31-33.

ومن اهم مبادئ هذه الفلسفة: (١)

١- كل شيء في هذه الحياة قابل للتغيير ما عدا الموت ذلك أن الصفة السائدة لكل شيء هي التغيير.

٢- كل فرد يعد جزءاً من المجتمع وله دور معين فيه، وان تصرفات الفرد تؤثر في المجتمع.

٣- اهداف الفرد واهداف المجتمع يجب ان تكون في خط واتجاه واحد.

٤- ان الطريقة المثلى لمعرفة قيمة النظرية والحكم على الحقيقة هو البرهان عن طريق العمل فاذا ثبت نجاحه فان القيمة تعطى على هذا الاساس.

٥ - الفلسفة الوجودية (EXISTENTIALISM)

برز الفكر الفلسفي الوجودي الى حيز الوجود على يد الفيلسوف الدنماركي (Soren Kier Kegaard, 1813 - 1855) ومن زعماء هذه المدرسة الفيلسوف الالماني المعاصر (Martin Heidegger, 1887 - 1976) ومن اشهر زعماء هذه الفلسفة الفيلسوف الفرنسي سارتر.

ومن اهم المبادئ الاساسية لهذه الفلسفة: (٢)

١- ان الوجود الانساني هو الحقيقة الوحيدة في هذا الكون.

٢- كل انسان له الحق ان يحدد القيم الحياتية لنفسه.

٣- يعد الفرد أهم من المجتمع، لذلك يجب التركيز على اهداف الفرد.

٤- ان الاشياء السيئة لا يمكن تغييرها.

٦ - الفلسفة الشيوعية (COMMUNISM)

تعطي الفلسفة الشيوعية مفهوما ماديا للحياة بطريقة ديالكتكية (جدلية)، ومن زعماء هذه الفلسفة لينين (Lenin, 1870 - 1924) وستالين

1- Earle F. Zeigler, philosophical Foundations For physical, Health, and Recreation Education, prentice - Hall, Engle wood cliffs, N.J. 1964. PP. 65 - 66

2- Brubache, John S. Modern Philosophies of Education, 4th ed. MC Graw- Hill, New york, 1968.PP. 140.

(Stalin, 1879 ـ 1953) ومن اشهر رواد هذه الفلسفة الفيلسوف الالماني الشهير كارل ماركس (1883 ـ1818) ومن ابرز مذاهب هذه الفلسفة المذهب الاشتراكي.

ولكن عندما استطاع زعماء هذه الفلسفة الوصول الى السلطة إثر الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ وحاولوا جاهدين تطبيق الفكر الفلسفي الشيوعي لم يتسن لهم ذلك للتعارض الواضح بين الفكر المراد تطبيقة من جهة، والنزعات والدوافع الانسانية الفردية من جهة اخرى. لذلك كان لا بد من إقامة نظام اشتراكي مرحلي، حتى يتم تطوير الانسانية من حيث الدوافع، والنزعات والافكار الفردية لتصبح دوافع ونزعات وافكاراً جماعية بعد الانتهاء من المرحلة الاشتراكية، ومن ثم ستطبق المبادئ الشيوعية بالكامل.

يتضح مما سبق ان الانسان الذي ابتعد عن النهج الالهي القويم منكرا عبوديته للحق سبحانه وتعالى في ضوء حريه الاختيار التي وهبها الحق سبحانه وتعالى للانس والجن دون سائر المخلوقات، ذهب قسم من هؤلاء ليعبد هواه كما فعل فرعون ومن سار على نهجه من الإنس ليظلم نفسه وغيره من الناس باستعلائه عليهم واستخفافه بعقولهم ليدينوا له بالطاعة والعبودية، وهذا ما فعله جميع القادة المستكبرين مع شعوبهم عبر تاريخ الانسانية. أما القسم الآخر من الذين صدفوا عن النهج الالهي المنير فقد اتبعوا المدارس الفلسفية والمذاهب الفكرية التي اختلقها الإنسان من تأملاته، وتخيلاته، وبحوثه لتنسجم بشكل تام مع اهوائه ورغباته في الحياة الدنيا. لإن الحياة الدنيا من وجهة نظرهم تعادل الوجود بأكمله، بل هي الوجود بعينه. وقد بينا في كتابنا التصور الاسلامي للوجود مقارنة دقيقة بين النهج الالهي وبين المدارس الفلسفية حول اهم القضايا الوجودية والتي تعكس المفهوم الدقيق للحياة الدنيا. وقد تبين بوضوح بعد تلك المدارس الفلسفية عن حقيقة القضايا الوجودية الهامة.

فالإنسان ذهب في هذه الحياة الدنيا ليشيد حضارته على معالم فكرية وقوانين ودساتير وضعية وانماط سلوكية جميعها تقوده الى تحقيق اهدافه وطموحاته في هذه الحياة الدنيا وفق مفهومه الخاص لها. اما بالنسبة للإنسان الذي اناب للنهج الالهي فإنه ينضم جميع اموره الحياتية في ضوء تعليمات النهج المنير وما يعكسه في نفوس اتباعه من معتقدات، وانماط سلوكية، وقوانين اجتماعية وقضائية، ومعالم تربوية وخلقية، لذلك فان الفرق شاسع وعظيم بين الفريقين في اغلب مجالات

الحياة، كيف لا! ونحن نعلم ان سر الاختلاف بينهما يعود الى فهم كل طرف للحياة الدنيا بصورة خاصة. فشتان ما بين الذين يريدون من الحياة الدنيا ما يقربهم الى رضى الله سبحانه وتعالى في اليوم الآخر، وبين الذين لا يريدون الا متاع الحياة الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق. لذلك يبدو بوضوح ما تهدف اليه المدارس الفلسفية والمذاهب الفكرية التي ابتدعها الانسان لتوصله الى متاع الحياة الدنيا فقط، وبين النهج الالهي الذي ارسله الحق سبحانه وتعالى هدى ورحمة للناس جميعا ليخرجهم من الظلمات الى النور، ويبين لهم ان يطلبوا الآخرة بقدراتهم كافة التي جسدها فيهم وألا ينسوا نصيبهم من الدنيا. لإن الدنيا في ضوء هذا النهج هي مقدمة للآخرة. وعلى الإنسان اللبيب ان يشتري آخرته بدنياه، ويتعامل مع الحياة الدنيا على حقيقتها وهي دار الفناء والابتلاء. والشيء المذهل والعجيب ان نجد قسما من الناس يقارنون بين الاسلام وبين غيره من المدارس الفكرية والفلسفية فيما قدم كل منهما للانسان من تحقيق اهداف مادية متعلقة فقط بالحياة الدنيا. فهذا العمل يسلب الاسلام اهدافه الاولى التي بعثه الحق سبحانه وتعالى من اجلها.

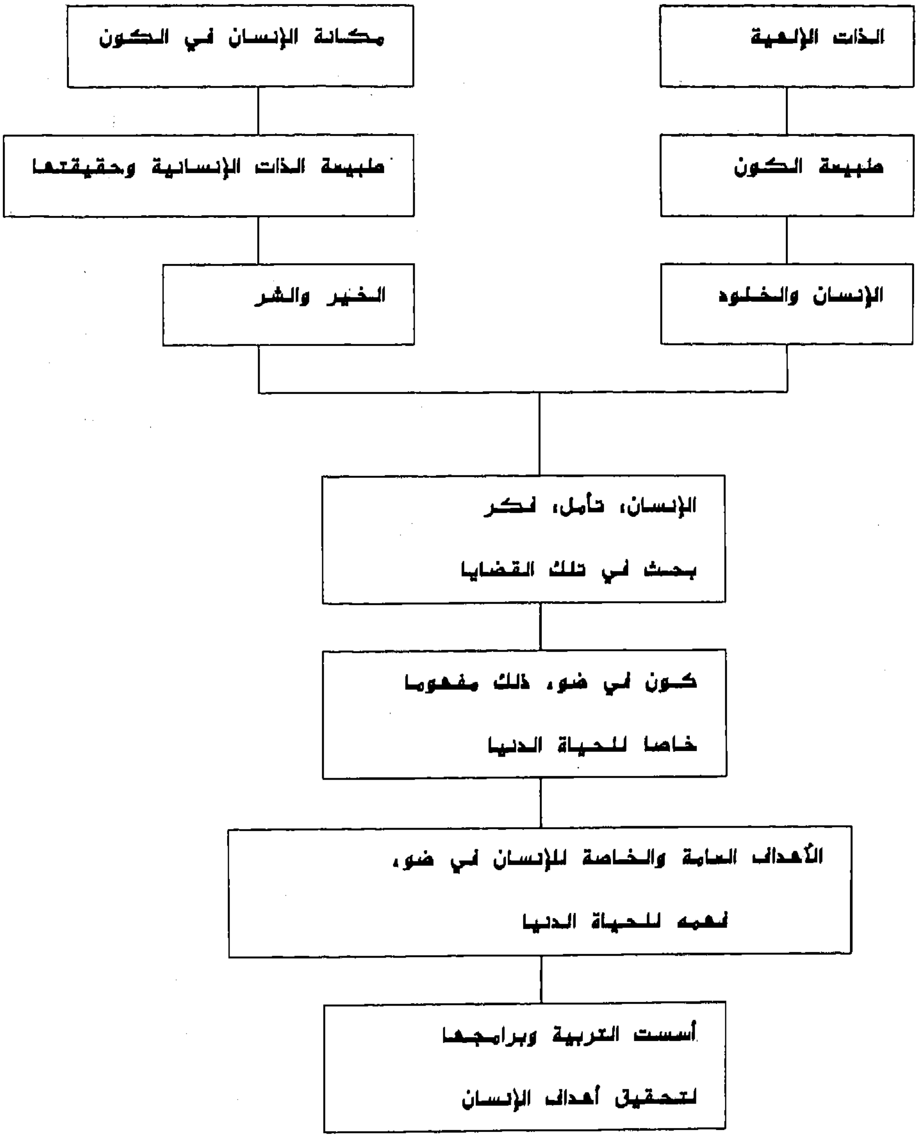
وهناك عديد من الفلاسفة، والشعراء والعلماء، الذين شدتهم الدنيا الى مفاتنها وزخارفها فذهبوا الى تزيين الحياة الدنيا وما فيها من شهوات في نفوس العامة عن طريق الفكر والشعر، ولكنهم ذهبوا في نهاية الأمر الى وصف الحياة الدنيا على حقيقتها. وقد اخترنا من هؤلاء الفيلسوف الشاعر عمر الخيام حيث يصف لنا الحياة الدنيا في الابيات التالية:(١)

وانمــــا الدنيا خيال يزول ... وأمرنا فيها حديث يطـــــول
زخـــارف الدنيا اساس الالم ... وطالب الدنيا نديـم النــــدم
فكـــن خلى البال من امرها ... فكل ما فيها شقـــاء وهـــــم
من يحسب المال احب المنى ... ويزرع الارض يريد الغـــــنى
يفـــارق الدنيا ولم يختبـر ... في كده احوال هــذى الدنـــى
وكـــل ما في عيشنا زائـل ... لا شيء يبقى غير طيب العمل

يوضح الشكل رقم(٢) النهج الفلسفي البشري في فهم حقيقة الحياة الدنيا عن طريق الاعتماد الكلي على العقل الانساني في التفكير، والبحث، والتأمل في الامور

١ - عمر الخيام، رباعيات الخيام، ترجمة احمد رامي، مكتبة غريب، القاهرة.

الشكل رقم (٢)


الذات الإلهية
طبيعة الكون
الإنسان والخلود
مكانة الإنسان في الكون
طبيعة الذات الإنسانية وحقيقتها
الخير والشر
الإنسان، تأمل، فكر
بحث في تلك القضايا
كون في ضوء ذلك مفهوما
خاصا للحياة الدنيا
الأهداف العامة والخاصة للإنسان في ضوء
فهمه للحياة الدنيا
أسست التربية وبرامجها
لتحقيق أهداف الإنسان

والقضايا الوجودية المتعلقة بالكون الفيزيقي والميتافيزيقي. ظنا من الإنسان ان عقله فيه من القدرات الكافية التي توصله الى لباب الامور في تلك القضايا. وفي ضوء هذا الفهم الخاص للحياة الدنيا ذهب الانسان ليصوغ بنفسه جميع الدساتير والقوانين المتعلقة بأموره الحياتية كافة. وقد وضع اسسا خاصة للتربية لتوصله الى تحقيق اهدافه وفق مفهومه الخاص للحياة الدنيا.

المراجع العربية

١ – القرآن الكريم.

٢ – ابو زكريا النووي، رياض الصالحين، مؤسسة الرسالة، سوريا، ١٩٨٦.

٣ – السيد محمد حسين الطباطبائي، اسس الفلسفة والمذهب الواقعي، دار المعارف للمطبوعات، بيروت.

٤ – الغزالي، بين الفلسفة والدين، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٨٧.

٥ – الغزالي، تهافت الفلاسفة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢.

٦ – بشار عبد الهادي ، الحياة بعد الموت، دار ابن رشد، عمان، ١٩٨٤.

٧ – تاريخ الفلسفة في الاسلام، ترجمة د. محمد ابو ريدة، بيروت، ١٩٨١.

٨ – حسن الحياري، التصور الاسلامي للوجود، دار البشير، عمان، ١٩٨٩.

٩ – حسن ابراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٨٥.

١٠ – رؤوف عبيد، الانسان روح لاجسد، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧١.

١١ – عمر الخيام، ترجمة احمد رامي، رباعيات الخيام، مكتبة غريب، القاهرة.

١٢ – محمد باقر الصدر، فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٩٨١.

١٣ – محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢.

١٤ – نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

المراجع الأجنبية

1_ Brubache, Johns. Modern Philosophies of Education , 4th ed . Mc , Graw_ Hill New york, 1968.

2_ Butler, J. Donald. Four philosophies and Their practice in Education and Religion , 3rd ed . Harper and Row , New york, 1969

3_ Charles A. Bucher, Foundations of physical Education, 7th ed. C.V Mosby. st, Louis, 1975.

4_ Clark, Gordon H. Thales To Dewey , A History of philosophy Houghton Mifflin, Boston, 1957.

5_ Earle F. Zeigler, Philosophical Foundations for Physical Health and Recreation Education, Prentice_ Hall, Engle wood cliffs, N.J.1964.

الفصل الثاني

حقيـــقة النفـــس الإنســانـــية

حقيقة النفس الإنسانية

هدفت الدراسة إلى توضيح حقيقة النفس الانسانية من خلال طرح كافة الآراء للعلماء والفلاسفة حول هذا الموضوع منذ عهد قدماء اليونان الى وقتنا الحاضر، وتم مقارنة تلك الآراء بما أخبرنا به الحق سبحانه وتعالى حول هذا الموضوع. وقد تبين لنا في هذه الدراسة أن النفس الانسانية تعني ذات الانسان بجانبيه الروحي والمادي، وليس جزءا منه كما اعتقد أغلب الفلاسفة والعلماء. فالنفس مخلوقة، وتفنى، ويدركها الموت، وتحاسب، وتصبر، وتهوى، وتجادل والى غيرها من الامور التي يقوم بها الانسان.

حقيقة النفس الإنسانية

المقدمة:

يعد موضوع النفس الإنسانية من أكثر المواضيع التي شدت إنتباه الإنسان عبر تاريخه الحضاري. وقد تعددت الآراء حول هذا الموضوع من خلال البحوث والدراسات التي قدمها الفلاسفة والعلماء على اختلاف مذاهبهم الفكرية ومصادرهم العلمية عبر تاريخ الانسانية، لقد ابتدأ الحديث عن النفس الإنسانية منذ عهد قدماء اليونان حتى يومنا هذا، وسيبقى هذا الموضوع من أهم المواضيع التي تشد انتباه العلماء والباحثين في المستقبل على اختلاف مدارسهم الفلسفية ومذاهبهم الفكرية.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في محاولة تبيان المفهوم الحقيقي للنفس الانسانية. بهدف تحرير هذا الموضوع من بعض الاساطير والآراء الضعيفة التي لازمت موضوع النفس عبر التاريخ. هذا بجانب مساعدة الباحثين والعلماء في مجال علم النفس وعلم الاجتماع في توجيه دراساتهم في ضوء معرفة حقيقية للنفس الانسانية. وسوف نوضح المفهوم الاسلامي لحقيقة النفس من خلال الاعتماد على القرآن الكريم بعد أن نعرض آراء الفلاسفة والعلماء والباحثين حول هذا الموضوع.

آراء الفلاسفة والعلماء حول النفس الإنسانية

اعتقد قدماء اليونان أن النفس «هي عقل هيولاني وعقل بالقوة ومن شأنها أنها تصير عقلا بالفعل إذا تصورت بصور المعلومات، وقبل ذلك فهي نفس محركة للبدن»(١)

يرى أفلاطون «أن النفس موجودة قبل اتصالها بالبدن، وأما حول علاقتها بالجسم فهناك بعض الغموض والتردد. فهو يحد النفس تارة بأنها فكر خالص، وطوراً بأنها مبدأ الحياة والحركة للجسم. وأن الجسم آلة؛ وتارة يضع بينهما علاقة وثيقة، فيذهب إلى أن الجسم يشغلها عن فعلها الذاتي (الفكر) ويجلب لها الهم بحاجاته وآلامه؛ وأنها هي تقهره وتعمل على الخلاص منه... كما أنه يؤمن بخلود النفس عندما قال: لما كانت النفس حياة فهي مشاركة الحياة الدنيا بالذات، ومنافسة

١- محمد ابو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، مكتبة دار المعرفة، الاسكندرية، ١٩٨٦، ص٥٣٠.

للموت بالطبع وليست تقبل الماهية ما هو ضد لها، فالنفس لا تقبل الموت... واعتقد افلاطون أن للإنسان نفوساً ثلاثة»(١)

وذهب أفلاطون ومن تابعه إلى «أن النفس قديمة، وهذه إحدى المسائل التي وقع الخلاف فيها بين إفلاطون وأرسطو. ومن أدلة القائلين بقدم النفس أنها لو كانت حادثة لكانت غير دائمة، مع أنها باقية إلى الأبد كما ثبت بالبرهان... وكل ما هو أبدي فهو أزلي»(٢)

يعتقد أرسطو أن النفس «هي الشرط المباشر لنشاط الجسم، وحالها في ذلك بنوع ما حال ما يحوزه العالم من العلم الذي هو الشرط المباشر الذي يتيح له أن يتأمل الحقيقة، وكما أن العالم لا يتأمل الحقيقة على الدوام، كذلك فان النفس لا تعمل بصورة دائمة، وإنما لها فتراتها التي تخلد فيها الى النوم؛ بيد أنها تبقى على الدوام، على استعداد فوري ومباشر للعمل، فالنفس تعد مبدأ النشاط الحيوي المحرك اللامتحرك لهذا النشاط... وأنه لا يعتقد بانتقال النفس من جسم إلى آخر تحقيقا لقدرها المقدر عليها، وإنما ترتبط بالجسم ارتباط البصر بالعين»(٣)

لقد صرح أرسطو بأن قوى النفس خمسة «النفس النامية، والنفس الحاسة، والنفس الناطقة، والنفس النازعة، والنفس المحركة»(٤)

لقد ذهب أرسطو وأكثر الفلاسفة والمتكلمين، وأهل الأديان جميعا إلى «أن النفس حادثة، وأن وجودها مقارن لوجود البدن، واستدلوا بأدلة منها» أن النفس لو كانت قديمة لم يلحقها نقص وفتور، لأن القديم يستقر على حال واحدة، مع أن المشاهد خلاف ذلك، ومنها، أن النفس لوكانت موجودة في الأزل قبل الأبدان لكانت إما واحدة، وإما متعددة بحسب الماهية، وكلاهما باطل»(٥)

تأثر الكندي بكل من أفلاطون وأرسطو في ما يتعلق بمشكلة النفس والعقل «فهو في حده النفس يسوق عدة تحديدات بعضها يشير بوضوح إلى الرأي

١ - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، ١٩٧٧، ص٩١، ١٥٥.
٢ - محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الاسلامية، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣، ص٧٤.
٣ - أميل برهيية، ترجمة جورج طرابيشي، تاريخ الفلسفة، الجزء الأول، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٢، ص٨٢.
٤ - يوسف كرم، الفلسفة اليونانية، ص١٥٦.
٥ - محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الاسلامية، ص٧٣.

الأفلاطوني والآخر يشير إلى الرأي الأرسطي، ففي رسالته الخاصة بـ «الحدود» يقول في تعريفه للنفس؛ أنها تمامية جرم ذي آلة قابل للحياة. ويقول هي استكمال أول لجسم طبيعي متحرك من ذاته بعدد مؤلف. هذا هو حد النفس عند الكندي، وهو حد اشتمل على الرأي الفيثاغوري وعلى رأي بعض الفلاسفة الطبيعيين الذين ذهبوا إلى أن النفس مؤلفة من العناصر... إن النفس عند الكندي مرتبطة بالجسم، لكن هذا الارتباط ليس ارتباطاً دائماً ثابتاً. ولهذا كان قوله إنها«استكمال» أو «تمامية» وهذا معناه أن الوجود الخاص بالنفس هنا لا يعني البتة فناء النفس بفناء الجسم»(١)

يرى الفارابي من منطق أرسطي «أن النفس لا وجود لها قبل البدن، فالنفس تكون ملازمة للبدن. وما يميز البدن من النفس هو أن هذه لاصورة ولا شكل لها، وهي خالدة لأنها من عالم الأمر، أما البدن ففاسد لأنه من عالم الخلق، فالنفس لا تنقسم، ولا تتجزأ، ولا تتبعض ولا يجوز أن يشار اليها... وقد اتبع الفارابي في تقسيم النفس التقسيم الذي نادى به من قبل أفلاطون وأرسطو»(٢)

النفس الانسانية من أهم الموضوعات التي شغلت ابن سينا واحتلت مكاناً بارزاً في فلسفته. فهو يخصص لها رسائل كاملة بلغت أكثر من ثلاثين رسالة. ويفرد ابن سينا للنفس القصص الرمزية مثل قصة «حي بن يقظان» وقصة «سلامات وأبسال» كما أنه يخص النفس البشرية بفصول عدة في أهم مؤلفاته الفلسفية «كالشفاء» و «النجاة» و «الاشارات»(٣)

يعتقد ابن سينا «أن الانسان يتكون من جوهرين متميزين: جوهر مادي وجوهر روحي... فالجسم يؤثر في النفس ويتأثربها، وكذلك الحال فيما يتعلق بالنفس... فالجسم هو المادة والنفس هي الصورة... انه لا وجود للنفس قبل وجود البدن»(٤)

١- فيصل بدير عون، الفلسفة الاسلامية في المشرق، مكتبة الحرية الحديثة، القاهرة، ١٩٨٢، ص١٧٣- ١٧٤.

٢- المصدر السابق ص٢٥٧- ٢٥٨.

٣- فتح الله خليف، فلاسفة الاسلام، ص١٥٨.

٤- فيصل بدير عون، الفلسفة الاسلامية في المشرق، ص٣٢١- ٣٢٣.

«إن ابن سينا كان أرسطيا فيما يتعلق بوجود النفس في عالمنا هذا، أفلاطونيا في قوله ببقائها وفناء البدن»(١)

«إن النفس عند الغزالي رغم أنها جوهر قائم مستقل عن البدن إلا أنها على صلة قوية به، فهي تؤثر فيه وتتأثر به... فالبدن لا يوجد إلا بالنفس، لكنه يرى من جهة ثانية، أن النفس توجد بعد فناء البدن. فالموت لا يمتد الى النفس بل إنه يصيب البدن وحده»(٢). ورغم أن أبا حامد الغزالي قال ان النفس والقلب والروح والعقل الفاظ مترادفة تدل على النفس. الا أنه فرق بين النفس والروح.

فقال عن الروح:

«أما الروح فيطلق ويراد به البخار اللطيف الذي يصعد من منبع القلب ويتصاعد إلى الدماغ بواسطة العروق وإلى جميع البدن فيعمل في كل موضع بحسب مزاجه، واستعداده عملا، وهو مركب الحياة. فهذا البخار كالسراج، والحياة التي قامت به كالضوء، وكيفية تأثيره في البدن ككيفية تنوير السراج أجزاء البيت. ويطلق ويراد به المبدع والصادر من أمر الله تعالى الذي هو محل العلوم والوحي و الإلهام. وهو من جنس الملائكة مفارق للعالم الجسماني قائم بذاته ويطلق أيضا ويراد به الروح الذي في مقابله جميع الملائكة. وهو المبدع الأول وهو روح القدس. ويطلق أيضا ويراد به القرآن على الجملة»(٣).

أما النفس فتطلق بمعنيين «أحدهما أن يطلق ويراد به المعنى الجامع للصفات المذمومة وهي القوى الحيوانية المضادة للقوى العقلية... والثاني أن يطلق ويراد به حقيقة الآدمي وذاته فإن نفس كل شيء حقيقتة وهو الجوهر الذي هو محل المعقولات. وهو من عالم الملكوت ومن عالم الأمر»(٤)

يرى ابن رشد «أن النفس متصلة بالجسم اتصال الصورة بالمادة وهو يخالف ابن سينا في قوله بنظرية النفوس المتعددة في الخلود أي خلود النفوس جملة لأن النفس لا وجود لها إلا مكملة للجسم المتصل بها»(٥)

١ - إبن سينا، نظرية المعرفة مع بيان مصادرها وآثارها، ص١٣٨.

٢ - فيصل بدير عون، الفلسفة الاسلامية في المشرق، ص٤٣٨ - ٤٣٩.

٣ - ابو حامد الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، الطبعة الثانية، دار الآفاق الجديدة، بيروت١٩٧٥، ص١٦.

٤ - المصدر السابق، ص١٥.

٥ - محمد جمعة، تاريخ فلاسفة الاسلام في المشرق والمغرب، ص١٦٦.

يعتقد اخوان الصفا «أن النفس إذا فارقت هذا الهيكل فليس يبقى ولا يصحبها من آثار هذا الجسد إلا ما استفادت من المعارف الربانية والأخلاق الجميلة، فإذا رأت تلك الصورة فرحت بها، وذلك ثوابها ونعيمها... وشرحوا معنى القيامة بأنه إذا فارقت النفس الجسد قامت قيامتها، قال محمد صلى الله عليه وسلم «من مات فقد قامت قيامته» إنما أراد قيام النفس لا الجسد، لأن الجسد لا يقوم عند الموت بل يقع وقوعاً لا يقوم بعده»(١)

تناول ابن مسكويه الكلام عن خلود النفس فأثبت على طريقته «أن النفس جوهر حي باق لا يقبل الموت ولا الفناء وأنها ليست الحياة بعينها بل تعطي الحياة بكل ما توجد فيه»(٢)

يرى أبو البركات البغدادي «أن النفس مرتبطه بالجسم ولها من قواها مالا تستطيع ممارسته بدون حلولها في البدن، كما أنها جوهر من طبيعته أن يفارق البدن إذا وصل إلى درجة عليا من الكمال حيث الحياة الفاصلة في العالم الأعلى إلى جوار الملائكة والأشخاص الروحانية، وحيث تنعم بمشاهدة الله ومعرفة الأمور الإلهية»(٣)

يعتقد ديكارت «أن النفس جوهر لا يحتاج في وجوده الى أي شيء آخر، كما أنها شيء تام... فالنفس روح بسيط مفكر. وهذا يفيد أن كل ما هو روحي تابع للنفس وكل ما هو جسمي تابع للجسد. إذن ليس في مفهوم النفس شيء مما يخص الجسد، وليس في مفهوم الجسد شيء مما يخص النفس»(٤)

«لقد هاجم (كانت) بشدة كافة الاستدلالات الفاسدة التي تدل على جوهرية النفس وبساطتها، وشخصية النفس ومثاليتها. لذلك فو ينكر جوهرية النفس وخلودها، وكونها بسيطة»(٥)

يعتقد أبو بكر الأصم أن النفس «هي البدن بنفسه لا غير، ولا يعقل الا الجسم الطويل العريض العميق الذي يرى ويشاهد، وأن الحياة والروح ليسا شيئا سوى

١ – المصدر السابق، ص٣١٨.
٢ – المصدر السابق، ص٣١٨.
٣ – محمد ابو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، ص٥٣٣ – ٥٣٤.
٤ – عادل العواد وغسان فينيانس، المدخل الى الفلسفة، ص٣٧١.
٥ – المصدر السابق، الفصل الخامس.

الجسد»(١)

يرى جعفر بن حرب «أن النفس عرض من الأعراض يوجد في جسم الانسان، وهو أحد الآلات التي بها يستعين الإنسان على العقل كالصحة والسلامة وما أشبه، وأنها غير موصوفة بشيء من صفات الأجسام والجواهر»(٢)

ذهب بهاء الدين العاملي مذهب أهل الصوفية في النفس الانسانية «فيرى أنها لطيفة ربانية روحانية لها مع الجسم تعلق التدبير والقيادة، وهي إن استطاعت حيازة بعض الكمالات في هذه الدنيا، حصل لها استعداد وقبول أنوار الفيض الإلهي أو الإشراق الرباني وعادت إلى أصلها ومنشنها حيث بحر الحقيقة التي كانت سابحة فيه قبل ايداعها في الجسد»(٣)

يرى مهدي شمس الدين «أن النفس حالة في الجسد بأمر من الله وهي بطبيعتها مغايرة له كحلول الدهن في السمسم»(٤)

يعتقد العلامة الطباطبائي بتجرد النفس عن البدن كونها أمراً وراء البدن وحكمها غير حكم البدن وسائر التركيبات الجسمية واستند بذلك على معان تعطيها الآيات الشريفة من أحكام تغاير الأحكام الجسمانية وتتنافى مع الخواص المادية الدنيوية من جميع حياتها، فالنفس الإنسانية غير البدن ... أما بالنسبة إلى علاقة النفس بالجسم فإنه يرى أن النفس بالنسبة إلى الجسم بمنزلة التمرة من الشجرة والضوء من الدهن بوجه بعيد، وبهذا يتضح كيفية تعلقها بالبدن ابتداعا، ثم بالموت تنقطع العلاقة، وتبطل المسكة، فهي أول وجودها عين البدن، ثم تمتاز بالإنشاء منه، ثم تستقل عنه بالكلية فهذا ما تفيده الآيات الشريفة»(٥)

يرى المجلسي أن الآراء حول حقيقة النفس بلغت أربعة عشر قولا، أسخفها القول بأن نفس الانسان هي الله بالذات، وأضعفها أنها الماء، والهواء، والنار فقط، أو هذه العناصر الثلاثة مجتمعة، لأنه لاحياة مع فقدان أحدها. وأشهر الأقوال قولان: الأول أنها جوهر مجرد عن المادة وعوارضها، أي ليست جسما ولا حالة في جسم،

١ - ابو الحسن الاشعري، مقالات الاسلاميين ص٣٣٦.
٢ - المصدر السابق، ص٣٣٧.
٣- مهدي فضل الله، من اعلام الفكر الفلسفي الاسلامي، ص١٢٦.
٤ - المصدر السابق، ص٢٠٠
٥ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، المجلد الأول صفحة ٣٥٠-٣٥٢.

وإنما تتصل به اتصال تدبير وتصرف، وبالموت ينقطع الاتصال، وعلى هذا الرأي جمهور الفلاسفة الإلهيين، وأكابر الصوفية، والمحققين من علماء الكلام كالطوسي والغزالي، والرازي. والقول الثاني: أنها جوهر مادي، ذهب إليه جماعة من المعتزلة وكثير من المتكلمين.(١)

لقد اتفق الفلاسفة والمتكلمون على أن النفس باقية بعد مفارقتها للبدن ولكنهم اختلفوا في نوع الدليل الذي دل على أنها باقية إلى الأبد.(٢)

وعلى الرغم من أن أغلب الفلاسفة الإسلاميين قالوا بروحانية النفس واستشهدوا على ذلك ببراهين بعضها شرعي وبعضها عقلي، فإن هناك طائفة من المفكرين قالوا بمادية النفس وأنكروا طبيعتها الروحانية، فأما الذين قالوا بمادية النفس فقد كانوا ثلاثة أقسام.(٣)

(أ) منهم من أنكر النفس جملة.
(ب) ومنهم من قال إنها جسم أو إنها الجسم نفسه أو إنها عرض من أعراضه.
(ج) منهم من قال إنها جسم لطيف.

والخلاف بين مفكري المسلمين حول طبيعة النفس كان متصلا بخلاف اليونانيين حول هذا الموضوع، فقد كان أفلاطون وأفلوطين والمدرسة الاسكندرانية تقول بروحانية النفس. كما أن الابيقوريين والرواقيين يقولون بماديتها أما أرسطو فقد حاول الوقوف على الوسط بين الماديين والروحانيين فقدم حله المعروف أن النفس صورة الجسد ولكنه في الواقع كان أقرب إلى القول بمادية النفس ولذلك خالفه أغلب فلاسفة الاسلام متابعين في ذلك أفلاطون.(٤)

يبدو بوضوح وجلاء من الآراء التي عرضت في الصفحات السابقة عدة قضايا أساسية أولاها، أن الفلاسفة والعلماء الذين تحدثوا عن النفس الانسانية لم يميزوا بين النفس والروح ظناً منهم أن النفس هي الروح، أما القضية الثانية، فهي أن

١ - المجلسي، كتاب السماء والعالم، المجلد الربع عشر.

٢ - محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الاسلامية، ص٧٤.

٣- عبد الكريم القماز، الدراسات النفسية عند المسلمين، مكتبة وهبة القاهرة١٩٨١، ص١١٦.

٤- حسن ابراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٥، ص٢٥٠.

الآراء كافة التي طرحت حول موضوع النفس لا تتعدى الآراء التي طرحها قدماء اليونان وفلاسفتهم، وإشارة الى القضية الثالثة، فإن فلاسفة الشرق وكتابهم قد تأثروا بشكل قوي ومباشر بالآراء اليونانية حين أعادوا صياغة أقوالهم وآرائهم بطريقة توفيقية أو تكميلية بين الدين الاسلامي والفلسفة، والقضية الرابعة تكمن في اختلاف العلماء والفلاسفة حول تعدد النفس وأنواعها فهي ثلاثة عند أفلاطون وخمسة عند ارسطو، أما القضية الخامسة فتدل على اختلاف الآراء حول كون النفس قديمة أم حادثة، والقضية الاخيرة تشير إلى إجماع الآراء على أن النفس لا تغنى ولا تذوق الموت لأنها جوهر وكل ما هو جوهر فهو خالد.

إن هذه الآراء المتضادة قد أثرت بشكل مباشر وسلبي على الدراسات العلمية حول موضوع علم النفس لأن كل عالم أو باحث ذهب في إجراء بحوثه ودراسته وفقا لما يعتقد به حول حقيقة النفس الانسانية وطبيعتها.

قال اريك فروم «إن اهتمام علم النفس الحديث ينصب في أغلب الاحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع منهج علمي مزعوم، وذلك بدلا من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الانسان الهامة. وهكذا أصبح علم النفس يفتقر الى موضوعه الرئيسي وهو الروح. وكان معنيا بالميكانيزمات وتكوينات ردود الأفعال والغرائز، دون أن يعنى بالظواهر الأساسية المميزه أشد التمييز للانسان: كالحب والعقل، والشعور، والقيم» (١)

وقد عبر الكسيس كارل في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» عن الدراسات الانسانية التي حاولت أن توضح لنا طبيعة الانسان فقال، «لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه. ولكنه بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظات التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط في أنفسنا... إننا لا نفهم الأنسان ككل إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفه. وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منا مكون من مركب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة» (٢)

١ - اريك فروم، الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، القاهرة، مكتبة غريب، ١٩٧٧، ص١١.

٢ - الكسيس كاريل، الانسان ذلك المجهول، تعريب شفيق اسعد، بيروت، مكتبة المعارف، ١٩٨٣.

«إن علماء النفس حصروا أنفسهم في دراسة الظواهر النفسية التي يمكن فقط ملاحظتها ودراستها دراسة موضوعية، وتجنبوا البحث في كثير من الظواهر النفسية الهامة التي يصعب إخضاعها للملاحظة أو البحث التجريبي. وبذلك ابعدوا النفس ذاتها عن دراساتهم، لأن النفس شيء لا يمكن ملاحظتة، وقصروا دراساتهم على السلوك الذي يمكن ملاحظته وقياسه. وقد نادى بعضهم بتغيير اسم «علم النفس» وتسميته «علم السلوك» لأن علم النفس الحديث يدرس السلوك ولا يدرس النفس»(١)

وحسبنا أن نعلم على سبيل المثال لا الحصر أن أساس مذهب اخوان الصفا بني على «أن الشريعة الاسلامية تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، وأنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة المحمدية فقد حصل الكمال»(٢). ويدل مذهبهم على أن الهدف المنشود هو تكميل الشريعة الاسلامية بالأفكار الفلسفية اليونانية. ولذلك قال ابن تيمية «ما أظن الله يغفل عن المأمون، ولا بد أن يعاقبه على ما أدخله على هذه الأمة»(٣). لأن الفلسفة اليونانية ترجمت إلى العربية في عهد المأمون وفتحت لها الأبواب كافة لتصل إلى عقول العامة والخاصة في المجتمع.

النفس في ضوء القرآن الكريم

إن النفس وماهيتها في ضوء الفكر الاسلامي تختلف بشكل حاد عن ماهيتها في ضوء الأقوال والآراء التي تمخضت عن الدراسات الإنسانية. فالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يتجسد فيهما قول الفصل في هذا الموضوع الهام. فقد ورد لفظ النفس في القرآن الكريم مئات المرات في ألفاظ متعددة وهي: النفس، ونفسك، ونفسه، ونفسها، ونفسي، والنفوس، ونفوسكم، والأنفس، وأنفسكم، وأنفسنا، وأنفسهم، وأنفسهن. والمتأمل في جميع هذه الآيات القرآنية الحكيمة يجد أنها تخاطب الإنسان وليس جزءاً منه كما اعتقد بعضهم.

«لم يفصل الإسلام في تناوله للطبيعة الإنسانية بين ما هو جسمي وما هو

١- محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، ١٩٨٩، ص٢٢.
٢- محمد جمعه. تاريخ فلاسفة الاسلام في المشرق والمغرب، ص٣٥٣.
٣- المصدر السابق. ص٣٥٣.

نفسي فحين أطلق القرآن الكريم لفظ النفس، أكد في هذا الإطلاق على أنها هي والجسم مظهران لشيء واحد هو الإنسان... فلفظ «النفس» في الآيات الكريمة دل على الإنسان ككل أو الذات الانسانية بعنصريها المادي والمعنوي»(١) والإنسان كما نعلم جميعا مكون من جزئين بطريقة فريدة شاء الخالق سبحانه وتعالى أن تكون بهذه الصورة البديعة. فالجزء الأول من الإنسان يمثل الروح أو الجانب الروحي الذي يعد جزءا من روح الله سبحانه وتعالى، والجزء الثاني من الإنسان هو الجانب المادي الملموس، المتمثل في جميع أعضاء وأجهزة الجسم المختلفة، وهذا ما نسعى إلى توضيحه في هذه الدراسة من خلال عرض للآيات القرآنية الحكيمة في عشرة مبادىء أساسية وهي: مبدأ الخلق، والحرية، والتكليف، والموت، والمثول أمام الحق للحساب، والخلود، والحفظة، وجهل الأمور الغيبية، وأنواع النفس، ونماذج من الآيات القرآنية.

المبدأ الاول - خلق النفس

أخبرنا الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أنه خلق جسم آدم عليه السلام من طين ونفخ فيه من روحه جل جلاله ليصبح إنسانا، ثم أمر الملائكة جميعا أن تسجد لهذا البشر الذي خلقه بهذه الصورة البديعة. فسجدوا له جميعاً إلا إبليس أبى واستكبر على هذا البشر وكان من الغاوين. ويبدو ذلك في قوله عز من قائل:

«إذ قالَ رَبُّكَ للملائكَةِ إني خالِقٌ بَشَراً مِن طينٍ، فإذا سَوَّيتُهُ وَنَفَختُ فيهِ مِن روحيَ فقَعوا له ساجدينَ» (٢)

كما أخبرنا الباري عز وجل أن جميع النفوس البشرية خلقت من نفس واحدة، إذ خلق سبحانه وتعالى من هذه النفس زوجها، وعن طريق التزاوج والتكاثر الذي نألفه ونعرفه تمام المعرفة خلقت بقية الأنفس البشرية. ويشير الحق سبحانه وتعالى في محكم آياته إلى النفس الاولى على أنها هي نفس سيدنا آدم عليه السلام ويظهر ذلك بجلاء في قوله تعالى:

«يا أيُّها الناسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِن نفسٍ واحدةٍ وخَلَقَ مِنها زَوجَها وبَثَّ مِنهُما رِجالاً كثيراً ونساءً...» (٣)

١ - حسن ابراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٨٥، ص٢٥١.

٢ - سورة ص آية ٧١ - ٧٢.

٣ - سورة النساء آية ١.

قال تعالى:

«وَهُو الذي أنشأكُم مِن نفسٍ واحدةٍ فَمُستَقَرٌّ ومُستودَعٌ قد فصَّلنا الآياتِ لِقَومٍ يَفقَهونَ» (١)

وقال تعالى:

«هو الذي خَلَقَكُم مِن نفسٍ واحدةٍ وجَعَلَ مِنها زَوجَها لِيسكُنَ إليها فلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَت حَملاً خَفيفاً فَمَرَّت بِهِ فلَمَّا أثقَلَت دَعَوا اللهَ رَبَّهُما لَئِن آتيتَنا صالِحاً لَنَكونَنَّ مِنَ الشاكِرينَ» (٢)

توضح الآيات الحكيمة السابقة بوضوح لا يرتابه شك أو ظنون أن النفس الاولى خلقها الحق سبحانه وتعالى بطريقته. وقد خلق منها زوجها في المرحلة الثانية، فأصبح التناسل والتكاثر في النفوس البشرية عن طريق الزواج بالطريقة المألوفة لنا جميعا. وهذا جميعه يدحض قول القائلين بقدم النفس الانسانية، فهي مخلوقة من مخلوقات الحق سبحانه وتعالى، بدأ خلقها في السابق ومازال يتم خلقها في كل لحظة عن طريق الحمل واتصال الروح بالجسد داخل الرحم. فهي عملية مستمرة مادامت الحياة الدنيا باقية.

المبدأ الثاني - النفس وحرية الاختيار

إن أعظم ميزة أساسية تميز بها النهج الإسلامي المنير حرية الإختيار التي يتجلى فيها تكريم المولى عز وجل للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره بأن ترك أمره لنفسه بعد أن أنار له جميع السبل الموصلة للحق المنبعث من عنده، كما بين له طرق الهوى والضلال التي تقوده إلى الهلاك والدمار والخسران المبين. وبذلك يكون حراً ليختار ما يريد وأن يتحمل تبعة أعماله وأفعاله. ويبدو ذلك في قوله عز من قائل في الآية الحكيمة التالية:

«لا إكراهَ في الدينِ قد تَبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكفُر بالطاغوتِ وَيُؤمِن باللهِ فَقَدِ استَمسَكَ بالعُروَةِ الوُثقَى لا انفِصامَ لَها واللهُ سَميعٌ عَليم» (٣)

وقد بين لنا خالق النفس الانسانية سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم أن الحق سبحانه وتعالى قد ألهم النفس الانسانية كلتا السبيلين سبيل الفجور وسبيل التقوى. ويبدو واضحا جليا في قوله تعالى:

١ - سورة الانعام آية ٩٨.

٢ - سورة الاعراف آية ١٨٩.

٣ - سورة البقرة آيه ٢٥٦.

«ونَفسٍ وما سَوَّاها، فألهَمَها فُجورَها وَتَقواها، قَد أَفلَحَ مَن زَكَّاها، وَقَد خَابَ مَن دَسَّاها» (١)

«وَلَو شِئنا لآتَينا كُلَّ نَفسٍ هُداها وَلكِن حَقَّ القَولُ مِنّي لأَملأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والناسِ أجمَعينَ» (٢)

«يا أيُّها الذينَ آمنوا اتَّقوا اللهَ ولتَنظُرْ نَفسٌ مَّا قَدَّمَت لِغَدٍ واتَّقوا اللهَ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بِما تَعمَلونَ» (٣)

«فَأَمَّا مَن طَغَى، وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا، فإنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأوى، وأمَّا مَن خَافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفسَ عَنِ الهَوَى، فإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأوى» (٤)

يبدو بوضوح من الآيات الكريمة السالفة الذكر أن الحق سبحانه وتعالى لو شاء بإرادته المطلقة لوهب الهدى لجميع النفوس الإنسانية ولكنه سبحانه وتعالى بعد أن ألهم هذه النفوس سبيل الفجور وسبيل التقوى وهبها حرية الاختيار. وفي ضوء اختيارها وأعمالها في الحياة الدنيا يتحدد مصيرها في اليوم الآخر كما وضح لنا أن المفلحين من البشر هم الذين يختارون تزكية أنفسهم باتباع جانب التقوى في هذه النفوس، وأما الخائبون فهم الذين يختارون اتباع جانب الفجور والضلالة في الانفس البشرية.

المبدأ الثالث - النفس و تكليف الحق لها

إن الحق سبحانه وتعالى قد كلف النفوس البشرية في جميع أمور الحياة بموجب الفكر الاسلامي حسب طاقاتها المتفاوتة إذ تختلف هذه النفوس من حيث القدرات والظروف التي تعيشها والامكانات المتاحة لها. فقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى أن تقوم كل نفس بما عليها تجاه خالقها من طاعة وعبادة وفق القدرات الذاتية الكامنة في كل نفس.

قال تعالى:

«لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفساً إلاَّ وُسعَها لَها ما كَسَبَت وَعَليها ما اكتَسَبَت رَبَّنا لا تُؤاخِذنا إن نَّسِينا أو أَخطأنا رَبَّنا وَلاَ تَحمِل عَلَينا إصراً كَما حَمَلتَهُ

---

١ - سورة الشمس، آيه ٧-١٠.

٢ - سورة السجدة، آيه ١٣.

٣ - سورة الحشر، آيه ١٨.

٤ - سورة النازعات، آيه ٣٧- ٤١.

على الذين مِن قَبلِنا رَبَّنا وَلا تُحَمِّلنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ واعفُ عَنّا وَاغفِر لَنا وارحَمنا أَنتَ مَولانا فانصُرنا على القومِ الكافرينَ» (١)

المبدأ الرابع - النفس والموت

في الوقت الذي اعتقد فيه أغلب الفلاسفة والباحثين بأن الموت لا يدرك النفس ظنا منهم أنها جوهر دائم لا يعرف الفناء، فإن الحق سبحانه وتعالى خالق الأنفس البشرية وجامعها إلى يوم الحساب يطلعنا في كتابه الحكيم على حقيقة الأمر وسداده حيث توجد الآيات القرآنية الحكيمة التي تشير بوضوح وجلاء إلى حقيقة ان النفس بل جميع النفوس ستخوض تجربة الموت دون جدال أو مناورة في ذلك. فقد تحدثت الآيات بقرار قطعي وبصورة جازمة بأن جميع النفوس سيدركها الموت ويعد هذا الأمر من النواميس الطبيعية التي أقرها الحق سبحانه وتعالى في هذا الوجود.

قال تعالى:

«كُلُّ نَفسٍ ذائِقَةُ المَوتِ وإنَّما تُوَفَّونَ أُجُورَكُم يَومَ القِيامَةِ فَمَن زُحزِحَ عَنِ النارِ وأُدخِلَ الجَنَّةَ فَقَد فازَ وَما الحياةُ الدُّنيا إلاَّ مَتاعُ الغُرورِ» (٢)

قال تعالى:

«كُلُّ نَفسٍ ذائِقَةُ المَوتِ وَنَبلُوكُم بالشَّرِ وَالخَيرِ فِتنَةً وإلَينا تُرجَعونَ» (٣)

قال تعالى:

«كُلُّ نَفسٍ ذائِقَةُ المَوتِ ثُمَّ إلينا تُرجَعونَ» (٤)

كما أخبرنا الحق سبحانه وتعالى أن النفس البشرية لا يمكن أن يدركها الموت بأي شكل من الأشكال أو بأي وسيلة كانت إلا بإذنه جلت وتعالت قدرته.

قال تعالى:

«وَمَا كَانَ لِنَفسٍ أَن تَمُوتَ إلاَّ بإذنِ اللهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً وَمَن يُرِد ثَوابَ الدُّنيا نُؤتِهِ مِنها وَمَن يُرِد ثَوابَ الآخِرَةِ نُؤتِهِ مِنها وَسَنَجزِي

١- سورة البقرة، آية ٢٨٦.

٢- سورة آل عمران، آيه ١٨٥.

٣- سورة الأنبياء، آيه ٣٥.

٤- سورة العنكبوت، آيه ٥٧.

الشَّاكِرِينَ» (١)

وقد حرم الباري عز وجل قتل النفس واعتبر قتلها موبقة كبيرة باستثناء الأنفس التي قدمت من الأعمال وأنماط السلوك ما تستحق عليه القتل وذلك جميعه يجري في ضوء الحق الذي وضحه لنا الحق تبارك وتعالى في كتابه المنير. ولا يجوز بأية حال من الأحوال قتل النفس إلا بالحق وهي الحالة الوحيدة التي يجوز لنا فيها أن نقدم على قتل النفس الانسانية.

قال تعالى:

«مِن أَجلِ ذَلِكَ كَتَبنا عَلى بَني إسرائيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفساً بِغَيرِ نَفسٍ أو فَسادٍ في الأرضِ فكأَنَّما قَتَلَ الناسَ جَميعاً وَمَن أَحياها فَكَأَنَّما أَحيا الناسَ جَميعاً وَلَقَد جاءَتهُم رُسُلُنا بِالبَيِّناتِ ثُمَّ إنَّ كَثيراً مِنهُم بَعدَ ذلِكَ في الأرضِ لَمُسرِفونَ» (٢)

وقال تعالى:

«قُل تَعالَوا أَتلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيكُم ألاَّ تُشرِكوا بِهِ شَيئاً وَبِالوالِدَينِ إحساناً وَلا تَقتُلُوا أَولادَكُم مِن إملاقٍ نَحنُ نَرزُقُكُم وإيَّاهُم وَلا تَقرَبوا الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وَما بَطَنَ ولا تَقتُلوا النَّفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالحَقِّ ذلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَعقِلونَ» (٣)

قال تعالى:

«ولا تَقتُلوا النَّفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظلوماً فَقَد جَعَلنا لِوَلِيِّهِ سُلطاناً فَلا يُسرِف في القَتلِ إنَّهُ كانَ مَنصوراً» (٤)

لذلك جاء استنكار سيدنا موسى عليه السلام على الرجل الصالح عندما قتل غلاما دون أن يوضح الأسباب لسيدنا موسى. وبعد أن أعلمه بحقيقة الأمر تبين له أن قتل النفس في تلك الحادثة لم يكن شيئا نكرا.

المبدأ الخامس - المثول أمام الحق سبحانه وتعالى

إن المثول أمام الحق سبحانه وتعالى من الامور التي أخبرنا بها الباري عز وجل في كتابه الحكيم حيث بين لنا أن جميع النفوس البشرية سوف تجد جميع ما قدمت في الحياة الدنيا من أعمال وأفعال واعتقادات محضرا أمامهم غير منقوص سواء

---

١ - سورة آل عمران، آيه ١٤٥.
٢ - سورة المائدة، آيه ٣٢.
٣ - سورة الانعام، آيه ١٥١.
٤ - سورة الاسراء، آيه ٣٣.

أكانت الاعمال خيرية أم متصلة بجانب الشر. وفي تلك اللحظة تعلم كل نفس علم اليقين ما قدمت لهذا اليوم الجامع الذي تحاسب فيه النفوس وفق ما قدمت، وتود النفوس التي عملت السوء أن تتبرأ من هذه الأعمال والأفعال التي تجانب الخير أو تفتدي ذواتها بكل ما تملك. كما يطلعنا الباري سبحانه وتعالى على حقيقة أخرى ستقع في هذا اليوم الفاصل وهي أن النفوس الإنسانية لا تستطيع أن تقدم العون أو المساعدة أو افتداء بعضها بعضاً حين يتم الحساب لكل نفس وفق ما قدمت من أعمال خيرية أو شرية. ودليل ما ذكرنا من حقائق في هذا الموضوع يكمن في قوله تعالى في الآيات التالية:

«يَومَ تَجِدُ كُلُّ نَفسٍ مَّا عَمِلَت مِن خَيرٍ مُحضَراً وَما عَمِلَت مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَو أَنَّ بَينَهَا وَبَينَهُ أَمَداً بَعيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفسَهُ واللهُ رَؤوفٌ بالعِبادِ» (١)

«هُنَالِكَ تَبلُوا كُلُّ نَفسٍ مَّا أَسلَفَت وَرُدُّوا إلى اللهِ مَولاهُمُ الحَقِّ وَضَلَّ عَنهُم مَّا كانوا يَفتَرونَ» (٢)

«واتَّقُوا يَوماً لَّا تَجزي نَفسٌ عَن نَفسٍ شَيئاً وَلاَ يُقبَلُ مِنها عَدلٌ وَلاَ تَنفَعُها شَفاعَةٌ وَلاَ هُم يُنصَرونَ» (٣)

«واتَّقُوا يَوماً لَّا تَجزي نَفسٌ عَن نَفسٍ شَيئاً وَلاَ يُقبَلُ مِنها شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤخَذُ مِنها عَدلٌ وَلاَ هُم يُنصَرونَ» (٤)

«وإذا الجَحيمُ سُعِّرَت* وَإذا الجَنَّةُ أُزلِفَت* عَلِمَت نَفسٌ مَّا أَحضَرَت» (٥)

«وَمَا أَدراكَ ما يَومُ الدِّينِ* ثُمَّ مَا أَدراكَ ما يَومُ الدِّينِ* يَومَ لا تَملِكُ نَفسٌ لِّنَفسٍ شَيئاً وَالأَمرُ يَومَئِذٍ للهِ» (٦)

«يَومَ تَأتي كُلُّ نَفسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفسِها وَتُوَفَّى كُلُّ نَفسٍ مَّا عَمِلَت وَهُم لا يُظلَمونَ» (٧)

١- سورة آل عمران، آيه ٣٠.
٢- سورة يونس، آيه ٣٠.
٣- سورة البقرة، آية ١٢٣.
٤- سورة البقرة، آيه ٤٨.
٥- سورة التكوير، آيه ١٢- ١٤.
٦- سورة الانفطار، آيه ١٧- ١٩.
٧- سورة النحل، آية ١١١.

المبدأ السادس – النفس والثواب والعقاب

إن النفس الانسانية سوف تبعث في اليوم الآخر من أجل إنزال العقوبة على النفوس التي كانت تعمل أعمال السوء في الحياة الدنيا ولم تفز برضا الحق سبحانه وتعالى حيث سيكون مصيرها في نار جهنم وبئس المصير وفق ما كسبت هذه النفوس، وكل نفس سوف تلقى ما تستحق من عقاب دون أن تظلم شيئا، وسوف ترى جميع ما قدمت حاضرا مشهودا حتى وإن كان مثقال حبة من خردل. وهذه النفوس التي سلكت طريق الفجور وكانت تحث على عمل السوء فلن يكون مصيرها إلا الهلاك والخسران في نار جهنم. أما النفوس المطمئنة التي أنابت واستقامت للحق سبحانه وتعالى، واتبعت جانب التقوى الذي زرعه الحق سبحانه وتعالى فيها وابتعدت عن جانب الفجور فإن الجنة هي المأوى والثواب الأوفى لهذه النفوس الخيرة التي اتخذت من الخير والتقوى سبيلا موصولة لرضا الحق سبحانه وتعالى. وتوضح لنا الآيات التالية صحة ما ذكرنا حول هذا الموضوع.

قال تعالى:

«إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى» (١)

قال تعالى:

«وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ» (٢)

قال تعالى:

«فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» (٣)

قال تعالى:

«الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (٤)

قال تعالى:

«يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً* فَادْخُلِي فِي عِبَادِي* وَادْخُلِي جَنَّتِي» (٥)

١ – سورة طه، آيه ١٥.
٢ – سورة الانبياء، آيه ٤٧.
٣ – سورة يس، آيه ٥٤.
٤ – سورة غافر، آيه ١٧.
٥ – سورة الفجر، آيه ٢٧–٣٠.

المبدأ السابع – النفس والقضايا الغيبية

إن النفس الانسانية لا تستطيع أن تجتلي القضايا الغيبية التي أرادها الباري عز وجل أن تكون خارج دائرة معلومات النفس، فهي لا تستطيع أن تعرف مثلا ماذا سوف تكسب في المستقبل سواء القريب منه أم البعيد، كذلك لا تستطيع أن تعرف في أي موقع سوف يحل عليها الموت. فهي عاجزة أن تعرف أي شيء أخفي عنها. ويبدو وضوح تلك الحقائق في قوله عز من قائل في الآيات التالية:

قال تعالى:

«إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما في الأرحام وما تدري نَفسٌ ماذا تَكسِبُ غَداً وما تَدري نَفسٌ بأيِّ أرضٍ تَموتُ إِنَّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ» (١)

قال تعالى:

«فَلا تَعلَمُ نَفسٌ مَّا أُخفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعيُنٍ جَزاءً بِما كانوا يَعمَلونَ» (٢)

المبدأ الثامن – النفس والحفظة الملازمون لها

إننا لم نعلم إلا الشيء البسيط عن الحفظة الذين وكلوا بكتابة وحفظ كل ما يصدر عن النفس الإنسانية من أمور متصلة بجانب الفجور وما ينشأ عنه من أعمال وأنماط سلوكية، وبجانب التقوى وما ينتج عنه من أنماط سلوكية خيرية. فقد أبلغنا الحق سبحانه وتعالى عن النفس الإنسانية وما يلازمها من حفظه. فالآيات القرآنية الحكيمة التالية توضح لنا ذلك:

قال تعالى:

«إِن كُلُّ نَفسٍ لَّمَّا عَلَيها حافِظٌ» (٣)

قال تعالى:

«وَجاءَت كُلُّ نَفسٍ مَّعَها سائِقٌ وَشَهيدٌ» (٤)

---

١ – سورة لقمان، آيه ٣٤.

٢ – سورة السجده، آيه ١٧.

٣– سورة الطارق، آيه ٤.

٤– سورة ق، آيه ٢١.

المبدأ التاسع – أنواع النفس الإنسانية

أخبرنا الباري عز وجل في كتابه الحكيم الذي أرسله نورا وهدى للبشر جميعا ليقودهم إلى نعيم الدنيا والآخرة أن هناك نوعين من النفس الانسانية. النفس التي تسير في ضوء ما بين الحق سبحانه وتعالى لها من خير في شتى الامور الحياتية وتسمى بالنفس اللوامة، وهي التي تلوم ذاتها عندما تقع في أي خطأ أو أية معصية مخالفة لشرع الله سبحانه وتعالى، وهذه النفس تسمى في اليوم الآخر بالنفس المطمئنة التي عندما تبعث للحساب والعقاب أمام الحق سبحانه تعالى تكون مطمئنة لما قدمت لذاتها من أعمال ترضي وجه الحق سبحانه وتعالى. أما النوع الثاني من النفس الإنسانية، فهي التي أدبرت عن طريق الحق سبحانه وتعالى واتبعت جانب الفجور وما ينبثق عنه من أعمال وأنماط سلوكية مخالفة لقواعد الحق التي أرساها لنا الباري عز وجل في كتابه المنير، وهذه النفس تتوق إلى عمل الأشياء السيئة، فهي تسمى بالنفس الأمارة بالسوء.

والآيات القرآنية الحكيمة التالية توضح لنا ذلك:

قال تعالى:

«وَلا أُقسِمُ بالنَّفسِ اللَّوَّامَةِ» (١)

قال تعالى:

«وما أُبَرِّئُ نَفسي إنَّ النَّفسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ إلاَّ ما رَحِمَ رَبّي إنَّ رَبّي غَفُورٌ رحيمٌ» (٢)

وقد أشار الحق سبحانة وتعالى إلى النفس اللوامة في اليوم الآخر ووصفها بالنفس المطمئنة لما عملت من خير في الحياة الدنيا لتنعم بنوره في اليوم الآخر. ويبدو ذلك واضحا جليا في الآيات القرآنية الحكيمة التالية:

قال تعالى:

«يا أَيَّتُها النَّفسُ المُطمَئِنَّةُ* ارجِعي إلى رَبِّكِ راضِيَةً مَّرضِيَّةً* فادخُلي في عِبادي* وادخُلي جَنَّتي» (٣)

وجميع ذلك يخالف مخالفة صريحة الآراء كافة الأفلاطونية والأرسطية التي تحدثت عن قوى النفس وأنواعها.

١- سورة القيامة، آيه ٢.

٢- سورة يوسف، آيه ٥٣.

٣- سورة الفجر، آيه ٢٧- ٣٠.

المبدأ العاشر والأخير - نماذج من الآيات القرآنية

سنورد هنا بعضا من الآيات القرآنية الحكيمة التى تحمل في طياتها معاني مباشرة تدل على أن النفس تعني الإنسان بجزئيه المادي والروحي.

قال تعالى:

«قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَملِكُ إِلاّ نَفسِي وَأَخِي فَافرُق بَينَنا وَبَينَ القَومِ الفَاسِقِينَ» (١)

فكلمة نفسي تعني بالتحديد سيدنا موسى عليه السلام

قال تعالى:

«قَالَ ربِّ إِنّي قَتَلتُ مِنهُم نَفساً فأَخافُ أَن يَقتُلُونِ» (٢)

فالنفس هنا تعني الرجل الذي قتله سيدنا موسى عليه السلام في أرض مصر.

قال تعالى:

«فَانطَلَقا حَتَّى إذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلتَ نَفساً زَكِيَّةً بِغَيرِ نَفسٍ لَقَد جِئتَ شَيئاً نُكراً» (٣)

فكلمة نفس هنا تعني الغلام الذي قتله الرجل الصالح

قال تعالى:

«.... وَامرأَةً مؤمِنَةً إِن وَهَبَت نَفسَها لِلنَّبِيّ... » (٤)

فكلمة نفس هنا تعني المرأة المؤمنة.

قال تعالى:

«يا أَيُّها الّذينَ آمَنوا قُوا أَنفُسَكُم وَأَهلِيكُم ناراً وَقُودُها النَّاسُ والحِجارَةُ عَلَيها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لّا يَعصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُم وَيَفعَلونَ ما يُؤمَرونَ» (٥)

فكلمة أنفسكم هنا تعني بوضوح المؤمنين.

---

١ - سورة المائدة، آيه ٢٥.

٢ - سورة القصص، آيه ٣٣.

٣ - سورة الكهف، آيه ٧٤

٤ - سورة الاحزاب، آيه ٥٠.

٥ - سورة التحريم، آيه ٦.

قال تعالى:

«ما كانَ لأهلِ المَدينَةِ وَمَن حَولَهُم مِّنَ الأعرابِ أن يَتَخَلَّفوا عَن رسُولِ اللهِ ولا يَرغَبوا بأنفُسِهِم عَن نفسِهِ» (١)

فكلمة أنفسهم هنا تعنى المخاطبين من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب، وكلمة نفسه تعني رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واضح من الآيات السابقة أن كلمة نفس تدل على ذات الشيء كليا وليس جزئيا سواء أكان استخدام الكلمة بصيغة المفرد أم بصيغة الجمع. لذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يخاطب عباده محذرا من مغبة ابتعادهم عن سبيل الحق والخير التي وضحها لهم.

قال تعالى:

«لا يَتَّخِذِ المُؤمِنُونَ الكافِرِينَ أولياءَ مِن دُونِ المُؤمِنينَ وَمَن يَفعَل ذَلِكَ فَلَيسَ مِنَ اللهِ في شَيءٍ إلاَّ أن تَتَّقوا مِنهُم تُقاةً ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفسَهُ وإلى اللهِ المَصيرُ» (٢)

فكلمة «نفسه» تعني هنا الحق سبحانه وتعالى وليس جزءا منه. فالنفس تجزى، وتكلف، وتوفى، وتكسب، وتجادل، وتلوم، وتلام، وتقول، وتنتظر، وتنهى عن الهوى، وتشتهي، وتهوى، وتلمز، وتضل، وتوسوس، وتهتدي، وتؤمن، وتستيقن، وتعلم، ويخفى عليها ما تكسب غدا أو بأي أرض تموت، وتصبر، وتحاسب. فجميع هذه الأعمال تصدر عن الإنسان ويتصف بها جميعا الإنسان كلا لا جزءاً.

وخلاصة القول فإن النفس الانسانية تعني ذات الإنسان بأكمله، وأن النفس مخلوقة من قبل الحق سبحانه وتعالى، وهي نوعان: اللوامة، والأمارة بالسوء، ويدركها الموت، وتمثل للحساب والعقاب أمام الحق سبحانه وتعالى في اليوم الآخر. فيجب أن توجه الدراسات الإنسانية للإنسان في ضوء هذا المفهوم للنفس الإنسانية، إذا ما أردنا أن نجتلي طبيعة النفس الإنسانية وصفاتها.

---

١ - سورة التوبه، آيه ١٢٠.

٢ - سورة آل عمران، آيه ٢٨.

المراجع

١- القرآن الكريم .

٢- إبن سينا. نظرية المعرفة مع بيان مصادرها وآثارها، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ١٩٧٨.

٣- أبو حامد الغزالي: معارج القدس في مدارج معرفة النفس، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٥.

٤- أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين، بيروت، ١٩٧٥.

٥- إريــك فروم. الديــن والتحليــل النفســي، ترجمة فؤاد كامل، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٧٧.

٦- الكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد، بيروت، مكتبة المعارف، ١٩٨٣.

٧- اميل برهيية، ترجمة جورج طرابيشي، تاريخ الفلسفة، الجزء الاول، دار الطليعة، بيروت،١٩٨٢.

٨- حسن ابراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٥.

٩- عادل العواد وغسان فينيانس، المدخل إلى الفلسفة، مطبعة طربية، دمشق، ١٩٨١.

١٠- عبد الكريم العثمان، الدراسات النفسية عند المسلميــن، مكتبــة وهبــة، القاهرة، ١٩٨١.

١١- فتح الله خليف، فلاسفة الاسلام، دار الجامعات المصرية، الاسكندرية.

١٢- فيصل بدير عون، الفلسفة الاسلامية في المشرق، مكتبة الحرية الحديثة، القاهرة، ١٩٨٢.

١٣- محمد أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، مكتبة دار المعرفة، الاسكندرية، ١٩٨٦.

١٤- محمد جمعه، تاريخ فلاسفة الاسلام في المشرق والمغرب، مكتبة المعارف، مصر، ١٩٢٧.

١٥- محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الإسلامية، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣.

١٦- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٩٧٢.

١٧- محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، ١٩٨٩.

١٨- مهدي فضل الله، من أعلام الفكر الفلسفي، الدار العالمية للنشر والتوزيع، لبنان، ١٩٨٢.

١٩- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، ١٩٧٧.

الفصل الثالث

طبيعة الذات الانسانية ومكوناتها

طبيعة الذات الإنسانية ومكوناتها

هدفت هذه الدراسة الى توضيح المعالم الاساسية لطبيعة الذات الانسانية ومكوناتها. وقد أشار الباحث الى اغلب الآراء التي تبناها الفلاسفة والعلماء حول هذا الموضوع على اختلاف مذاهبهم الفكرية ومدارسهم الفلسفية. ثم عرض قول الحق سبحانه وتعالى حول هذا الموضوع من خلال الاعتماد الكلي على الآيات القرآنية الحكيمة. وقد بينت الدراسة ان الذات الانسانية خلقها الحق سبحانه وتعالى من جسد وروح بهدف عبادته سبحانه وتعالى كما وهبه حرية الاختيار، وركّب فيه جانبي الخير والشر، وفطر الذات الانسانية على دين التوحيد، وان هناك نوعين من الذات الانسانية: النوع الاول الذات التي أنابت لطريق الحق والخير، والنوع الثاني الذات التي اختارت طريق الشر والضلالة. كما أن جميع الانفس البشرية سوف تخوض تجربة الموت، وسوف تبعث للحساب والعقاب ويكون خلودها اما في الجنة واما في النار وذلك في ضوء ما قدمت النفس الانسانية لذاتها لليوم الآخر عن طريق اتباع جانب الخير أو جانب الشر في الحياة الدنيا.

طبيعة الذات الإنسانية ومكوناتها

المقدمة :

على الرغم من أن الحق سبحانه وتعالى بعث بنوره الساطع المنير لينير للانسان سبل الخير والرشاد ويبعده عن طرق الشر والضلال، فإن الانسان بشكل عام ادبر عن النهج الالهي المنير عبر تاريخه المديد، إذ ذهب منذ فجر تاريخه ليبحث عن بديل لهذا الحق الذي أرسله الباري عز وجل عن طريق أنبيائه نورا وهدى ورحمة للعالمين.

لذلك ذهب الإنسان في البحث عن المعضلات الأساسية المتصلة بأسرار الوجود التي لها علاقة مباشرة به وتؤثر بشكل مباشر على معتقداته في مسار حياته، ولقد أقحم نفسه في البحث عن أمور وقضايا هي في حقيقة الأمر خارج نطاق قدراته الإنسانية مما حدا به إلى التخبط في أبحر الظلمات والاعتقاد بالأوهام والخرافات، ويشهد له تاريخه الطويل بجميع الممارسات الهابطة المناهضة للحقيقة التي مارسها وهو يعتقد برسوخها وصدقها، وما زالت الخلافات والتناقضات مستقرة في أذهان الناس حتى يومنا هذا حول أهم القضايا التي تؤثر بشكل حاد على معتقدات الناس وسلوكاتهم.

ومن القضايا المهمة التي حاول الإنسان منذ فجر تاريخه عن طريق البحث، والتأمل، والدراسة الوصول إلى مكنوناتها هي حقيقة النشأة الإنسانية وطبيعتها. وقد غصت المكتبات بالأعداد الغزيرة من الكتب والمؤلفات التي تناولت هذا الموضوع بالبحث والتدقيق بهدف الوصول إلى حقيقة الإنسان وسماته الرئيسة من أجل التعامل معه في شتى الأمور الحياتية وفق ما وصلت اليه هذه الدراسات. وسوف نبين بوضوح وجلاء في هذه الدراسة طبيعة الذات الإنسانية ومكوناتها في ضوء القرآن العربي الحكيم، وذلك بعد أن نعرض موجزاً عن الدراسات الإنسانية يبين لنا طبيعة النفس البشرية في ضوء الفكر الإنساني.

الدراسات الانسانية للانسان

حاول الانسان عبر تاريخه الحضاري ان يعي أسرار الطبيعة البشرية وسر نشأتها عن طريق العقل، والبحث، والتجريب، ومن أبرز الفلاسفة القدماء الذين نهجوا هذه السبيل سقراط، وأفلاطون، وأرسطو. لقد كان في اعتقاد سقراط أن النفس البشرية تحتوي على جوهر روحي مستقل عن الجسم، وما الجسم في حقيقته إلا أداة للنفس البشرية.

«انطلق أفلاطون في تصوره للطبيعة البشرية من تصوره للكون، فكما ان الكون يتكون من عالم الروح وعالم المادة، فان الطبيعة الإنسانية كذلك تتكون من العقل(الروح) والمادة (الجسم). ... وحيث أن العقل- من وجهة نظره- قادر على الاتصال بالأفكار الثابته الأزلية الموجودة في عالم الروح، فهو يستمد ثباته وخلوده منها، ويسمو على الجسم ويسيطر عليه. أما الجسم فهو مادة متغيره، يولد، وينمو، ويذبل، ويختفي مثل الأشياء المادية الأخرى. بناء على هذا التصور قسم ذات الانسان الى قسمين منفصلين لكل منهما خصائصه ووظائفه، كما قسم المجتمع الى قسمين رئيسين، قسم يتميز بسمو عقله، والعقل هو الجزء الوحيد في الطبيعة الانسانية الذي يتصل أساسا بالروح، والذين يتصرفون وفقا لأوامر هذا الجزء، هم الفلاسفة، وبالتالي يحق لهم التعليم وقيادة المجتمع وادارته. أما القسم الآخر فهم الذين تتغلب عليهم نزواتهم الجسمية، ويقسمهم الى جزئين: جزء شريف تتحكم فيه دوافع الشجاعة والمثابرة ومركزها القلب وعملهم الجندية. والجزء الوضيع وتتحكم فيه الشهوات والرغبات التي تتعلق بالإشباع الجسمي ومركزه البطن. وهؤلاء لا يلائمهم إلا أن يكونوا عمالا أو صناعاً» (١)

«أما أرسطو فإنه يرى أن الإنسان مسير بمجموعة من الغرائز التي يولد بها وتتكون طبيعته من خصائص نباتية، وتمثل فيه جانب النمو والتوالد والذبول والموت، وطبيعة حيوانية، وتمثل فيه جانب الرغبات والانطباعات الحسية والحركة والنشاط، وطبيعة انسانية، وتتميز بالعقل، وعبر عن هذا الجانب بعبارته المشهورة (الانسان حيوان عاقل)، والعقل عنده يتكون من العقل الأدنى وهو المسؤول عن القرارات الخلقية والعملية التي يعبر عنها الانسان في سلوكه. والعقــل

١ - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٩٨٣.

الأعلى أو النظري الذي يكتسب به الانسان المعرفة الشاملة الخالدة»(١).

«لا توجد الروح والمادة في الانسان منفصلتين أو مستقلتين احداهما عن الاخرى، وانما هما ممتزجتان معاً في وحدة متكاملة متناسقة، وتتكون من هذا المزيج المتكامل المتناسق ذات الانسان وشخصيته. ونحن لا نستطيع أن نفهم شخصية الانسان فهماً دقيقاً إلا بالنظر إلى هذا الكيان الانساني بأكمله، المكون من امتزاج عنصري المادة والروح»(٢).

«يعتقد توماس هوبز أن طبيعة الانسان شريرة، وأنه ذئب تجاه أخيه الانسان. وهو بفطرته يسعى وراء اللذة ويتجنب الألم. وميز هوبز ثلاثة اشياء تدفع الإنسان الى النزاع والقتال وهي: المنافسة، وسوء الظن، وحب المجد والفخر. فالمنافسة تدفع الناس الى الالتجاء الى العنف ليسودوا غيرهم، وسوء الظن يمارسه الإنسان حتى يحمي نفسه، ولن يشبع حبه للمجد والتفاخر بالمال والأنساب والألقاب إلا بالعنف وسوء الظن»(٣).

«يرى جان جاك روسو أن الإنسان خير لانه من صنع الله، ومن ثم فان النمو السليم له يكمن في اتباع قوانين الطبيعة، وان مصدر الشر يكمن في المجتمع عندما يتدخل الكبار في المجتمع بمعاييرهم وقيمهم، ليفسد نمو الطفل، وينحرف بشخصيته واتجاهاته الطبيعية»(٤).

«يعتقد جون لوك أن الإنسان يولد بعقل كالصفحة البيضاء الخالية من الأفكار الفطرية والمعاني الاولية. إلا انه مزود بعدة ملكات لها استعداد للقيام بكل شيء اذا ما هذبت والوسيلة الوحيدة لتهذيبها وجعلها تؤتي ثمارها هي التدريب وتكوين العادات الطيبة»(٥).

١- يوسف كرم، ١٩٨٣، مرجع سابق.

٢- محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، الطبعة الاولى، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢، ص٢٠٢.

٣- احمد علي الفنيش، اصول التربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٢، ص٨٣- ٨٤.

٤- أحمد علي الفنيش، ١٩٨٢، مرجع سابق، ص٨٦.

٥- أحمد علي الفنيش، ١٩٨٢، مرجع سابق، ص ٨٦.

«وقد تطورت نظرية الملكات .... وقالوا ان هناك مبدأ ديناميكيا ومحركا ذاتيا يدفع الطبيعة البشرية للعمل، وهو الذي يؤدي بها الى النضج، وقد أطلقوا عليه تسمية (النفس)، وهذه النفس باعتبارها مبدءاً متحداً واحداً تنطوي على عدد من الملكات، والملكة تعني القدرة على العمل، وهذه الملكات أو القدرات نوعان:

ملكات جسمية، وملكات عقلية. فعن طريق الملكات الجسمية فان النفس تحس، وتشعر، وترغب. وعن طريق الملكات العقلية فان النفس تتذكر، وتتخيل، وتعقل. وهناك تدرج في الملكات في الطبيعة البشرية، حيث أن الملكات أو القدرات الجسمية دعامة للعقلية»(١)

«وقد اختلفت النظرة إلى الطبيعة الانسانية اختلافاً كبيراً. ونظر إليها الفلاسفة والمفكرون من زوايا متعددة، فهناك تصور الطبيعة الانسانية على انها شيء واحد ثابت في الأزمنة والعصور. وأن الانسان هو الإنسان حيث ما وجد، وهناك من نادى بأن الطبيعة الانسانية تختلف بأختلاف الافراد أنفسهم وبإختلاف إستعداداتهم وقدراتهم»(٢).

«فذهب البعض إلى أن الإنسان ليس في حقيقته إلا ظاهرة مادية شديدة التعقيد، مركب من المواد الكيميائية التي نشأت بسبب تطور المادة»(٣).

يرى الطبيعيون والكيماويون ان الانسان بناء مادي يخضع لنفس القوانين الفيزيقية والكيماوية التي تخضع لها الجمادات، والنباتات، والحيوانات. فللانسان حجم، ووزن، وشكل، ولون. كما انه يحتل مكانا ويشغل زمانا، ولذلك ينبغي ان تنطبق عليه قوانين الفيزيقا التي تنطبق على الاشياء المادية كقانون الجاذبية وغيره. كما ان هناك اتصالا مستمراً بين جسم الانسان، وبين البيئة المحيطة به»(٤).

1- Johns. Brubacher, Modern philosphies of Education. New york: Mc Mc Graw- Hill Book, Inc. 1964. pp. 117- 118.

٢- سيد ابراهيم الجيار، التوجيه الفلسفي والاجتماعي للتربية، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٧٨، ص٥٧.

٣- فيليب فينكس، فلسفة التربية- ترجمة وتقديم الدكتور محمد لبيب النجيحي- دار النهضة العربية، ١٩٦٥، ص ٦٩٩.

٤- ابرهيم الشافعي، الإشتراكية العربية كفلسفة للتربية، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١، ص١٦٠.

وقد قام هوارد في كتابه- الدراسة الصحيحة للجنس البشري- بتحديد محتويات الجسم البشري وقال إنه يتألف من المواد التالية: ماء يكفي ملء برميل يسع عشرة جالونات. دهن يكفي لصنع سبائك من الصابون. كربون يكفي لصنع ٩٠٠٠ قلم من الرصاص. فوسفور يكفي لصنع ٢٢٠٠ رأس من رؤوس عيدان الكبريت. حديد يكفي لصنع مسمار متوسط الحجم. كلس يكفي لبياض (تقفيصة) فراخ كميات ضئيلة من الكبريت والمغنيسيوم، فاذا جمعت هذه المواد وخلط بعضها بالبعض الآخر بنسب صحيحة وطريقة دقيقة كان ناتج هذا الخليط انسان لا محالة »(١).

«يرى البيولوجيون ان الانسان احد السلالات الحيوانية التي تمثل اعلى صورة من صور التطور في سلسلة الكائنات الحية. والخلية الحية هي وحدة جسمه، كما هوالحـال في سائر النباتات والحيوانات. وله من الخصائص الكثير مما يشترك فيه مع الحيوانات الاخرى: انه يأكل، وينمو، ويتناسل، ويحس ويتكيف، ويتحرك»(٢).

أما اصحاب الاتجاه الغرائزي فانهم يرون ان الطبيعة البشرية مجموعة من الغرائز «وقد أختلف المنادون بهذا الاتجاه على عددها فمنهم من رأى انها واحدة كغريزة حب الذات أو الغريزة الجنسية، وقد رأى آخرون بأنها تصل الى حوالي الثلاثين (وليم جيمس)، وارتفع بها ثورندايك الى الاربعين، وقال غيره بأنها ثمان وأربعون. وقد هبط بها آخرون الى غريزتين رئيسيتين. وقد اطلق عليها آخرون اسم الدوافع الفطرية وميزوا منها نوعين: الحاجات الفسيولوجية، والحاجات النفسية، وهذه تشمل الحاجات الاجتماعية... والغرائز الفطرية موجودة عند جميع الناس، لا تعلم ولا تكتسب، لكن يولد الفرد مزوداً بها ... وقد قامت نظرية الغرائز على اساس أن هناك تشابها بين غرائز الانسان وغرائز الحيوانات الدنيا... ان الطبيعة البيولوجية للانسان هي اساس طبيعته الانسانية. وينبغي ان نركز جهودنا في التعرف على حاجات هذا الانسان الاساسية وقدراته ودوافعه الأولية، حتى نتمكن من تحديد المبادىء التي تؤثر في نموه وطرق تعلمه»(٣).

١- توفيق الطويل، اسس الفلسفة، دار النهضة، القاهرة، ص٢٤٨.

٢- ابراهيم الشافعي، ١٩٧١، مرجع سابق، ص١٦٠.

٣- عمر شيباني، مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٧٥، ص٩٦.

يرى أقطاب الانجاه السلوكي أنه لكي نحصل على نتائج موضوعية تماما فيما يختص بالطبيعة الانسانية ووظيفتها يجب التركيز على السلوك السافر، وعلى هذا يتميز المذهب السلوكي بصفة عامة باتجاهين: الاول- وهو تطبيق الأسلوب العلمي بمعناه الميكانيكي على ميدان السلوك والتخلص من التغيرات والمفاهيم الغيبية، والثاني- استخدام الحيوان في البحوث والتجارب بقصد دراسة وفهم السلوك عند الانسان. لذلك يعتقدون أنه ليس لمصطلح العقل او الضمير أي مضمون حقيقي. وما العقل إلا شكلا من أشكال السلوك. ومن ثم فانهم يركزون على النشاط العضلي والعصبي... فالانسان آلة دقيقة معقدة، وهدفهم الكشف عن القوانين التي تكمن وراء نشاط هذه الآلة. ومن أمثلة هؤلاء ثورندايك الذي حاول الوصول الى قوانين التعلم عند الانسان حتى يستطيع ان يتحكم في هذا العالم ويوجهه... كما قام بافلوف بجهود مشابهة وتوصل الى نظرية التعلم الشرطي التي توضح ان عملية التعلم عملية آلية صرفه... اما السلوك الانساني فهو في رأيهم حركات ميكانيكية آلية تتركز حول الميثرات والاستجابات والافعال المنعكسة وقوانين الترابط»(١).

«أما الوجوديون فيرون أن الانسان يسمو فوق ذانه وثقافته، ويرون أن مركز الوجود ليس الحقيقة، أو القوانين، أو المبادىء، أو الجوهر، أو الماهية، ولكن الإنسان ذاته. فالإنسان يتميز بالقدرة على اتخاذ القرارات، والإرادة، والاختيار. فاذا كان سكنر مثلا يرى ان الانسان كائن من الممكن ضبطه وتسييره فان سارتر من الجانب الوجودي يرى أن الانسان كائن سام يستجيب لنفسه فقط ومسؤول عن أعماله. ومن ثم فإن الثقافة لا تحتم قدر الانسان، ولكن الانسان هو الذي يضع الثقافة وبالتالي فهو سيدها. إن الإنسان في نظرهم هو الذي يفرض معناه على الكون. بالرغم من أن الكون يعمل بطريقة سليمة من دونه. وليس هناك مكان للأفكار الذاتية الأفلاطونية أو الحقيقة الأولية»(٢).

لقد تأثرت الحضارة الإنسانية في مختلف مجالاتها وفروعها تأثراً قويا بالدراسات الانسانية حول الإنسان وطبيعته مما أدى إلى انتشار الافكار والمعتقدات

---

١ - أحمد علي الفنيش، ١٩٨٢، مرجع سابق، ص٩٦ - ٩٨.

2- Robert E. Mason, Contemporary Educational Theory. New- york: David Mc Kay Company, Inc. 1972. p 238

المتضاده التي قادت الإنسان إلى اختيار الأنماط السلوكية المتعددة في تحقيق أهدافه وإشباع شهواته بالوسائل التي تمليها عليه أفكاره ومعتقداته. فقد ظهر الاستكبار، والاستعلاء، والتفوق العرقي، وثارت الفتن، ودارت الحروب، وانتشر السلب والقتل، وحب السيطرة والظهور على حساب الشعوب المستضعفة، واستسلم الضعيف لأهواء القوي وشهواته، واختلفت النظم والقوانين، وتاهت العقول البشرية في أبحر الظلمات وهي تحاول الوصول الى جذور النفس البشرية وسماتها.

لقد كان للمفاهيم السابقة للطبيعة الانسانية آثارها البعيدة المدى على المجتمعات البشرية وخاصة في العملية التربوية التي ينمو أبناء المجتمع ويترعرعون في ظلالها على مدى مراحل العمر المختلفة. لقد كان للتصورات الأفلاطونية أثرها المباشر على التربية إذ أصبح هدفها الأساسي العناية بتدريب العقل وتنميتة بالمواد الأساسية المتمثلة بالفلسفة والمنطق والرياضيات، والدراسات المتعلقة بالتراث البشري المشترك. ويصاحب ذلك، الأمور التي تتعلق بالنشاط الجسماني من أعمال يدوية فقد أصبح ينظر إليها نظرة دونية. أضف إلى ذلك أن التربية في ضوء التصور الأفلاطوني يجب أن تكون واحدة في جميع المجتمعات.

أما بالنسبة للذين اعتقدوا بأن الطبيعة البشرية شريرة فقد انعكس ذلك على تربية الإنسان تربية تتسم بالعنف والقسوة، وإيقاع مختلف أصناف العذاب على جسمه وروحه. والذين نادوا بأن الطبيعة الإنسانية خيرة فقد انعكس ذلك على اعترافهم بضرورة جعل الطفل محورا للعملية التربوية. أما فكرة أن الانسان صفحة بيضاء فقد كان لها أثرها التربوي على العملية التربوية إذ ساد الاعتقاد أن العملية التربوية يجب أن تركز على تدريب الملكات عن طريق المران، والتكرار، والممارسة.

«لقد ترتب على التصور المادي للإنسان الاتجاه الى تفسير سلوكه تفسيراً طبيعياً. ولعل أهم هذه التفسيرات التفسير السلوكي القائم على نظرية دارون عن التطور وأصل الأنواع. هذه النظرية التي ترى أن الانسان يمثل أعلى حلقة في سلم التطور البيولوجي... وأصبح معنى هذا أنه لكي نعرف السلوك الإنساني على حقيقتة يجب أن ندرس ونعرف السلوك الحيواني. واتجه العلماء بذلك إلى دراسة هذا السلوك الحيواني لعلهم يستنتجون منه القوانين والنظريات الخاصة بالسلوك

الإنساني »(١)

وقد تأثرت أيضا العلوم الإنسانية بالمفاهيم التي تداولها الفلاسفة العقليون والتجريبيون حول الطبيعة البشرية.«فعلماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعي يعتبرون الإنسان حيواناً اجتماعياً... ويرون أنه مخلوق يسعى إلى السلطة والسيطرة. ومن ثم يوجهون الكثير من اهتمامهم إلى الطرق المتعددة للوصول إلى السلطة كالقوة، والدعاية، والتهديد، والوعود، والضغوط الاقتصادية والاجتماعية التي يؤثر بها الفرد في المجتمع. ويؤثر بها المجتمع في الفرد. بعد هذا نجد الانثروبولوجيين الذين يهتمون بوصف الأنماط البشرية المتعددة... فهم يرون الإنسان كموجود، ذا حاجات بيولوجية واجتماعية أساسية، يتم التعبير عنها وإرضاؤها بطرق متعددة، وذلك طبقا للظروف البينية والتاريخية التي يمر بها الإنسان. أما الجغرافيون فيدرسون الإنسان من حيث صلته بالأرض ومن ثم يشيرون إلى أن السلوك البشري محكوم وموجه بعوامل مثل المناخ والطعام، ومدى سهولة المواصلات أو صعوبتها، وتوزيع المصادر الطبيعية... وللمؤرخين نظرة اخرى. فهم يرون أن الإنسان كائن يعيش الحاضر بذاكرة الماضي. وتوقع المستقبل، ومن ثم يحاولون فهم المعنى الحقيقي للاحداث الماضية عن طريق إعادة بناء الحياة الواعية للأشخاص الذين صنعوا تلك الأحداث»(٢)

وهكذا ذهب الإنسان بناء على دراساته وتصوراته لطبيعة الإنسان في تطبيق النظريات والأساليب العلمية التي تجزم وتؤكد أن الإنسان انحدر من أصل حيواني مثل نظرية دارون. بل ذهب كارل ماركس الى إقامة الدليل على أن عقلية الإنسان وليدة الوسط المادي الذي يعيش فيه. كما ذهب فرويد إلى أبعد من ذلك عندما أراد أن يؤكد أن الإنسان ليس منحدرا من الحيوان فحسب، بل إن عقليته مازالت تحتفظ حتى اليوم ببعض الرواسب من أصله الحيواني. لذلك فإن الإنسان في ماهيته وأساسه حيوان قادر على التقدم.

---

١ - محمد لبيب النجيحي، مقدمة في فلسفة التربية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣، ص٢٤٤.

2- Philips H. Phenix, Realms of Meaning. New- York. MC Graw-Hill Book Company, Inc. 1964- pp. 17-19.

وقد عبر الكسيس كارل في كتابه- الإنسان ذلك المجهول- عن الدراسات الإنسانية التي حاولت أن توضح لنا طبيعة الإنسان فقال: لقد بذل الجنس البشري مجهودا جبارا لكـي يعرف نفسه، ولكنه بالرغم من اننا نملك كنزا من الملاحظات التى كدسها العلماء، والفلاسفة، والشعراء، وكبار الروحانيين في جميع الأزمان، فاننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا... إننا لا نفهم الإنسان ككل... إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة. وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منا مكون من مركب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة»(١)

وقد انتقد اريك فروم الدراسات السلوكية والنفسية قائلا: إن اهتمام علم النفس الحديث ينصب في أغلب الأحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع منهج علمي مزعوم، وذلك بدلا من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الإنسان الهامة. وهكذا أصبح علم النفس يفتقر إلى موضوعه الرئيسي وهو الروح. وكان معنيا بالمكانيزمات وتكوينات رودود

الأفعال والغرائز، دون أن يعنى بالظواهر الأساسية المميزة أشد التمييز للإنسان: كالحب، والعقل، والشعور، والقيم»(٢)

وقد عرف قسم من علماء النفس الذات الانسانية بطريقتهم الخاصة التي تنسجم مع اعتقاداتهم ومفاهيمهم للذات الانسانية حيث يعرفها حامد زهران بأنها «الشعور والوعي بكينونة الفرد، كما أنها تنمو وتنفصل تدريجياً عن المجال الادراكي، وتتكون بنيتها كنتاج للتفاعل مع البيئة، وان الذات تشمل الذات المدركة، والذات من تصور الاخرين، والذات المثالية، وانها قد تمتص قيم الاخرين وتسعى إلى التوافق والثبات، وتنمو نتيجة للنضج والتعلم»(٣).

وقد عرفت الذات الانسانية على انها «مركب من عدد من الحالات النفسية، والانطباعات، والمشاعر، وتشمل ما تتضمنه كلمات أنا، لي، ذاتي، وتمثل في كـــل

١- الكسيس كارل، الإنسان ذلك المجهول- تعريب شفيق اسعد، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨٣.

٢- إريك فروم، الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٧٧، ص١١.

٣- حامد عبد السلام زهران، علم نفس النمو، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٧، ص٢٥٣.

منا الجوهر الذي يقبع في اساس معاناة الانسان وتجربته ككائن انساني مدرك»(١).

اما سعدية بهادر فتعرف الذات الانسانية بانها «هي الجزء الواعي والمدرك من كيان الشخصية الانسانية التي يمكن رؤيتها والتعرف عليها»(٢).

ويعرف مفهوم الذات على انه «مفهوم افتراضي شامل يتضمن جميع الافكار والمشاعر عند الفرد التي تعبر عن خصائص جسمية وعقلية وشخصية، وتشمل معتقداته وقيمه وخبراته وطموحاته»(٣).

كما يعرفه بورنز على أنه «تجريد يطوره الفرد بشأن خصائصه وقدراته، واشيائه، ونشاطاته التي يمتلكها، والتي تحيط بها، والتي تكون مشتقه من خبراته السابقة وقيمه»(٤).

ومما تجدر الإشارة إليه أن علماء النفس قد وجهوا اهتماماتهم إلى دراسة الظواهر النفسية التي يمكن ملاحظتها ودراستها بطريقة موضوعية. فقد تركزت دراساتهم وبحوثهم حول حاجات الإنسان الفسيولوجية، وحاجات الإنسان المتعلقة بتوافقه الاجتماعي والشخصي وفق متطلبات البيئة الاجتماعية والثقافية التي ينشأ فيها. وبذلك أبعدوا الجانب المعنوي الذي يشكل الجزء الأهم في النفس البشرية عن دراساتهم برغم أنه أهم ما يتميز به الإنسان عن الحيوان، هذا بجانب ما ينبعث عن الجانب المعنوي من أهداف وحاجات إنسانية نبيلة تجعل الإنسان نموذجا فريدا في تكوينة وطبيعته في هذا الكون. لذلك يجب أن توجه كافة الدراسات الإنسانية التي تحاول ان تصل إلى طبيعة الإنسان وخصائصه إلى تناول الإنسان ككل بجانبيه المادي والمعنوي وليس جانبا واحدا. هذا بجانب الاعتماد التام على ما وصلنا من الحق سبحانه وتعالى من حقائق متصلة بالإنسان وصفاته. والحق أن الإنسان قد حقق نجاحات باهرة في دراسة الجوانب الفسيولوجية والتشريحية للإنسان، ولكن هذه

١ - ميخائيل اسعد، ومالك مخول، مشكلات الطفوله والمراهقه، دار الافاق الجديدة، بيروت ١٩٨٢، ص٢٣٢ - ٢٣٣.

٢ - سعدية بهادر، من انا؟ البرنامج التربوي النفسي لخبرة من انا الموجهة لاطفال الرياض بين النظرية والتجربة، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٨٣، ص٤٦.

3- Gersild, A.T. The psychology of Adolesence. 2nd . Ed. New york . The Macmillan Company, 1963. pp. 29.

4- Burns, J.S. The self concept in theory, measurement, Development, and bahavior. New york: Longman, Inc. 1979

الدراسات الجزئية للإنسان بالرغم من فوائدها الجمة بالنسبة لنا في حياتنا المعاصرة، فإنها لن تقودنا للوصول الى طبيعة النفس الانسانية وخصائصها لاعتمادها فقط على الجانب المادي في الإنسان.

طبيعة النفس الإنسانية وتكوينها في ضوء القرآن الكريم

لقد بين لنا الباري عز وجل القضايا الأساسية المتعلقة بطبيعة النفس الإنسانية وخصائصها في كتابه المنير بصورة واضحة ودقيقة لا تدع مجالا للشك عند كل من يريد أن يصل إلى لباب تلك القضايا التي مازال أغلبها غامضا أو غائبا عن أذهان العلماء والباحثين في مجال الدراسات الإنسانية، وتشكل في بعض الأحيان قواعد الاختلاف والتضاد فيما بينهم. فالحق سبحانه وتعالى خاطب النفس الإنسانية في كتابه العزيز بمفردات عدة وهي: الإنسان، والناس، والبشر، والإنس، والعباد، والنفس، وبني آدم. كما بين لنا مراحل خلق النفس الانسانية. وما جسد فيها من قدرات، وقوى، وملكات، وصفات، وأنواع، والهدف من خلقها. وهذا ما نريد أن نوضحه جميعا في هذه الدراسة.

القضية الاولى - خلق الإنسان

في الوقت الذي احتار فيه العلماء والباحثون في دراساتهم حول قضية خلق الإنسان فإن الله سبحانه وتعالى بين لنا بوضوح وجلاء في كتابه الحكيم جميع ما يلزمنا حول قضية الخلق ومكنوناتها. وكما نعلم جميعاً فإن القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه وتعالى، لذلك فإن هذا الكتاب الحكيم يتميز عن بقية البحوث والدراسات الإنسانية للإنسان، لأن الحق سبحانه وتعالى خالق الإنسان يعلم وحده خفايا النفس البشرية ومكنوناتها، والنفس البشرية هنا تعني البشر كافة عبر تاريخهم وليس عينة منهم كما يفعل الباحثون في دراساتهم. كما ان الحق سبحانه بين لنا حقيقة النفس الإنسانية وطبيعتها عبر أطوارها الحياتية وامتدادها التاريخي بما فيه الحاضر والمستقبل. هذا بالإضافة إلى أن قول الحق سبحانه وتعالى يخلو من أهواء الباحثين الشخصية والفكرية منها التي ترى في الجدال موردا فياضا للابتعاد عن الحقيقة.

لقد بين لنا القرآن الحكيم مجموعة من الحقائق الأساسية المتصلة بخلق الإنسان في مراحل متعددة ابتداء من المرحلة التي لم يكن الإنسان فيها شيئا مذكورا حتى

مرحلة التناسل والتكاثر التي نعيشها جميعا مرورا بخلق آدم وحواء عليهما السلام.

وسوف نورد هذه الأطوار والمراحل كما وضحها الأستاذ عبد الرحمن الميداني في كتابه «الأخلاق الاسلامية وأسسها» وهي على النحو التالي: (١)

١. يشير القرآن الى مرحلة زمنية لم يكن الإنسان شيئا فيها مذكورا ثم وجد.

قال تعالى:

«هَلْ أَتَىٰ على الإنسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهرِ لَم يَكُن شَيئاً مَّذكُوراً» (٢)

فقد مر عليه حين من الدهر السحيق في أغوار الزمن الماضي لم يكن للإنسان فيه وجود. وقد جاء البيان على طريقة التساؤل لانتزاع الجواب من منصفي أهل العلم وأهل النظر. والجواب الحتمي: نعم لقد أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا. إذ لو كان له وجود لعرف هذا الوجود.

٢. ويلفت القرآن الكريم النظر إلى أن الماء هو العنصر الأول من العناصر المادية التي تكون منها خلق جسد الإنسان. كما هو العنصر الأول الذي خلق منه كل كائن حادث. ودل على هذه الحقيقة نصوص متعددة من القرآن الكريم.

قال تعالى:

«وَجَعَلنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤمِنونَ» (٣)

قال تعالى:

«واللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنهُم مَّن يَمشِي عَلَى بَطنِهِ وَمِنهُم مَّن يَمشي على رِجلَينِ وَمِنهُم مَّن يَمشي على أَربَعٍ يَخلُقُ اللهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ» (٤)

قال تعالى:

«وَهُوَ الَّذي خَلَقَ مِنَ الماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهراً وَكانَ رَبُّكَ قَديراً» (٥)

١- عبد الرحمن حسن الميداني، الأخلاق الاسلامية وأسسها، الطبعة الاولى- دار القلم- بيروت، ١٩٧٩، ص٣٠٢- ٣٠٨.

٢- سورة الانسان، آيه ١.

٣- سورة الانبياء، آية ٣٠.

٤- سورة النور، آيه ٤٥.

٥- سورة الفرقان، آية ٥٤.

٣. كما يلفت القرآن الانتباه إلى أن التراب هو العنصر الثاني من العناصر التي تكون منها خلق جسد الإنسان، فالإنسان الأول كان التراب عنصرا من عناصر تكوين خلقه.

قال تعالى:

«إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُن فَيَكونُ» (١)

والتراب عنصر من عناصر تكوين كل إنسان بعد آدم إذ من التراب النبات، ومن النبات الغذاء، ومن الغذاء الدم، ومن الدم النطفة، ومن النطفةالجنين.

يقول تعالى:

«واللهُ خَلَقَكُم مِن تُرابٍ ثُمَّ مِن نُطفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُم أزواجاً» (٢)

ويقول تعالى:

«هُوَ الذي خَلَقَكُم مِن تُرابٍ ثُمَّ مِن نُطفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخرِجُكُم طِفلاً ثُمَّ لِتَبلُغوا أشُدَّكُم ثُمَّ لِتَكونوا شُيوخاً وَمِنكُم مَن يُتَوَفّى مِن قَبلُ وَلِتَبلُغوا أجَلاً مُسَمّىً وَلَعَلَّكُم تَعقِلونَ» (٣)

ويقول تعالى:

«ومِن آياتِهِ أن خَلَقَكُم مِن تُرابٍ ثُمَّ إذا أنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرونَ» (٤)

٤. ويشير القرآن الكريم إلى خلق الإنسان من طين. والطين هو امتزاج عنصري الماء والتراب.

قال تعالى:

«ذلِكَ عالِمُ الغَيبِ والشَّهادَةِ العَزيزُ الرَّحيمُ* الذي أحسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ وَبَدأَ خَلقَ الإنسانِ مِن طينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسلَهُ مِن سُلالَةٍ مِن ماءٍ مَهينٍ* ثُمَّ سَوّاهُ وَنَفَخَ فيهِ مِن روحِهِ وَجَعَلَ لَكُم السَّمعَ والأبصارَ والأفئِدَةَ قَليلاً ما تَشكُرونَ» (٥)

وقد وصف الله الطين في بدء خلق الإنسان الأول بأنه طين لازب أي لاصق بعضه ببعض متماسك لزج.

١- سورة آل عمران، آيه ٥٩.

٢- سورة فاطر، آيه ١١.

٣- سورة غافر، آيه ٦٧.

٤- سورة الروم، آيه ٢٠.

٥- سورة السجدة، آيات ٦-٩.

قال تعالى:

«إِنَّا خَلَقْناهُم مِن طِينٍ لَّازِبٍ» (١)

٥. ثم تأتي بعد مرحلة الطين اللازب مرحلة الحمأ المسنون. والحمأ هو الطين الذي تغير واسود بطول مجاورة الماء والمسنون هو المصدر.

قال تعالى:

«وَلَقَد خَلَقنا الإنسانَ مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَّسنُونٍ» (٢)

٦. بعد ذلك تأتي مرحلة جفاف الطين حتى يصير صلصالا والصلصال هو الطين اليابس غير المطبوخ، هذا الصلصال يشبه الفخار إلا أنه ليس فخارا لأن الفخار مطبوخ بالنار.

قال تعالى:

«خَلَقَ الإنسانَ مِن صَلصَالٍ كَالفَخَّارِ» (٣)

٧. ثم تأتي مرحلة نفخ الروح بعد أن صارت الطينة ذات صورة بشرية كاملة.

قال تعالى:

«إذ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ فإذا سَوَّيتُهُ وَنَفَختُ فِيهِ مِن روحي فَقَعوا لَهُ ساجِدينَ» (٤)

٨. حتى إذا تم خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام يشير القرآن الكريم إلى أن الله سبحانه وتعالى خلق منه زوجه

قال تعالى:

«هُوَ الَّذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنها زَوجَها لِيَسكُنَ إليها» (٥)

وقال تعالى:

«خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنها زَوجَها» (٦)

---

١ - سورة الصافات آيه ١١.

٢ - سورة الحجر آيه ٢٦.

٣ - سورة الرحمن آيه ١٤.

٤ - سورة ص آيه ٧١ - ٧٢.

٥ - سورة الاعراف آيه ١٨٩.

٦ - سورة الزمر آيه ٦.

وقال تعالى:

«يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا» (١)

والحق أن ليس في كتاب الله إشارة إلى كيفية الخلق تلك.

٩. ثم يلفت القرآن الكريم الإنتباه الى خلق السلالات البشرية بعد خلق الإنسان الأول وزوجه.

قال تعالى:

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين* ثم جعلناه نطفة في قرار مكين* ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة* فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين» (٢)

وإذا كانت كيفية خلق الإنسان الأول غيبا لم يطلع الله الإنسان عليه فان الحقائق التي تتعلق بخلق السلالات الإنسانية بعد خلق آدم وزوجه بدءاً من مرحلة النطفة ومرورا بمرحلة العلقة فالمضغة فخلق العظام وما يتبع ذلك من بناء اللحم على العظام. هذه الحقائق تخضع لإمكان البحث الإنساني. وقد أصبحت الآن معروفة بل إن البحث العلمي أثبت في جلاء هذه الحقائق.

يبدو بوضوح وجلاء من خلال الآيات الحكيمة السابقة أن الإنسان مكون من الجسم والروح التي نفخها فيه الحق سبحانه وتعالى من روحه. وتجدر الإشارة هنا أن الحق سبحانه وتعالى في مختلف الظروف والأزمان خاطب الإنسان باكمله وحدة متكاملة بين الجسم والروح، هذه الوحدة التي تكون ذات الإنسان. ولم يخاطب الحق سبحانه وتعالى جزءا من الإنسان في أي ظرف من الظروف ولا في أي مرحلة من المراحل. وعلى هذا الأساس يجب أن ننظر إلى الإنسان سواء في مجال الدراسات الإنسانية و في مجال التفاعل الاجتماعي.

---

١ - سورة النساء آيه ١.

٢ - سورة المؤمنون آيه ١٢ -١٤.

القضية الثانية - الذات الإنسانية والهدف من خلقها

مهما تعددت الآراء والأقوال حول هدف أو مجموعة أهداف الإنسان في هذا الوجود تبقى كلمة الفصل في هذا الموضوع الهام إلى خالق الإنسان، فهو الذي خلقه بهذه القدرات والمواصفات، وخلقه في هذه الصورة البديعة المميزه عن باقي المخلوقات التي خلقها. فقد بين الحق سبحانه وتعالى الهدف الأسمى من خلق الانسان في كتابه العربي المنير حيث يقول عز من قائل:

«وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ* مَآ أُرِيدُ مِنهُم مِن رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ» (١)

«إن هذا النص الصغير ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة، من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها، سواء كانت حياة فرد أم جماعة ام حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها، وإنه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي تندرج كلها تحت هذه الحقيقة التي تعد حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة، وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس تتمثل في وظيفة، من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده، ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده، وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد، خاوية من معناها الأصيل، الذي تستمد منه قيمتها الأولى، وقد انفلت من الناموس الذي خرج به إلى الوجود، وانتهى إلى الضياع المطلق، الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود، الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء. هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود، هي العبادة لله.. أن يكون هناك عبد ورب، عبد يعبد، ورب يعبد، وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار»(٢)

القضية الثالثة - الذات الإنسانية والفطرة.

إن الباري عز وجل فطر الإنسان على عقيدة التوحيد به دون غيره من الأنداد التي اتخذها الغافلون من البشر من دون الله سبحانه وتعالى. وهذه الفطرة التي فطرت عليها الذات الإنسانية تنسجم بشكل متناسق ومتزن مع الهدف الأسنى الذي خلق من أجله الإنسان وهو عبادة الباري عز وجل. وتبدو مسألة الفطرة

١ - سورة الذاريات، آيه ٥٦ - ٥٧.

٢ - سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد السادس، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ١٩٨١، ص٣٣٨٦ - ٣٣٨٧.

واضحة جلية في مدلول الآيتين الحكيمتين التاليتين:

قال تعالى:

«فَأَقِم وَجهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطرَتَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيها لا تَبديلَ لِخَلقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمُونَ» (١)

قال تعالى:

«وإذ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَني آدَمَ مِن ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وأَشهَدَهُم على أَنفُسِهِم أَلَستُ بِرَبِّكُم قالوا بَلَى شَهِدنا أن تَقولوا يَومَ القِيامَةِ إنّا كُنّا عَن هَذا غافِلينَ» (٢)

«تعرض هذه الآية قضية التوحيد من زاوية جديدة عميقة، تعرضها من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر، وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم، وذات تكوينهم، وهم بعد في عالم الذر.

إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري، فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة، أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى، فيحتاجون إلى التذكير والتحذير. إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى، فلا حجة لهم في نقض الميثاق- حتى لو لم يبعث اليهم بالرسل يذكرونهم ويحذروهم- ولكن رحمته وحدها اقتضت ألا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف، وألا يكلهم كذلك إلى عقولهم التي أعطاها لهم فقد تضل، وأن يبعث إليهم رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» (٣)

القضية الرابعة – الذات الإنسانية وجانبا الخير والشر.

إن الحق سبحانه وتعالى الذي بين لنا في كتابه العزيز خلق الإنسان بمراحله المختلفة، كما بين لنا الهدف من خلقه والفطرة التي جسدها في الذات الإنسانية، فقد بين لنا أيضا أن النفس الإنسانية ركب فيها جانبا الفجور والتقوى، حيث يقود جانب الفجور فيها الإنسان إلى اتباع عدوه اللدود إبليس والابتعاد عن النهج الإلهي المنير الذي بعثه الحق سبحانة وتعالى هدى ورحمة للناس أجمعين، أما جانب التقوى

١- سورة الروم، آية ٣٠.

٢- سورة الاعراف، آيه ١٧٢.

٣- سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد الثالث، دار الشروق، بيروت، ١٩٨١، ص١٣٩١.

الذي وشجت عليه النفس الإنسانية، فيقود ذات الإنسان إلى الإنابة للخط الإلهي والاستقامة عليه واتباع تعليماته في شتى أمور الحياة. فشاء الحق سبحانه وتعالى أن يلهم النفس الإنسانية كلا الجانبين جانب التقوى الذي يؤدي إلى كل ما فيه خير للإنسان وجانب الفجور الذي يقود الإنسان الى كل ما فيه شر للإنسان.

قال تعالى:

«وَنَفْسٍ وما سَوَّاها، فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقواها» (١)

قال تعالى:

«وَهَدَيناهُ النَّجدَين» (٢)

القضية الخامسة - الذات الإنسانية وحرية الاختيار.

لقد خص الحق سبحانه وتعالى الإنس والجن دون سائر مخلوقاته بحرية الاختيار بين طريق الحق وطريق الضلالة. لذلك أصبح الإنسان كائنا مميزا بهذه الحرية التي منحها له الحق سبحانه وتعالى بعد أن وهبه الملكة العقلية التي يستطيع بواساطتها أن يميز بين الحق والباطل، وبعد أن وضح له الحق أنصع توضيح وبأسمى المعانى والدلالات عن طريق بعث الرسل والكتب السماوية، كما بين الباطل والسبل المؤدية إليه، فالإنسان الذي فطر على دين التوحيد وركب في ذاته جانبا الفجور والتقوى، أعطى حرية الاختيار في اتباع أي الجانبين يشاء. والحق سبحانه وتعالى يمد له في كل جانب اختاره بحرية تامة دون إملاء او فرض من أية قوة أخرى، فهذا الاختيار هو فقط للإنسان، وفي ضوء هذا الاختيار سيحدد مصير الإنسان فيالدنيا والآخرة، والآيات الكريمة التالية تدل بوضوح وجلاء على حرية الاختيار التي وهبها الباري عز وجل للانسان.

قال تعالى:

«وَلَو شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن في الأرضِ كُلُّهُم جَميعاً أَفَأَنتَ تُكرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونوا مُؤمِنينَ» (٣)

قال تعالى:

«قُل يا أَيُّها النَّاسُ قَد جاءَكُمُ الحَقُّ مِن رَبِّكُم فَمَنِ اهتَدَى فَإِنَّما يَهتَدي لِنَفسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيها وَما أَنا عَلَيكُم بِوَكيلٍ» (٤)

١ - سورة الشمس، آيه ٧-٨.

٢ - سورة البلد، آيه ١٠.

٣ - سورة يونس، آيه ٩٩.

٤ - سورة يونس، آيه ١٠٨.

قال تعالى:

«إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل» (١)

قال تعالى:

«يا بَني آدَمَ إمَّا يَأتِيَنَّكُم رُسُلٌ مِنكُم يَقُصُّونَ عَلَيكُم آياتي فَمَن اتَّقَىٰ وأصلَحَ فَلا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنونَ* والَّذينَ كَذَّبوا بآياتِنا واستَكبَروا عَنها أُولَٰئِكَ أصحابُ النّارِ هُم فيها خالِدونَ» (٢)

قال تعالى:

«لا إكراهَ في الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكفُر بالطّاغوتِ وَيُؤمِن باللهِ فَقَدِ استَمسَكَ بالعُروَةِ الوُثقَىٰ لا انفِصامَ لَها واللهُ سَميعٌ عَليمٌ» (٣)

هذه نماذج من الآيات القرآنية الحكيمة التي تدل بصورة قاطعة على حرية الاختيار التي وهبها الحق سبحانه وتعالى للإنسان والتي يستطيع من خلالها أن يختار بين الإيمان وبين الكفر، بين الخير وبين الشر، بين اتباع النهج الإلهي وبين اتباع النهج البشري، بين الحق وبين الباطل، بين الدخول في حزب الله والانضواء تحت رايته وبين الانضمام إلى حزب الشيطان والسير على نهجة، فهذا الاختيار من بدايته إلى نهايته هو للإنسان وفي ضوء اختياره يتم حسابه في اليوم الآخر.

القضية السادسة – حالات الذات الإنسانية إعتقاداً وسلوكاً

إن طبيعة الذات الأنسانية وما تجسد فيها من قدرات عقلية وحرية اختيار، وحب الشهوات، وجانبي الفجور والتقوى، بالإضافة الى طبيعة الحياة الدنيا، وحقيقة الآخره وما يحصل فيها من ثواب وعقاب للانس والجن، جعلت النفس الإنسانية تقسم إلى نوعين: النوع الأول هو الذي اختار أن يسير في ضوء النهج الإلهي الذي بعثه الحق سبحانه وتعالى هدى ورحمة للعالمين فاتخذ جانب الخير والتقوى الذي وشجت عليه النفس الإنسانية وفي كل مرة يقع فيها الإنسان في خطأ ما فإن توجيه اللوم للذات الإنسانية يكون من شمائل هذه النفس. لذلك سماها الحق سبحانه وتعالى بالنفس اللوامة، وهي التي تلوم ذاتها عندما تقع في خطأ معين.

١- سورة الزمر، آية ٤١.

٢- سورة الاعراف، آية ٣٥- ٣٦.

٣- سورة البقره، آية ٢٥٦.

قال تعالى:

«لا أُقسِمُ بِيَومِ القِيامَةِ* وَلا أُقسِمُ بالنَّفسِ اللَّوَّامَةِ» (١)

وهذه النفـس اللوامـة عندمـا تبعـث للحساب في اليوم الآخر وصفها الحق سبحانه وتعالى بالنفس المطمئنة لما قدمت من أعمال لذاتها في الحيـاة الدنيا «دار البلاء والفناء» لتنعم في دار الآخرة، فأعمالها الخيره في الحياة الدنيا جعلتها تطمئن إلى مصيرها في اليوم الآخر.

قال تعالى:

«يا أَيَّتُها النَّفسُ المُطمَئِنَّةُ* ارجِعي إلىٰ رَبِّكِ راضِيَةً مَّرضِيَّةً* فادخُلي في عِبادي* وادخُلي جَنَّتي» (٢)

وعندما يقوم الإنسان باختيار جانب الخير الذي ينسجم مع فطرة التوحيد ويزكي نفسه ويرتفع بها عن جانب الشر وسبله. فإنه يكون من المفلحين الفائزين الذين أحسنوا الإختيار.

قال تعالى:

«وَنَفسٍ وَما سَوَّاها* فَأَلهَمَها فُجُورَها وَتَقواها* قَد أَفلَحَ مَن زَكَّاها* وَقَد خَابَ مَن دَسَّاها» (٣)

أما الذين اختاروا السبيل الاخرى وهي جانب الفجور والشر في النفس الإنسانية فإنهم خالفوا الفطرة التي فطرت عليها النفس الإنسانية، كما ابتعدوا عن النهج الإلهي القويم الذي بعثه الحق هدى ونورا للناس أجمعين، فهذه النفس التي اختارت اتباع جانب الشر تأمر بعمل السوء وكل ما يسوق إلى دروب الشر، لذلك سماها الحق سبحانه وتعالى بالنفس الأمارة بالسوء.

قال تعالى:

«وَمَا أُبَرِّئُ نَفسِي إِنَّ النَّفسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (٤)

---

١ - سورة القيامة، ايه ١ - ٢.

٢ - سورة الفجر، آيه ٢٧ - ٣٠.

٣ - سورة الشمس، آيه ٧ - ١٠.

٤ - سورة يوسف، آيه ٥٣.

فهذه النفس الأمارة بالسوء عندما تبعث للحساب والعقاب في اليوم الآخر وتجد جميع ما عملت من أعمال سيئة وشريرة محضرا تبدأ بالجدال والحسرة على ما قدمت من أعمال، وتود أن تفتدي ذاتها بكل شيء، ولكن دون جدوى لأن جهنم بانتظارها لتجد سوء العذاب وأشد الوثاق وكل ما يسؤوها.

وفي ضوء ما تقدم من حقائق حول أنواع الذات الإنسانية فإن الحق سبحانه وتعالى خاطب كلا منهما بصفات مختلفة عن الصفات الأخرى التي وصف بها النفس الأخرى فنجد في كتابه العزيز الأوصاف المتعددة والمتجانسة التي يصف بها الحق سبحانه الذين استجابوا إلى ندائه وزكوا أنفسهم باتباع جانب التقوى و الخير، إنه سبحانه وتعالى يصفهم بحزب الله، والفئة المنيبة، والمؤمنين، والمفلحين، والعالمين، والمسلمين، والمتقين، والفائزين، والمتوسمين، وأولياء الرحمن، وعباد الرحمن، والموقنين، والصادقين، وأصحاب اليمين، والمقربين، والصالحين، والمهتدين والمحسنين، والعاقلين، والصابرين، وأولي الألباب، والمتطهرين، والقانتين، وأولي الأبصار، والمنفقين، والمتسغفرين، والشاكرين، والمتوكلين، والأبرار، والمقسطين، وأصحاب الجنه، وأهل الفقه، والراشدين، والطيبين، والخاشعين، والمخبتين، والأوابين، وجميع هذه الصفات المؤثله المجيدة تدل على حسن أعمالهم الخيرة التي تتفق مع دين الفطرة، دين التوحيد.

أما النوع الثاني من النفوس البشرية فقد وصفها الحق سبحانه وتعالى بأوصاف دقيقة تدل على ما تقوم به من أعمال وأنماط سلوكية متعددة. فجاء وصفهم في كتاب الله سبحانه وتعالى بأنهم حزب الشيطان، والفئة المدبرة، والخراصون، والكافرون، والكاذبون، والضالون، والفاسقون، والمنافقون، والخاسرون، والمستكبرون، والفاجرون، والجاهلون، وأولياء الشيطان، والمسرفون، والمعرضون، والمدبرون، وأصحاب الشمال، وفئة الغاوين، وجنود إبليس، والمجرمون، والمفسدون، والسفهاء، والمشركون، والمعتدون، والمفترون، والماكرون، والجاحدون، وأصحاب السعير، والغافلون، وأصحاب النار، والساهون، والطاغون، والخبيثون، والمرتابون، والمبلسون، والكالحون.

ومما تجدر الإشارة إليه أن اغلب الناس اختاروا بمحض إرادتهم أن يكونوا من الفئة الثانية المناهضة للفطرة الإنسانية، وهي التي اتخذت من عدو الإنسانية وليا من دون اللــه سبحانـه وتعالى. ويبـدو ذلـك بوضـوح في الآيات القرآنية الحكيمة

التاليـــــة:

قال تعالى:

«وإن تُطِع أكثَرَ مَن في الأرضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبيلِ اللهِ إن يَتَّبِعونَ إلاَّ الظَّنَّ وإن هُم إلاَّ يَخرُصونَ» (١)

قال تعالى:

«وَلَقَد صَرَّفنا لِلنَّاسِ في هَذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكثَرُ النَّاس إلاَّ كُفُوراً» (٢)

قال تعالى:

«إنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لا رَيبَ فِيها وَلَكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنُونَ» (٣)

قال تعالى:

«وأنِ احكُم بَينَهُم بِما أَنزَلَ اللهُ ولا تَتَّبِع أهواءَهُم واحذَرهُم أن يَفتِنوكَ عَن بَعضِ ما أَنزَلَ اللهُ إليكَ فإن تَوَلَّوا فاعلَم أنَّما يُريدُ اللهُ أن يُصيبَهُم بِبَعضِ ذُنوبِهِم وإنَّ كَثيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقونَ» (٤)

قال تعالى:

«وَما أَكثَرُ النَّاسِ وَلَو حَرَصتَ بِمُؤمِنِينَ» (٥)

قال تعالى:

«اللهُ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الليلَ لِتَسكُنوا فِيهِ والنَّهارَ مُبصِراً إنَّ اللهَ لَذو فَضلٍ على النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ» (٦)

لذلك فإن القسم الأكبر من الناس الذين صدفوا عن طريق الحق المبين واتبعوا شهواتهم وأهواءهم التي استخدمها إبليس وقبيله لإغواء الإنسان وإبعاده عن الصراط المستقيم سيكون مصيرهم في نارجهنم، ويشهد على ذلك قول الحق سبحانه وتعالى:

«وَلَقَد ذَرَأنا لِجَهَنَّمَ كَثيراً مِنَ الجِنِّ والإنسِ لَهُم قُلوبٌ لا يَفقَهُونَ بِها وَلَهُم أَعيُنٌ لا يُبصِرونَ بِها وَلَهُم آذانٌ لا يَسمَعونَ بِها أُولَئِكَ كالأنعامِ بَل هُم أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغافِلونَ» (٧)

١ - سورة الانعام، آيه - ١١٦.
٢ - سورة الاسراء، آيه - ٨٩.
٣ - سورة غافر، آيه - ٥٩.
٤ - سورة المائدة، آيه - ٤٩.
٥ - سورة يوسف، آيه - ١٠٣.
٦ - سورة غافر، آيه - ٦١.
٧ - سورة الاعراف، آيه - ١٧٩.

قال تعالى:

«وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» (١)

«أكثر من الشيء أو الفعل واستكثر منه إذا أتى بالكثير، واستكثار الجن من الإنس ليس من جهة أعيانهم فإن الآتي بأعيانهم في الدنيا والمحضر لهم يوم القيامة هو الله سبحانه، وإنما للشياطين والاستكثار مما هم مسلطون عليه وهو إغواء الإنس عن طريق ولايته عليهم وليست بولاية إجبار واضطرار بل من قبيل التعامل بين الطرفين يتبع التابع المتبوع ابتغاء لما يرى في اتباعه من الفائدة ويتولى المتبوع امر التابع ابتغاء لما يستدر من النفع في ولايته عليه وإدارة شؤونه، فللجن نوع التذاذ من إغواء الإنس والولاية عليهم، وللإنس نوع من التذاذ من اتباع الوساوس والتسويلات ليستدروا بذلك اللذائذ المادية والتمتعات النفسانية. وهذا هو الذي يعترف به أولياء الجن من الإنس بقولهم : ربنا استمتع بعضنا ببعض فتمتعنا بوساوسهم وتسويلاتهم من متاع الدنيا وزخارفها، وتمتعوا منا بما كانت تشتهيه أنفسهم حتى آل أمرنا الى ما آل اليه» (٢)

وهناك حقيقة هامة لابد من الإشارة اليها وهي أن العلاقة بين الفئتين أو النوعين من النفس الإنسانية علاقة تبادليه ومستمرة، فالنفس الأمارة بالسوء قد تعدل عن مسارها الخاطئ وتتبع طريق الحق والنور فتصبح هذه النفس لوامة بالدنيا ومطمئنة في الآخرة اذا ما فارقت الحياة الدنيا وهي مستقرة على سبيل الرشد والهداية وعلى هذا الأساس كانت مهمة الأنبياء والرسل وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور كما أن مهمة الدعاة هي توضيح سبل الحق للناس وتحريرهم من طرق الضلالة وتوجيههم إلى طريق الحق والنور.

وفي المقابل قد نجد نفوسا مؤمنة قد تركت الايمان وذهبت الى طريق الغي والضلال مدبرة عن الحق بعد أن عاشت في ظلاله لتصبح نفسا أمارة بالسوء بعد أن كانت وهي جاثمة على طريق الخير نفسا لوامة، ودليل ذلك يكمن في مخاطبة الحق

١ - سورة الانعام، آيه - ١٢٨.

٢ - السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، المجلد السابع، ١٩٧١ ص٣٥٢.

سبحانة وتعالى للذين كفروا بعد إيمانهم في الأيات القرآنية الحكيمة التالية:

قال تعالى:

«... وَمَن يَتَبَدَّلِ الكُفرَ بِالإِيمانِ فَقَد ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» (١)

قال تعالى:

«إِنَّ الذِينَ كَفَروا بَعدَ إِيمانِهِم ثُمَّ ازدَادُوا كُفراً لَّن تُقبَلَ تَوبَتُهُم وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ» (٢)

قال تعالى:

«لا تَعتَذِروا قَد كَفَرتُم بَعدَ إِيمانِكُم إِن نَّعفُ عَن طائِفَةٍ مِّنكُم نُعَذِّب طائِفَةً بِأَنَّهُم كَانُوا مُجرِمِينَ» (٣)

وفي ضوء ما اوردنا من حقائق حول قضية أنواع النفس الإنسانية يجب على العلماء والباحثين أن يميزوا بين النوعين عند الشروع بدراساتهم الإنسانية حول الإنسان من أجل الوصول إلى حقيقة الأمر والهدف المنشود الذي تسعى اليه الدراسة. هذا بجانب تسهيل مهمة تعميم نتائج الدراسات لتشمل فقط نوع الفئة التي أجريت عليها الدراسة وليس تعميمها على الناس كافة أو على كلا النوعين من الناس. لأننا وجدنا أن هناك تفاوتا كبيرا بين النوعين من حيث الاعتقاد وأنماط السلوك والصفات العامة التي تميز كل نوع بالرغم من وحدة الصفات التشريحية والفسيولوجية بين الطرفين.

القضية السابعة - الذات الإنسانية وقدراتها الذاتية

هناك نوعان من القوى في هذا الوجود، قوة مطلقة وهي التي تنفذ إلى كل ما تريد ولا يحول أمام إرادتها أي حاجز أو مانع لأنها تستطيع أن تفعل كل ما تشاء، ولا تستطيع أن تقف أمام هذه القوة أي قوة أخرى، وهذه القوة بحكم العقل والمنطق واحدة لا يجوز تعددها، لأن تعددها ينفي عنها صفة الطلاقة في الفعل والإرادة لما ينتج من اختلاف في الارادة بين القوى في حالة تعددها، لذلك فإن القوة المطلقة هي واحدة، وهي الذات الإلهية، لذلك جاء وصف الحق سبحانه وتعالى لذاته بأنه أحد، ولم يضاهه أحد، والقادر على كل شيء حيث يقول له كن فيكون.

أما بالنسبة إلى النوع الثاني فهي القوة المقيدة وهي التي تجسد فيها من قدرات ما يوصلها إلى حد معين لا تستطيع أن تتعداه، لذلك فهي مقيدة بحكم

١- سورة البقرة، آيه ١٠٨.

٢- سورة آل عمران، آيه ٩٠.

٣- سورة التوبة، آيه ٦٦.

طبيعتها. وهذا النوع متعدد لأن جميع المخلوقات التي نعرفها أو لانعرفها ركبت فيها قدرات معينه تجعلها قادرة على القيام بأعمال معينة محددة، وهناك من الأمور والأعمال التي لا تستطيع أن تصل اليها بحكم قدراتها المقيدة، ويعد الإنسان إحدى هذه القوى المقيده لإنه مخلوق من مخلوقات الحق سبحانه وتعالى، وكل ما هو مخلوق يعد محدود القدرة والطاقة. لذلك جاء وصف الحق سبحانه وتعالى للإنسان بأنه مخلوق ضعيف، وجهول، وظلوم، ويبدو ذلك واضحا جلياً في قول الباري عز وجل في الآيات التالية:

قال تعالى:

«واللهُ يُريدُ أن يَتُوبَ عَلَيكُم وَيُريدُ الذينَ يَتَّبِعونَ الشَّهَواتِ أن تَميلُوا مَيلاً عَظيماً* يُريدُ اللهُ أن يُخَفِّفَ عَنكُم وَخُلِقَ الإنسانُ ضَعيفاً» (١)

«كون الإنسان ضعيفا لما ركب الله فيه من القوى الشهوية التي لا تزال تنازعه في ما تتعلق به من المشتهيات، وتبعثه إلى غشيانها فمن الله عليهم بتشريع حليه ما تنكسر به سورة شهوتهم بتجويز النكاح»(٢)

«فماذا يريد الله بالناس، حين يبين لهم منهجه، ويشرع لهم سنته؟ إنه يريد أن يتوب عليهم، يريد أن يهديهم، يريد أن يجنبهم المزالق، يريد أن يعينهم على التسامي في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة، وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات، ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها الله، ولم يشرعها لعباده؟ إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلا عظيما عن المنهج الراشد، والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم»(٣)

قال تعالى:

«إنَّا عَرَضنا الأمانَةَ على السَّمٰواتِ والأرضِ والجِبالِ فأبَينَ أن يَحمِلنَها وأشفَقنَ مِنها وَحَمَلَها الإنسانُ إنَّهُ كانَ ظَلوماً جَهولاً» (٤)

«إنها امانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم، القليل القوة، الضعيف الحول، المحدود العمر، الذي تناوشه الشهوات والنزعات والميول والأطماع. وإنها لمخاطرة أن يأخذ على عاتقه هذه التبعة الثقيلة. ومن ثم «كان ظلوما»

---

١ - سورة النساء، آيه ٢٧ - ٢٨.

٢ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، الجزء الرابع، ١٩٧٤، ص٢٨٢.

٣ - سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء الثاني، دار الشروق، ١٩٨١، ص٦٣١.

٤ - سورة الاحزاب، آيه ٧٢.

لنفسه «جهولا» لطاقته هذا بالقياس الى ضخامة ما زج بنفسه لحمله» (١)

ومن دلائل ضعف الإنسان أن الحق سبحانة وتعالى عندما أمر بهبوطه مع عدوه الأشر إبليس، وعده الحق سبحانه وتعالى أن يبعث له هدى يقوده إلى طريق الحق والنور، ويحرره ويشد من ساعده في مقاومة عدوه اللدود.

قال تعالى:

«قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى* وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى» (٢)

وقد بين الحق سبحانه وتعالى حاجة الأنسان إلى خالقه وغنى الخالق عن مخلوقاته، لأن المطلق لا يحتاج إلى عون مقيد، والمقيد لا بد من أن يحتاج عون غيره، وبالذات القوة المطلقة.

قال تعالى:

«يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» (٣)

ان الحجج الكبرى التي توضح عجز الإنسان، ومدى قصوره، ومحدودية وسائله والابعاد التي يستطيع أن ينفذ اليها- تبرز بوضوح وجلاء في تحدي الحق سبحانه وتعالى للذين يقاومون ويعارضون نهج الحق والحقيقة وينكرون وجود الله، ويشككون في كتابه الحكيم ومصدره. إنه سبحانه وتعالى تحداهم بطريقة تدل على ضعفهم، وعلى اتباعهم سبل الشهوة والضلالة، وابتعادهم عن طريق الحق والنور. وهذا التحدي بدأ في السابق، وما زال قائما، وسيبقي في المستقبل. وهذا جميعه يدل على ضعف الإنسان ومصداقية القرآن وكمال مصدره الإلهي، والآيات التالية تبين بوضوح التحدي الإلهي الساطع للإنسان.

قال تعالى:

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» (٤)

١ - سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء الخامس، دار الشروق، ١٩٨١، ص٢٨٨٥.
٢ - سورة طه آيه- ١٢٣ - ١٢٤.
٣ - سورة فاطر آيه-١٥.
٤ - سورة هود آيه ١٣.

قال تعالى:

«وإن كُنتُم في رَيبٍ مّمّا نَزَّلنا على عَبدِنا فَأتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثلِهِ وادعُوا شُهَداءَكُم مِّن دونِ اللهِ إن كُنتُم صادِقِينَ» (١)

قال تعالى:

«أم يَقولونَ افتَراهُ قُل فَأتُوا بِسُورَةٍ مِّثلِهِ وَادعُوا مَنِ استَطَعتُم مِّن دُونِ اللهِ إن كُنتُم صادِقِينَ» (٢)

القضية الثامنة – الذات الإنسانية وحب الشهوات

بين الحق سبحانه وتعالى لنا حقيقة الإنسان على أنه مركب من مجموعة من الشهوات والحاجات التي تدفعه باستمرار إلى القيام بأنماط سلوكية معينة لاشباع تلك الشهوات والحاجات التي جبلت عليها الذات الإنسانية، ومن طبيعة الذات الإنسانية أنها تحب الشهوات وهذا الحب لها يبدو بوضوح في قوله تعالى:

«زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ والبَنِينَ والقَناطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والخَيلِ المُسَوَّمَةِ والأنعامِ والحَرثِ ذلِكَ مَتاعُ الحَياةِ الدُّنيا واللهُ عِندَهُ حُسنُ المَآبِ» (٣)

هذا بالإضافة إلى أن الحق سبحانه وتعالى قد زين الحياة الدنيا بجميع الأمور التي تشد الإنسان نحوها ليقرر سبحانه وتعالى طبيعة ونوع الاختبار الذي جسده في الحياة الدنيا ليختار الإنسان سبيله وفق الهدف الذي خلق من أجله، والفطرة التي فطر عليها، وحرية الاختيار، وجانبي التقوى والفجور الموجودين داخل النفس الإنسانية، وحب الشهوات، وزخارف الدنيا ومفاتنها، وسبيل الحق والنور التي وضحها الله سبحانه وتعالى للبشر من خلال رسله وكتبه. وفي ضوء اختيار الإنسان في دار الفناء لإحدى السبيلين يتحدد مصيره في دار الخلود.

قال تعالى:

«إنَّا جَعَلنا ما على الأرضِ زِينَةً لَّها لِنَبلُوَهُم أيُّهُم أحسَنُ عَمَلاً» (٤)

ومن المؤسف حقا أن أغلب الناس قد فهموا حقيقة وجودهم في هذا الكون على قاعدة إشباع شهواتهم بأية طريقة، حتى أصبحت الحياة المادية الحديثة هـــي

---

١ – سورة البقرة، آيه ٢٣.

٢ – سورة يونس، آيه – ٣٨.

٣ – سورة آل عمران، آيه ١٤.

٤ – سورة الكهف، آيه ٧.

كل شيء في نظر هؤلاء، فالآمال، والطموحات، والأهداف، والأمنيات، جميعها لا تتعدى إشباع شهواتهم وفق أي قانون أو نظام، كما أصبحت شتى المقاييس، والمعايير، والقيم، والأخلاق تقاس بمقدار تلبية تلك الشهوات والرغائب، حتى الدراسات الاجتماعية والنفسية للإنسان ما زالت تدور حول الحاجات المادية للإنسان أما بالنسبة للذين أنابوا واستجابوا للهدى الذي بعثه الحق سُبحانه وتعالى، وهم يمثلون النسبة القليلة من الناس، فانهم يلبون هذه الحاجات الشهوية بالطرق والوسائل التي بينها الحق سبحانه وتعالى من خلال نهجه المنير الذي بعثه لنا هدى ورحمة عن طريق رسله وأنبيائه، وبهذا تنكسر حدة هذه القوى الشهوية عن طريق الحلال الذي بينه سبحانه وتعالى في الحياة الدنيا، ومن ثم يلاقون ما هو أفضل واسمى من الشهوات في انتظارهم في دار السلام والخلود.

قال تعالى:

«قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» (١)

القضية التاسعة – الذات الإنسانية والموت

تعد قضية الموت من أكثر القضايا التي شغلت الإنسان عبر تاريخه وكانت وما زالت مبعث حيرته، فهي كالسيف المصلت على رقاب كافة الناس، حيث استحال على الإنسان الفرار من تجربة الموت. فهي تجربة يجب ان يخوضها كل من وهب الحياة، فهذا الأمر فيه قرار إلهي قطعي جازم، ويبدو ذلك واضحا في قوله تعالى:

«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» (٢)

قال تعالى:

«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» (٣)

---

١ - سورة ال عمران، آيه ١٥.

٢ - سورة ال عمران، آيه ١٨٥.

٣ - سورة الانبياء، آيه ٣٥.

القضية العاشرة والأخيرة - الذات الإنسانية والبعث والخلود

تعد قضية البعث والخلود من المسائل الكبرى التي أثارت اهتمام الإنسان عبر تاريخه المديد، لما لهذه القضية من آثار واسعة النطاق على معتقدات الإنسان وأنماط سلوكه في الحياة الدنيا. وإذا ما تأملنا تاريخ البشر مع أنبياء الحق سبحانه وتعالى نجد هذه القضية قد أخذت مكانا بارزا وأساسيا في مادة النقاش والحوار الذي كان يجري بين الطرفين.

كما أننا نلاحظ أن اغلب الناس كانوا يكذبون الأنبياء والرسل بمختلف الطرق والأساليب بما يتصل من معلومات حول قضية البعث والخلود، ومن المؤسف جدا أن اغلب الناس في الوقت الحاضر هم في شك، وريبة، وإنكار لقضية البعث والخلود، ولكن الذي خلق الوجود بكل ما فيه من مخلوقات يبين لنا حقائق تلك القضية، وسوف نختار نماذج من الأيات القرآنية الحكيمة لكثرتها لتوضح لنا الحقائق المتصلة بالبعث والخلود.

قال تعالى:

«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ» (١)

قال تعالى:

«يَومَ يَخرُجُونَ مِنَ الأَجدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُم إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ* خَاشِعَةً أبصارُهُم تَرهَقُهُم ذِلَّةٌ ذَلِكَ اليَومُ الذي كَانُوا يُوعَدُونَ» (٢)

قال تعالى:

«وَأُزلِفَتِ الجَنَّةُ لِلمُتَّقِينَ غَيرَ بَعِيدٍ* هَذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ* مَّن خَشِيَ الرَّحمَنَ بِالغَيبِ وَجَاءَ بِقَلبٍ مُّنِيبٍ* ادخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَومُ الخُلُودِ» (٣)

قال تعالى:

«والذينَ كَفَروا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولَئِكَ أَصحابُ النَّارِ هُم فِيها خَالِدُونَ» (٤)

---

١ - سورة الزمر، آيه -٦٨.
٢ - سورة المعارج، آيه ٤٣ - ٤٤.
٣ - سورة ق، آيه ٣١ - ٣٤.
٤ - سورة البقرة، آيه ٣٩.

وخلاصة القول إن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان في هذه الصورة البديعة الفريدة وميزه عن سائر مخلوقاته بحرية الاختيار بعد أن وهبه الملكة العقلية، وبين له الهدف الأسنى من خلقه وهو التوجه بالعبادة إلى الباري عز وجل، وفطره على دين التوحيد، كما ركب فيه جانبي الخير والشر، وبين له سبيل الحق وسبل الضلاله يختار الإنسان بكامل إرادته، بين السبيل المؤدية الى الحق وسدرة الصواب، والسبيل المؤدية الى الضلالة والخسران المبين، كما زين الحق سبحانه وتعالى للذات الإنسانية حب الشهوات المتعلقة بالحياة الدنيا. وفي ضوء هذه المعطيات جميعا يخوض الإنسان تجربة الحياة التي تعد الاختبار الدقيق الذي سوف يجتازه جميع الناس إما بالفوز المبين وإما بالخسران العظيم.

كما تبين أن النفوس البشرية كافة سوف تخوض تجربة الموت ومن ثم تجربة البعث للثواب والعقاب وأخيرا سيجد الإنسان مصيره الخالد إما في دار السلام والخلود وإما في نارجهنم.

كذلك أن هناك نوعين من الذات الإنسانية، يتميز كل نوع عن الآخر بالمعتقدات الأساسية، والأنماط السلوكية، وأغلب القضايا الاجتماعية، هذا مع التشابه التام بينهما في الأمور التشريحية والفسيولوجية، وهذه القضية بالذات يجب أن تراعى من قبل الباحثين في مجال الدراسات الإنسانية سواء في علم الاجتماع، أو علم النفس، أو شتى المجالات التربوية، أو المجالات السياسية، أو المجالات الاقتصادية، أو المجالات الثقافية، لأن لكل نوع من أنواع الذات الإنسانية أهدافه العامة التي يسعى إلى تحقيقها في الحياة الدنيا، وهذه الأهداف العامة انبثقت من المعتقدات الأساسية لكل نوع، وهذا هو سر الاختلاف.

وهناك ملاحظة هامة لابد من الإشارة إليها وهي أننا تطرقنا في هذه الدراسة فقط إلى أهم القضايا المتصلة بطبيعة الذات الانسانية وليس الى جميع القضايا المتعلقة بالذات الإنسانية لصعوبة بحثها جميعا في دراسة واحدة.

المراجع العربية

١- ابراهيم الشافعي، الاشتراكية العربية كفلسفة للتربية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١.

٢- احمد علي الفنيش، اصول التربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٢.

٣- اريك فروم، الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، مكتبة غريب، القاهره، ١٩٧٧.

٤- الكسيس كارل، الانسان ذلك المجهول، تعريب شفيق اسعد، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨٣.

٥- توفيق الطويل، اسس الفلسفة، دار النهضة، القاهرة.

٦- حامد عبد السلام زهران، علم نفس النمو، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٧.

٧- سعدية بهادر، من انا؟ البرنامج التربوي النفسي لخبرة من انا الموجهة لاطفال الرياض بين النظرية والتجربة، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٨٣.

٨- سيد ابراهيم الجيار، التوجيه الفلسفي والاجتماعي للتربية، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٧٨.

٩- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ١٩٨١.

١٠- عبد الرحمن حسن الميداني، الاخلاق الاسلامية واسسها، الطبعة الاولى، دار القلم، بيروت، ١٩٧٩.

١١- عمر الشيباني، مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٧٥.

١٢- فيصل بدير عون، الفلسفة الاسلامية في المشرق، مكتبة الحرية الحديثة، القاهرة، ١٩٨٢.

١٣- فيليب فينكس، فلسفة التربية، ترجمة وتقديم الدكتور محمد لبيب النجيحي، دار النهضة العربية، ١٩٦٥.

١٤- محمد ابو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، مكتبة دار المعرفة، الاسكندرية، ١٩٨٦.

١٥- محمد جمعة، تاريخ فلاسفة الاسلام في المشرق والمغرب، مكتبة المعارف، مصر، ١٩٢٧.

١٦- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٩٧١.

١٧- محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، الطبعة الاولى، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢.

١٨- محمد لبيب النجيحي، مقدمة في فلسفة التربية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢.

١٩- ميخائيل اسعد، ومالك مخول. مشكلات الطفولة والمراهقة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢.

المراجع الاجنبية

1_ Gersild, A.T. The psychology of Adolesence. 2nd Ed. New york. The Macmillan Company, 1963.

2_ Burns, J.S. The self concept in theory, meeasurement, development, and behavior. New york, Longman, Inc. 1979.

3_ John S. Brubacher, Modern philosophies of Education . New york: MC Graw_ Hill Book , Inc. 1969.

4_ Philips H. phenix, Realms of Meaning. New york: MC Graw _ Hill Book Company, Inc. 1964.

5_ Robert E. Mason, Contemporary Educational Theory. New york: David MC kay Company, , Inc. 1972.

الفصل الرابع

العلاقة بين المشيئة الإلهية وحرية الإنسان

العلاقة بين المشيئة الالهية وحرية الانسان

هدفت الدراسة الى توضيح العلاقة بين المشيئة الالهية وحرية الانسان في الاختيار بين الخير وبين الشر، وما يقوم به من أعمال وأفعال في ضوء اختياره.

لقد تم طرح كافة الآراء السابقة حول هذا الموضوع، وبالذات قول الجبرية والقدرية، والأشاعرة، والإمامية. فالجبرية تؤمن أن الانسان مجبور على أعماله وأفعاله، والقدرية تعتقد بالتفويض، والأشاعرة يقولون بفكرة الكسب وهي أقرب ما تكون الى الجبرية، أما الإمامية فيقولون لا جبر ولا تفويض ولكنه أمر بين الأمرين.

وقد خلصت الدراسة الى حقيقة مفادها أن كل شيء يحدث في الوجود لا يتعدى مشيئة الله، أي السماح له بالحدوث وليس الاجبار على حدوثه.

كما أفادت الدراسة أن علم الله سبحانه وتعالى أزلي وأنه لا يفاجيء في شيء، فهو يعلم حدوث الأشياء قبل وقوعها، ويقرر في ضوء علمه كل شيء في الوجود. أما بالنسبة الى الانسان فإنه يسعى نحو الخير وسبله ونحو الشر وسبله بملء ارادته دون أي اجبار أو اكراه بالرغم من علم الله سبحانه وتعالى السابق لوقوع الأحداث ماذا سيختار الانسان. فهذا العلم يدل فقط على قدرة الله وعلمه تعالت وجلت قدرته.

العلاقة بين المشيئة الإلهية وحرية الإنسان

مقدمة:

لقد حاول الإنسان منذ فجر تاريخه أن يبحث في القضايا التي تربطه بالوجود سواء المتصلة بالوجود الفيزيقي أم المتصل منها بالوجود الميتافيزيقي. وبعد أن بذل الجنس البشري الجهد الكبير في الحديث والبحث والتأمل في موضوع الذات الإلهية، ذهب بكل قوة وعزم عن طريق التحليل والدراسة للوصول إلى نوع العلاقة بين الذات الإلهية وما لها من قدرات وصفات وبين الإنسان وحرية إرادته في هذا الوجود.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنماط الاعتقاد والسلوك المتباينة المترتبة على حقيقة موضوع الدراسة وما لها من آثار واسعة النطاق على كافة المعتقدات الإنسانية والأنماط السلوكية للإنسان في شتى أموره الحياتية على اختلاف النظم والمدارس الفكرية المتبعة. لذلك فإن موضوع الدراسة كان وما زال محطة أنظار الباحثين والعلماء والفلاسفة على إختلاف مشاربهم الفكرية.

«لم تكن مسألة القضاء والقدر شيئاً جديداً بحثها المعتزلة أو غيرهم من المتكلمين، لأن الفلاسفة اليونانيين قد سبقوهم بذلك وبحثوا أفعال العباد، وأطلقوا على ذلك: مسألة «القضاء والقدر» أو «الإختيار والجبر» أو «حرية الإرادة» وهذه التسميات كلها في معنى واحد، وهو أن كل ما يحدث من الإنسان من أفعال هل هو حر في إحداثها أم مجبور في ذلك»(١).

«تعد مشكلة الجبر والاختيار من أهم المشاكل التي واجهها المفكرون الاسلاميون على اختلاف مشاربهم، لأنها ترتبط بالمسؤولية والجزاء، بالثواب والعقاب، ترتبط بالسلوك الاخلاقي وتحديد الحرية الانسانية، وموقف الانسان في هذا العالم»(٢).

---

١ - عبد الحليم قنبس وخالد عبد الرحمن، مسألة القضاء والقدر، دمشق، ١٩٧٩، ص٣١.

٢ - د. فيصل بدير عون، الفلسفة الاسلامية في المشرق، مكتبة الحرية الحديثة، جامعة عين شمس، ١٩٨٢، ص٣٦٣.

«إن مسألة الجبر والتفويض لهي من أهم المسائل النظرية وأقدم المعتقدات التي وقعت محلا لمعركة الآراء وضلت لشدة غموضها العقول والأفكار، وهي من أهم الأسباب لتشعب المذاهب وتعدد الفرق، والموجب لتكفير أمة اختها رغم الروابط الدينية التي تربطها من جهة اخرى، وقد ملأت جانباً عظيماً من كتب التأليف والتصنيف، ونالت حظاً وافراً من البحث والتدريس والجدل عند الفلاسفة والسالكين مسلكهم قبل الاسلام»(١).

لذلك فإن المساهمة العلمية في موضوع هذه الدراسة يساعد الانسان على فهم علاقته بخالقه ومكانته في الكون، هذا بجانب المساعدة في إزالة بعض الخلافات الفكرية بين المذاهب والفرق الاسلامية حول هذا الموضوع الهام.

الدراسات السابقة:

نظراً لكثرة الدراسات السابقة للانسان حول هذا الموضوع على اختلاف المذاهب الفكرية والمدارس الفلسفية التي سلك في ضوئها الانسان، فإننا سوف نكتفي بعرض الدراسات والآراء التي تبين بوضوح الآراء كافة حول هذا الموضوع، دون اللجوء الى الإشارة لكافة الدراسات بهدف الابتعاد عن التكرار الممل.

«يرى الابيقوريون أن الإرادة حرة في الاختيار، والانسان يفعل جميع الأفعال بإرادته واختياره دون إكراه»(٢).

«يرى الرواقيون أن الإرادة مجبرة على السير في طريق لا يمكنها ان تتعداها، والانسان لا يفعل شيئاً بإرادته، وإنما هو مجبر على فعل أفعاله»(٣).

إن هذا الرأي اليوناني المتفاوت حول موضوع الجبر والإختيار عند الانسان قد أثر بشكل قوي على آراء المسلمين وكتابهم كما سنلاحظ في الاقتباسات التي تمثل آراءهم حول هذا الموضوع.

أما بالنسبة إلى موضوع الجبر «فقد ذهب إليه جماعة كبيرة من هذه الأمة، وعلى الأخص المتصوفون؛ وقد اطلق عليها اسم الجبرية، ومنشأ فهم هؤلاء

١- محمد جواد مغنية، الشيعة في الميزان، دار التيار الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة العاشرة، ١٩٨٩، ص٢٧٤.

٢- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، ص٢١٩.

٣- المصدر السابق، ص٢٢٩.

لهذه القضية يعود إلى أناس اختلط عليهم الفهم بين واقع القدر، وبين ما ينتج عنه من التسليم به، ونسيان واقع القدر، والاقتصار على ما ينتج عنه من التسليم. فمن جراء هذا الاختلاط وعدم التمييز الدقيق بين المعنيين أو الواقعين نشأت الجبْرية»(١).

وقد أورد الشهرستاني تعريفاً للجبرية والجبر وتوضيحُ أصنافها. «الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد، وإضافته إلى الرب تعالى. والجبرية أصناف:

١ - فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا.
٢ - والجبرية المتوسطة أن تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة»(٢).

«إن أول من قال بالجبر معاوية بن أبي سفيان، وقال: كل ما يأتيه من الله بقضائه وخلقه، وأن الله جعله إماماً، وولاه الأمر، وتبعه على ذلك ملوك بني أمية، وذلك كي يكون لهم عذر فيما يفعلونه»(٣).

«يقول الجبريون، إن الخالقية المطلقة لله توجب أن لا يكون أحد من الناس خالقاً آخر. فلو قلنا أن الانسان يوجد عمله، قبلنا خالقية الانسان، هذه القاعدة مأخوذة من الأصل القائل» لا مؤثر في الوجود إلا الله» أي أنه لا يوجد من يخالفه وإذا اعتبرنا مصداقية هذا القول، فكيف نستطيع القول بأن الانسان يوجد عمل الله، والانسان في جميع أعماله مجبور؟ ولعل هذا التعليل للأصل مشتق من مفهوم الآية الشريفة «والله خلقكم وما تعملون» -.» (٤).

«لقد عالج ابن سينا مشكلة الجبر والاختيار في مواضع متفرقة من كتبه، لكن نظراً لأهميتها فقد خصص لها رسالة هي «رسالة القدر» وفي رسالته يرد على كل شيء، يقع من الانسان أو يقع للانسان إلى الله سبحانه وتعالى. فهو يقول بالتدبير الإلهي الشامل للكون، وهذا التدبير لا يخرج عنه موجود من الموجودات. فالعالم الذي نحيا فيه عالم محكم أتقن صنعه خالقه. فليس ثمة صدفة أو اختيار، بل ضرورة شاملة، فكل شيء يرد إلى المشيئة الإلهية»(٥).

١ - عبد الحليم قنبس، مصدر سابق، ص ١١٦ - ١١٧.
٢ - الشهرستاني، الملل والنحل، الجزء الاول، ص١٠٨.
٣ - المغني، الجزء الثامن، ص٤.
٤ - الشيخ الركابي، خطاب الحرية في النظام الابيستمولوجي، دار النهضة الاسلامية، بيروت، لبنان، ١٩٩٠، ص٢٨٣.
٥ - د. فيصل بدير عون، مرجع سابق، ص٣٦٣.

«وبذلك أصبح الجبريون ينسبون للقدر المعصية مع الطاعة، والقبيح مع الحسن، والشر مع الخير، والرذيلة مع الفضيلة، من غير تمييز ولا إدراك حتى نتج عن ذلك القعود عن عظائم الأعمال، وعدم اقتحام الصعوبات والاستسلام المطلق لكل ما يحدث وما يجري من خير أو شر، لأنه في نظرهم مقدور لا يقدر على دفعه إلا الله تعالى، فمن هذا المعتقد الخطأ الذي نتج عن سوء الفهم لحقيقة الايمان بالقدر الذي أمرنا به؛ فقد جر على الأمة أخطر الويلات وأوقع بلاداً بأسرها بأفظع النكبات»(١).

«لا شك في أن الجبرية... لها آثارها السيئة الكثيرة: إذ تشل روح الانسان وإرادته عن أي تأثير. وهي الفكرة التي شدت من عضد الأقوياء الظالمين في نفس الوقت الذي قيدت فيه أيدي الضعفاء والمظلومين. فذلك الانسان الذي سيطر على منصب أو ثروة عامة بطرق غير مشروعة يتحدث عن المواهب الإلهية التي اختصه الله بها وغمره بنعمته بعد أن حرم الضعفاء منها وغمرهم في بحر من الآلام والعذاب. وذلك الذي حرم من مثل هذه المواهب لا يسمح لنفسه أن يعترض، وإلا كان ذلك اعتراضاً على (النصيب والقسمة) و (التقدير الإلهي) وهو أمر يتطلب الصبر والرضاء والشكر لا الاعتراض. فالظالم يرفع عنه مسؤولية أعماله بحجة القضاء والقدر، وباعتبار أنه- أي الظالم- يد الله ويد الله لا تقبل أي طعن فيما تعمل. وبنفس هذا الدليل يتحمل المظلوم كل أنحاء الظلم لأنه يرى أن كل ما يرد عليه إنما هو- وبصورة مباشرة- من الله. فهو آيس من نتيجة أي مقاومة. وهل يمكن مقاومة القضاء والقدر؟ أم هل يمكن فك قبضة الغيب القوية؟ هذا مع أن ذلك يتنافى والمستوى الأخلاقي للمسلم، إذ هو خلاف صفة الرضا والتسليم»(٢).

بينما نجد الرأي المقابل للجبرية يتجسد في اعتقاد المعتزلة حيث قالوا «إن صدور العمل عن الانسان إما بتأثير قدرته أو أن عمله يصدر دون دخل لقدرة اللـه، إذ أن إرادة الانسان للقيام بالعمل لا تحتاج لداعي»(٣).

١- عبد الحليم قنبس، مصدر سابق، ص١١٩.

٢- مرتضى المطهري، الانسان والقضاء والقدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٨، ص٥٦- ٥٧.

٣- الشيخ الركابي، مصدر سابق، ص٢٨٠.

كما أشار الملطي إلى أن القدرية يزعمون أن الحسنات والخير من الله. والشر والسيئات من أنفسهم. لكي لا ينسبوا إلى الله شيئاً من السيئات والمعاصي »(١).

«قال المعتزلة والإمامية: إن أفعال العبد نوعان: نوع تتعلق به إرادة واختيار، كالذهاب والإياب، والكتابة والقراءة. ونوع لا إرادة للعبد فيه ولا اختيار كالتنفس والنمو والحركة الدموية. والانسان مخير غير مسير في النوع الأول، ومسير غير مخير في النوع الثاني »(٢).

وقد استدل أصحاب هذا الاتجاه بالأمور التالية (٣):

١ – كل انسان يشعر من نفسه أنه يؤدي أعماله اليومية باختياره كالذهاب إلى المكتب أو الحقل أو المصنع أو السوق، وما إلى ذلك من الأفعال التي إن شاء فعلها، وإن شاء تركها.

٢ – لو كنا مكرهين على كل فعل لم يبق فرق بين من أحسن وأساء مع أن الطفل يميز بين من يعطيه الحلوى ومن يؤلمه، وينفر من هذا، ويقرب من ذاك. ولو كانت الأفعال كلها من الله لكانت على نسق واحد لا إساءة فيها ولا إحسان، ولا خير ولا شر.

٣ – لو كانت الأفعال صادرة من الله لقبح منه التكليف، ولانسد باب الأمر والنهي، والثواب والعقاب.

٤ – لو لم نكن فاعلين لكان الله ظالماً للعباد، يخلق فيهم المعاصي ثم يعاقبهم عليها.

«إن أدلة المعتزلة لا تخرج عن قياس الله تعالى على الانسان وعن قضايا منطقية ومقدمات ونتائج، وليست أدلة عقلية مبنية على الإدراك مأخوذة من الواقع المحسوس أو من دلالات النصوص القرآنية حسب فهم اللغة، فبني رأيهم في مسألة القضاء والقدر على هذا الوجه من الاستدلال، ولهذا كان خطأ، لأن ما بني عليه من الأساس كان خطأ، وحين جاء خصومهم جعلوا رأي المعتزلة أساساً للرد وليس العقل ولا الكتاب والسنة، ولهذا كان كذلك خطأ، وظلوا جميعاً يدورون في دوامة القضاء والقدر على أساس خاطئ من الاستدلال، فكان رأياً خاطئاً »(٤)

---

١ – الملطي، التنبيه، ص١٢٩.

٢ – محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الاسلامية، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣، ص١١٩.

٣ – محمد جواد مغنية، المصدر السابق، ص١٢٠.

٤ – عبد الحليم قنبس، مصدر سابق، ص٢٠.

ومنذ منتصف القرن الأول حين وجد المسلكان الفكريان في هذه المسألة، نهضت جماعة تؤيد حرية الانسان واختياره فأولت الآيات القرآنية التي تدل على رأيها وعرفت بالقدرية، في حين أيدت جماعة أخرى جانب التقدير الغيبي الصارم المتحكم فأولت الآيات القرآنية التي تدعم رأيها وعرفت بالجبرية (١).

«إن مسألة أفعال العباد من المسائل الرئيسية في مذهب الأشعري، وفيه أن أفعال العباد مخلوقة لله وليس للانسان فيها غير اكتسابها؛ أي: أن الفاعل الحقيقي هو الله، وما الانسان إلا مكتسب للفعل الذي أحدثه الله على يدي هذا الانسان» (٢).

أما رأي المتكلمين من أهل السنة فقد كانت لهم وجهة نظر أخرى حول هذا الموضوع يتضح أبعادها في ردهم على المعتزلة والجبرية حيث قالوا: إن الله تعالى أجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته، لا بقدرة العبد وإرادته، فهذا الإقتران هو الكسب، وقد أيدوا دليلهم العقلي هذا بالآيات القرآنية التي استدل بها الجبرية على رأيهم، وزادوا على ذلك ببعض الآيات الأخرى. وعدوا أنفسهم قد ردوا على المعتزلة والجبرية... غير أن المتفحص المدقق في آرائهم لا يتعدى ان يقول: ان رأي المتكلمين من أهل السنة متفق معنى ونتيجة مع رأي الجبرية، ومختلف لفظاً ومسلكاً. حتى أن مسألة «الكسب» لم يستطيعوا ان ينجحوا في التدليل عليها، فلا هي جارية على طريق العقل، إذ ليس لها برهان عقلي، ولا على طريق النقل، إذ ليس عليها دليل شرعي صريح، وانما هي محاولة - لا فائدة فيها - لتحقيق موقف بين رأي المعتزلة ورأي الجبرية» (٣).

ومعنى الكسب عند الأشاعرة أن للانسان قدرة على الفعل من دون شك، إذ نرى بالوجدان والعيان فرقاً بين المتكلم والأخرس، ولكن توجد إلى جانب قدرة الانسان هذه قدرة الله سبحانه، لأنه قادر على كل مقدور. وبما أنه لا يجتمع قادران على مقدور واحد فلا بد أن يستند الفعل إلى إحدى القدرتين: إما إلى قدرة الله وحدها وإما قدرة العبد وحدها. ولما كانت قدرة الله أقدم وأعم وأقوى أسند إليها الفعل. وإسناد الفعل إلى قدرة الله لا يستلزم انتفاء قدرة العبد عليه، بل هي موجودة ومقارنة لقدرته تعالى. وهذا الاقتران بالذات يقال له الكسب، وبه يصـــــح

١ - مرتضى المطهري، مرجع سابق، ص٥٢.

٢ - الدكتور عبد الرحمن بدوي، مذاهب الاسلاميين، الجزء الاول، ص٥٥.

٣ - عبد الحليم قنبس، مصدر سابق، ص٣٧ - ٣٨.

التكليف والثواب والعقاب، والمدح والذم، وبه ينزه الله عن الظلم، لأن قدرة العبد على الفعل متحققة في نفس الأمر والواقع»(١).

واستدل الأشاعرة على نظرية الكسب هذه بالأمور التالية:

١- ان فعل العبد مقدور لله، لأن قدرته تشمل كل شيء، وكل مقدور لله فهو خالقه، ينتج أن الله خلق فعل العبد.

٢- لو كان العبد فاعلا مختاراً لكان شريكاً مع الله، وهو محال.

٣- إن الله يعلم وقوع الفعل من العبد، وعلمه لا ينفك عن المعلوم وإلا لزم انقلاب علمه جهلا وهو محال»(٢).

وهناك رأي آخر حول هذا الموضوع وهو الرأي الذي سارت عليه الإمامية حيث لا جبر ولا تفويض ولكن الأمر بين الأمرين فيقولون إن أئمة الهدى عليهم السلام قد كشفوا لنا عن وجه الحق واهتدينا بكلامهم الى الحقيقة التي يستصوبها العقل، وهو حاكم بفساد الجبر والتفويض بالمعنى الذي نذكره لهاتين اللفظتين، وصحة الأمر بين الأمرين. وقد استفاضت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم قالوا «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين».

ونعني بالأمر بين الأمرين أن الله تعالى أقدر الخلق على أعمالهم ومكنهم من أفعالهم، فهم يملكون الاستطاعة، لكن هو المملك، ثم أمرهم بالخير، ونهاهم عن الشر، ووعدهم بالثواب على الأول، والعقاب على الثاني، فإذا فعل العبد الخير والطاعة فيسند هذا الفعل إلى الله تعالى، لأن العبد فعله بالقدرة التي ملكها من خالقه، ولأنه قد رضي وأمره به، وينسب أيضاً إلى العبد لأنه قد اختار الخير مع قدرته على الشر. وأما إذا اختار فعل الشر وأتى به العبد فإنه وإن فعله بالقدرة من الله تعالى إلا أنه مع ذلك لا ينسب الشر إلى الله، بل هو مستند إلى العبد وحده ولله الحجة عليه، حيث أنه لم يرض بفعل الشر، بل نهاه عنه. فالخير من الله تعالى لرضاه به وإقدار العبد عليه، حيث أقدره على الخير ولله الحجة لو فعل العبد الشر، لعدم الرضى»(٣).

١- محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الاسلامية، مصدر سابق، ص١٢١.

٢- محمد جواد مغنية، المصدر السابق، ص١٢١- ١٢٢.

٣- محمد جواد مغنية، المصدر السابق، ص٢٧٦- ٢٧٧.

إن من أبرز الأدلة التي استدلوا بها على هذا الرأي ما روي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لما انصرف من صفين قام إليه شيخ ممن شهد الواقعة معه، فقال يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا هذا أبقضاء من الله وقدر، فقال له أمير المؤمنين: (أجل يا شيخ فوالله ما علوتم تلعة ولا هبطتم بطن وادٍ إلا بقضاء من الله وقدر)، فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين، فقال: «مهلا يا شيخ لعلك تظن قضاء حتماً وقدراً لازماً، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والأمر والنهي والزجر، ولسقط معنى الوعد والوعيد، ولم تكن على مسيء لائمة ولا لمحسن محمدة، ولكان المحسن أولى باللائمة من المذنب، والمذنب أولى بالاحسان من المحسن، تلك مقالة عبدة الاوثان وخصماء الرحمن وقدرية هذه الامة ومجوسها. يا شيخ إن الله كلف تخييراً ونهى تحذيراً، واعطى على القليل كثيراً ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكروهاً، ولم يخلق السماوات والارض وما بينهما باطلا. ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار»(١).

«إن الخلاف الذي دار حول حرية الانسان قد لبس ثوباً فلسفياً بين الأطراف المتنازعة، في الوقت الذي كان كل طرف يتمسك بآيات الكتاب، ويسوقها مساق التأييد لرأيه... ولا شك أن هذا ينتهي - في كل ناحية - إلى تحميل آيات الكتاب ما لا تحتمل من المعاني التي يناقض بعضها بعضاً. كل يتعلق بكتاب الله، ويتمسح بآياته ليقيم لرأيه حجة ويقدم لمذهبه سنداً»(٢).

إن ظاهر الآيات الكريمة يدفع حيناً إلى اعتبار أن الإنسان حر ومسؤول عن حريته هذه. وحيناً توحي بعض الآيات بأن الانسان لا حول له فيما يقع عليه. إن متابعة دقيقة وشاملة لآيات القرآن الكريم تؤكد أن عدداً كبيراً من الآيات تدل على حرية الانسان وأنه يختار الفعل الذي يقوم به ويتحمل مسؤوليته، وتؤلف هذه الآيات نسبة كبيرة قياساً للآيات التي ظاهرها يوحي بالجبر»(٣).

يرى الكاتب نبيل حمدي في كتابه «هل الانسان مسير أو مخير؟» «أن العبد إذا عقد العزم على الإتيان بالأعمال الصالحة أو الشريرة بكامل حريتـه واختيـاره

١- السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، المجلد الاول، دار الكتاب الاسلامي، قم، ايران، ١٩٧٢، ص٩٧.

٢- عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي، دار الفكر العربي، الطبعة الاولى، ص٥٥- ٥٦.

٣- الدكتور عبد الله سلوم السامرائي، الله والانسان، بغداد، ١٩٨٣، ص٣٩٦.

ويسره الله لذلك، وأذن بأن يحدث هذا في ملكه كان هذا التيسير والإذن من الله إيذاناً بأن تخلق الأعمال في ذلك الوقت بعينه وهو وقت إقبال العبد على الإتيان بتلك الإعمال... إن الله عز وجل قد علم ما سيختاره العبد من الإعمال قبل أن يخلقه فقدر له أعماله حتى إذا جاء وقت التنفيذ كانت تلك الأعمال من خلق الله ولكنها باختيار العبد» (١)

لقد تبين بوضوح وجلاء من خلال عرضنا للآراء السابقة أن هناك أربعة آراء حول موضوع الدراسة وهي: القول بالجبر، والقول بحرية الإختيار على الطريقة القدرية، والاعتقاد برفض الجبر والتفويض والقبول بالأمر بين أمرين، وفكرة الكسب الأشعرية. وجميع أدعياء هذه الآراء استدلوا على ما ذهبوا اليه عن طريق الآيات القرآنية الكريمة، والاحاديث النبوية الشريفة وقول أئمة الهدى من آل البيت النبوي الطاهر، وأقوال صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وافعالهم.

هدف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة الى توضيح العلاقة بين المشيئة الالهية وحرية الانسان في التوجه نحو الخير أو الشر والاعمال التي يعكسها هذا التوجه على سلوكه.

أسئلة الدراسة:

تحاول هذه الدراسة أن تجيب على الأسئلة التالية:

١- هل الانسان يسعى نحو الخير وفعله مسيراً أم مخيراً؟

٢- هل الانسان يسعى نحو الشر وفعله مسيراً أم مخيراً؟

٣- ما هي العلاقة بين علم الله بأفعال الانسان قبل وقوعها وحرية الانسان في عملها؟

٤- ما هي العلاقة بين علم الله سبحانه وتعالى وتقديره للأمور في ملكوته؟

محددات الدراسة:

تقتصر هذه الدراسة على توضيح حرية الانسان في سعيه نحو الخير والشر، وعلاقة هذه الحرية بمشيئة الله سبحانه وتعالى. وجميع ما يذكر من مصطلحات وموضوعات أخرى هو بهدف التوضيح لهدف الدراسة فقط.

١- نبيل حمدي، هل الانسان مسير أو مخير؟، مطابع الاتفاق، الاسكندرية، جمهورية مصر العربية، ١٩٧٨، ص٥١.

المشيئة الإلهية :

يجدر بنا قبل تناول موضوع المشيئة الالهية ان نشير الى الاخطاء التي وقع بها الانسان عندما حاول ان يعي القضايا الغيبية ويتفحص ماهيتها عن طريق قدراته الذاتية مما جعله يأتي بالشيء ونقيضه في الوقت نفسه وحول نفس الموضوع، مما أدى إلى ظهور المدارس الفكرية والمذاهب المتعددة، وما عكسته من آثار واسعة النطاق على الانسان وانماطه السلوكية في الحياة الدنيا وما ستؤول اليه مصائرهم في الحياة الآخرة. ومن أبرز الاخطاء التي وقع بها الانسان، أولا: ان الانسان أقحم عقله في القضايا المتصلة بعالم الغيب مع انها خارجة عن قدرات الانسان العقلية.

وثاني هذه الاخطاء: ان الانسان لم يميز بين قدراته المحدودة، وقدرات الله سبحانه وتعالى المطلقة، فهو يحاول بقدراته المحدودة أن يعي القوة المطلقة وما تمتاز به من علم، وارادة، وخلق، ومشيئة، وعدل... الى غيرها من الصفات الالهية. وثالثها: حكم الانسان على الامور الغيبية من خلال نظرته الخاصة للمنفعة، والخير والشر معتمداً على خلفيته المحدودة عن الوجود واسراره. ورابعها: اخضاع القضايا الغيبية وما يتصل بها من أسرار الى المقاييس الانسانية متناسياً الهوة الهائلة بين علم الخالق وعلم المخلوق. وخامسها: ان الانسان حاول اخضاع الآيات القرآنية الى الافكار الفلسفية بالرغم من أن أقطاب هذه الافكار يعتقدون ان القدرات الانسانية لا تعجز عن الوصول الى مكنونات الامور الغيبية، مما أدى الى سوء فهم آيات القرآن الحكيم. وسادسها: ان الانسان حاول ان يفهم الآيات القرآنية بمعزل عن بعضها بعضاً مما أدى الى ظهور التناقض والازدواجية في فهم النصوص القرآنية. وسابعها: ظهور روح المذهبية عند بعض الناس مما جعلهم ينشدون الى مذهبهم وما يفيده من آراء دون محاولة الاستفادة من الطرف الآخر، بل كان همهم الدفاع عما لديهم من أفكار، وإظهار الشغب والمفتريات على الطرف الآخر. واخيراً دور قسم من الناس في تشويه الاسلام عن طريق التأويل والتحريف بهدف إثارة الفوضى والخلاف في صفوف الجمع الرسالي الواحد.

لقد أشار الشيخ الركابي في حديثه عن المشيئة والاختيار الى: «ان تقسيم الارادة الى تكوينية وتشريعية يجري ذاته في مسألة المشيئة، وقد ذكرا في القرآن بشكل بين، ولذلك لا يرى بعض الفلاسفة والمتكلمين أي تفاوت بين مسألة الارادة والمشيئة، وحتى بعض الكتب اللغوية والادبية لا تفرق بينهما، ولكن الصحيح ان

بينهما فرقاً، وذلك اننا في مسألة الارادة قلنا ان لها مراتب قوية وضعيفة. في حين لا يوجد في المشيئة تلك المراتب وهي تشبه التصميم الذي يأتي بعد الارادة. وعلى أي اعتبار فإن المشيئة وردت في القرآن في «٢٠٠ مورد» وهذه الموارد تقسم الى طوائف متعددة منها ما يلي:

الطائفة الاولى: الآيات التي تصرح بأن الاشياء توجد بمشيئة الله تعالى.... والطائفة الثانية: الآيات التي تحكي عن الضلالة.... والطائفة الثالثة: الآيات التي تأتي في مقام بيان سلطة الله المطلقة.... والطائفة الرابعة: الآيات التي تربط العمل بمشيئة الله.... والطائفة الخامسة: بعض الآيات التي تبين الاختلاف في عالم الطبيعة.... والطائفة السادسة: الآيات التي تبين مشيئة الله في حكمه.... والطائفة السابعة: الآيات التي تذهب إلى أن الله إذا أراد هدى وإن لم يرد أضل، كقوله تعالى: (**قل الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب**).والطائفة الثامنة والاخيرة: الآيات التي تربط مشيئة الانسان بمشيئة الله، كقوله تعالى: «**أن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً**»...(١).

ان الانسان المتأمل لجميع الآيات القرآنية الحكيمة التي لها علاقة بالمشيئة الالهية أو بالمشيئة الانسانية يجد أن هناك مفهوماً أساسياً يجمع بين هذه الآيات جميعاً، الا وهو ان كل ما يجري في ملكوت الله سبحانه وتعالى يحدث داخل حدود المشيئة الالهية، ويبدو ذلك واضحاً جلياً اذا ما عرفنا ان الخلود في الجنة والنار إلا ما شاء الله، ويوم ينفخ في الصور يصعق من في السماوات والارض إلا من شاء الله، وإنا ان شاء الله لفاعلون أو لمهتدون، والله يضاعف لمن يشاء، ولا نحيط بشيء من علمه الا بما شاء، وفضله يؤتيه لمن يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، والله يفعل ما يشاء ويخلق ما يشاء ويزيد في الخلق كيف يشاء، ويبسط السحاب في السماء كيف يشاء، ويقر في الارحام ما يشاء، ويختار من يشاء من عباده لتبليغ رسالته للناس، ويمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، ويصيب بالصواعق من يشاء، ويورث الارض لمن يشاء من عباده، ويصورنا في الأرحام كيف يشاء، ويؤتي الحكمة لمن يشاء، ويؤتي ملكه لمن يشاء. هذا بجانب ان الحق سبحانه وتعالى لو شاء لمنع حدوث بعض الامور التي تجري في ملكوته ولكنه سبحانه

١ - الشيخ الركابي، مصدر سابق، ص٢٩١ - ٢٩٤.

وتعالى عما يصفون شاء ان يسمح لتلك الاحداث ان تكون في ملكوته وجميعها داخل حدود مشيئته. ويبدو ذلك ساطعاً جلياً فيما تفيده الآيات القرآنية من معان واضحة حيث لو شاء الله لذهب بسمعهم، ولو شاء لجعل الماء أجاجا والزرع حطاما، ولو شاء لاستبدلنا بقوم آخرين، ولو يشاء الله لانتصر منهم، ولو شاء يجعل منا نحن البشر ملائكة، ولو شاء الله لجعلنا أمة واحدة، ولو شاء لآتى كل نفس هداها، ولو شاء لطمس على أعينهم، ولو شاء الله ما فعلوه، ولو شاء الله ما أشركوا... والى غيرها من الامور التي لو شاء الله سبحانه وتعالى لما حدثت. والآيات الثلاث التالية تدل بوضوح على ما ذكرنا.

قال تعالى:

«إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ» (١)

قال تعالى:

«أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا..» (٢)

قال تعالى:

«وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (٣).

والنوع الثالث والأخير من الآيات القرآنية الحكيمة التي تربط مشيئة الانسان بمشيئة الحق سبحانه وتعالى لتقرر بوضوح ان إرادة الانسان ومشيئته في كافة ظروفها واختياراتها تجري ضمن المشيئة الالهية. وهذا هو النوع من الآيات الذي كان مثار الخلاف والالتباس عند قسم كبير من الناس. وسوف نقوم بتوضيح هذه الآيات القرآنية عندما نتناول موضوع الانسان وحرية الاختيار في الصفحات القادمة بهدف منع التكرار الممل. لقد شاء الحق سبحانه وتعالى ان يعطي الانسان حرية الاختيار بين الخير والشر، وهذا ما سنقوم بتوضيحه ان شاء الله في هذه الدراسة.

علم الله:

إن العلم الأزلي الالهي ليس منفصلا عن السببي والمسببي في العالم. إن العلم الالهي علم بالنظام، وما يقتضيه العلم الإلهي هو هذا العالم مع هذه الانظمة. فالعلـــم

١ - سورة الشعراء، آية ٤

٢ - سورة الفرقان، آية ٤٥

٣ - سورة يونس، آية ٩٩

الالهي مباشرة وبلا واسطة لا يتعلق بوقوع حادثة ولا بعدم وقوعها؛ وانما يتعلق العلم الإلهي بالحادثة من علتها وفاعلها الخاص وليس تعلقه بها بشكل مطلق غير مرتبط بأسبابها وعللها. وإن العلل والاسباب متفاوتة. فبعضها عليته وفاعليته طبيعية وبعضها عليته شعورية، وبعضها مجبر قاهر والآخر مختار. وما يوجبه العلم الإلهي الأزليّ هو صدور أثر الفاعل الطبيعي من الفاعل الطبيعي، وأثر الفاعل الشعوري من الفاعل الشعوري، وأثر الفاعل المجبور من الفاعل المجبور، وأثر الفاعل المختار من الفاعل المختار، ولا يقتضي العلم الإلهي أن يصدر أثر الفاعل المختار من ذلك الفاعل قهراً وجبراً؛.... فان العلم الأزلي الالهي علم بالنظام أي بصدور المعلولات من عللها الخاصة بها. ولما كانت العلل متفاوتة في النظام العيني الخارجي فإحداها طبيعية والاخرى شعورية، وإحداها مختارة والاخرى مجبورة؛ فإن النظام العلمي على هذا الأساس هو بمعنى أن كل فاعل موجود في العالم العلمي كما هو موجود في العالم العيني الخارجي. والعلم الالهي الذي يتعلق بصدور أثر من فاعل، هو بمعنى أنه تعلق بصدور أثر الفاعل المختار من الفاعل المختار، وبصدور أثر الفاعل المجبور من الفاعل المجبور. وما يقتضيه العلم الإلهي ويوجبه هو صدور فعل الفاعل من الفاعل المختار وفعل الفاعل المجبور من الفاعل المجبور، لا أن العلم الالهي يوجب ان يكون الفاعل المختار مجبوراً أو الفاعل المجبور مختاراً»(١).

يرى الشيخ الركابي ان علم الله لا يكون علة في صدور العمل. وذلك لأن انكشاف الواقعيات لله هي نفس العلم لا الرغبة في العمل، ولأن الاعمال التي يكون الله عالماً بها لا نقوم بها، اذ لا أثر طبيعي وواقعي لها، وذلك لأن كشف الحوادث وسائر الموجودات يقع في علم الله، وهذا شبيه بالمرآة التي لا تعكس صورتها»(٢).

«استدل بعض الجبريين بعلم الله قائلين؛ ان الله يعلم حركاتنا وسكناتنا وهذا يجعل الامر يدور بين اثنين؛ إما أن نكون مجبورين، أو أن علم الله يتبدل جهلا»(٣).

«إن ما من شيء في هذا الوجود إلا قدره الله تعالى وعلمه، فلا يقع شيء من

١ - مرتظى المطهري، مرجع سابق، ص٢٤٣ - ٢٤٥.
٢ - الشيخ الركابي، مرجع سابق، ص٢٩٥.
٣ - المرجع السابق، ص٢٩٤.

الانسان أو عليه من خير أو شر إلا كما علم الله تعالى ذلك أزلا.... واذا كان الله تعالى عالماً بكل شيء في الازل، ومقدراً لكل ما سيجري مستقبلا في اللوح المحفوظ؛ فإن ذلك لا يجوز ان يلاحظ في امور الحياة ولا في تصرفات الناس، ولا في اي عمل يقدم عليه بشر، وانما يلاحظ في ذلك على أساس مفهوم ما أحله الله أو حرمه في شرعه ودينه، ونحن لم نؤمن الا بذلك... اما ان نتصور كل فعل شراً كان أم خيراً على أنه مقدور لله تعالى ولا مرد له إلا هو؛ فان هذا من سوء الاعتقاد... وفساد الرأي... وانحلال العزم.... عدا انه ليس من الاسلام في شيء»(١).

إن جميع الآراء السابقة تشير بوضوح الى ان الحق سبحانه وتعالى يعلم علم اليقين بجميع ما يجري في ملكوته. واذا ما تأملنا الآيات القرآنية الحكيمة التالية. فإننا سوف نصل الى نفس اليقين وهو ان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء يحدث في ملكوته:

قال تعالى:

«قُل إن تُخفُوا ما في صُدُورِكُم أو تُبدُوهُ يَعلَمهُ اللهُ وَيَعلَمُ ما في السَّمٰواتِ وما في الارضِ واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ» (٢).

قال تعالى:

«اللهُ الذي خَلَقَ سَبعَ سَماواتٍ وَمِنَ الارضِ مِثلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمرُ بَينَهُنَّ لِتَعلَمُوا أنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ وأنَّ اللهَ قَد أَحاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلماً» (٣).

قال تعالى:

«وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيبِ لا يَعلَمُها إلاّ هُوَ وَيَعلَمُ ما في البَرِّ والبَحرِ وَما تَسقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلاّ يَعلَمُها ولا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الارضِ وَلا رَطبٍ وَلا يابِسٍ إلاّ في كِتابٍ مُبِينٍ» (٤).

قال تعالى:

«أَلَم يَعلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعلَمُ سِرَّهُم وَنَجواهُم وَأَنَّ اللهَ عَلاّمُ الغُيُوبِ» (٥).

قال تعالى:

«يَعلَمُ ما بَينَ أيدِيهِم وَما خَلفَهُم وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلماً» (٦).

١ - عبد الحليم قنبس، مصدر سابق، ص٢١٧ - ٢١٩.

٢ - سورة آل عمران، آية ٢٩.

٣ - سورة الطلاق، آية ١٢.

٤ - سورة الانعام، آية ٥٩.

٥ - سورة التوبة، آية ٧٨.

٦ - سورة طه، آية ١١٠.

واضح من الآيات الحكيمة السابقة ان الله سبحانه وتعالى لا يعزب عنه شيء في كل ما يجري في ملكوته وما يتصل بجميع مخلوقاته. وقد صور هذا العلم بطريقة يسهل على الانسان تخيلها وفهمها حيث قال عز من قائل:

«قُل لَّو كانَ البَحرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبّي لَنَفِدَ البَحرُ قَبلَ أن تَنفَدَ كَلِماتُ رَبّي وَلَو جِئنا بِمِثلِهِ مَدَداً» (١)

قال تعالى:

«وَلَو أنَّما في الأرضِ مِن شَجَرَةٍ أقلامٌ والبَحرُ يَمُدُّهُ مِن بَعدِهِ سَبعَةُ أبحُرٍ مَّا نَفِدَت كَلِماتُ اللهِ إنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكِيمٌ» (٢)

كما ان الحق سبحانه وتعالى أطلعنا على حقيقة هامة مفادها أنه سبحانه وتعالى قد اطلع الانسان على جزء من علمه ليتناسب مع دور الانسان في هذا الوجود.

قال تعالى:

«وَيَسئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أمرِ رَبّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلمِ إلاَّ قَلِيلاً» (٣).

لقد حاول الانسان بعلمه القليل ان يعي ويحلل ويدقق في علم الله الذي لا يحده حدود فأوقع نفسه في المتناقضات التي لا يجمع بينها إلا الجاهل بحقيقة الاشياء ومكنوناتها، وهذا ما فعله الانسان عندما اراد ان يخضع علم الله سبحانه وتعالى الى علمه البسيط وخلفيته حول الاشياء المحسوسة بالنسبة له. لذلك فان الحق سبحانه وتعالى وجه خطاباً لهذا الانسان بهذا الخصوص حيث يقول سبحانه وتعالى:

«وَلاَ تَقفُ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ إنَّ السَّمعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤادَ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ عَنهُ مَسئُولاً» (٤)

فالحق سبحانه وتعالى يعلم ما يجري في ملكوته حيث لا يخفى عليه شيء، كما انه لا يفاجأ في شيء فهو علام الغيوب، يعلم الامور قبل وقوعها من اصحابها، كيف لا، وهو علام الغيوب والخالق لكل المخلوقات، وكل شيء يجري في ملكوته

---

١ - سورة الكهف، آية ١٠٩.

٢ - سورة لقمان آية ٢٧

٣ - سورة الاسراء آية ٨٥.

٤ - سورة الاسراء آية ٣٦.

وفق مشيئته؟ فعلم الخالق سبحانه وتعالى لأفعال مخلوقاته قبل ان تصدر عنهم يدل فقط على قدرة الله سبحانه وتعالى وعلمه اللامتناهي. بينما الانسان فإنه يسعى نحو الشر وطرقه ونحو الخير وطرقه وما يتصل بهما من أفعال وانماط سلوكية بناء على ما يختاره الانسان بملء ارادته، لأن الانسان لا يعلم ما يعلمه الخالق سبحانه وتعالى من افعال الانسان المتصلة بالخير والشر. وأود أن اسوق مثالا لأقرب الصورة الى ذهن القارئ العزيز. عندما ينتهي أستاذ الجامعة من القاء محاضرته ويطلب من الطلبة الانصراف من القاعة، فاذا كان الاستاذ يعلم تمام المعرفة إلى أين سيذهب كل طالب بعد الخروج من قاعة الدراسة، فهل هذا يدل على ان الاستاذ أجبرهم على الذهاب الى الأماكن التي قصدوها، أم يدل على علم الاستاذ بحدوث اعمال طلبته قبل حدوثها. فعلى هذا الاساس فان الحق سبحانه وتعالى لم يفاجأ بعدم سجود ابليس عندما أمره بالسجود لسيدنا آدم، كما أنه لم يفاجأ بوقوع سيدنا آدم وحواء في الشرك الذي نصبه لهما ابليس عن طريق احابيله وتسويلاته لهما وهما في الجنة، كما أنه لم يفاجأ بعدم ايمان أبي لهب وزوجته، هذا بجانب علمه التام بأن قوم سيدنا نوح لن يؤمن منهم الا من قد آمن، وايضاً لم يفاجأ بهزيمة الروم وانهم سوف يغلبون في بضع سنين.

ان كل هذه الامور وغيرها معلومة الى الله، علام الغيوب قبل صدورها من مصادرها المباشرة. لذلك فان العلم الالهي الازلي سواء أكان بالنظم، أي بصدور المعلومات من عللها الخاصة بها ام بجميع ما يحدث من المخلوقات من اعمال وافعال مباشرة، فان الانسان يسعى نحوها ويقوم بها بملء ارادته بالرغم من علم الله الدقيق لشتى هذه الافعال والاعمال الصادرة من البشر. لقد ظن الجبريون ان علم الله سبحانه وتعالى للاشياء قبل حدوثها ينعكس على حرية الانسان، فمن هنا رفعوا لواء الجبرية.

أما بالنسبة الى علاقة علم الله سبحانه وتعالى بتقديره لكل ما يجري في ملكوته، أي علاقة علم الله سبحانه وتعالى بالقضاء والقدر، فإن الحق سبحانه وتعالى يقدر كل ما يجري في ملكوته بناء على علمه الدقيق بجميع ما يحدث، وسوف يحدث في ملكوته.

فالحق يشير إلى ان العلم يسبق القدر، فيقدر الله سبحانه وتعالى كل ما يريد بناء على علمه الذي يصعب علينا نحن البشر الاحاطة به. لأن المقيد لا يستطيع ان

يلم بالمطلق، ولا يستطيع المخلوق ان يحيط بكل شيء يتصل بخالقه، والا عكست الصورة فاصبح المقيد مطلقاً، والخالق مخلوقاً، فهذا فيه افتنات كبير على الحق والحقيقة. ان حقيقة ما ذكر في السطور السابقة يكمن في الادلة القرآنية التالية:

قال تعالى:

«وإذ قالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إنّي جَاعِلٌ فِي الأرضِ خَليفَةً قالوا أتَجعَلُ فِيها مَن يُفسِدُ فيها وَيَسفِكُ الدِّماءَ وَنَحنُ نُسَبِّحُ بِحَمدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إنّي أعلَمُ مالا تَعلَمونَ» (١)

يبدو بوضوح قول الحق سبحانه وتعالى في رده على الملائكة، بأنه يعلم مالا تعلم الملائكة، فهذا يدل على ان هذا القرار، وهذا التقدير بني على علم الله الذي لا تعرفه الملائكة، هذا بجانب ان الحق سبحانه وتعالى بعلمه الدقيق عرف مسبقاً ان ابليس لن يسجد لآدم بالرغم من طلب الحق سبحانه وتعالى منه ذلك، وان ابليس لن يطلب التوبة والانابة الى خالقه، بل انه سوف يطلب ان يكون من المنظرين ليثأر لنفسه من آدم وذريته عن طريق الاغواء وتزيين الشهوات. كما ان الحق سبحانه وتعالى يعلم علم اليقين ان آدم سوف يعصي امره ويتبع تسويلات ابليس وأحابيله ليكون سبباً في اخراجه من الجنة. بناء على هذا العلم للأشياء قبل وقوعها من ابليس وآدم وحواء قرر المولى عز وجل ان يجعل الانسان خليفة في الارض. أما بالنسبة الى طلب الباري عز وجل من ابليس السجود لآدم فيبدو واضحاً جلياً في الآية الحكيمة التالية:

«وَلَقَد خَلَقناكُم ثُمَّ صَوَّرناكُم ثُمَّ قُلنا لِلمَلائِكَةِ اسجُدوا لِآدَمَ فَسَجَدوا إلاّ إبليسَ لَم يَكُن مِنَ السّاجِدينَ* قالَ ما مَنَعَكَ ألاّ تَسجُدَ إذ أمَرتُكَ قالَ أنا خَيرٌ مِنهُ خَلَقتَني مِن نارٍ وَخَلَقتَهُ مِن طِينٍ» (٢).

اما بالنسبة الى تبليغ الحق سبحانه وتعالى لسيدنا آدم بعداوة ابليس وتحذيره منه فيبدو واضحاً بنقاء في قوله عز من قائل:

«وإذ قُلنا لِلمَلائِكَةِ اسجُدوا لآدَمَ فَسَجَدوا إلاّ إبليسَ أبَى* فَقُلنا يا آدَمُ إنَّ هذا عَدوٌّ لَكَ ولِزَوجِكَ فَلا يُخرِجَنَّكُما مِنَ الجَنَّةِ فَتَشقَى» (٣).

١- سورة البقرة آية ٣٠.

٢- سورة الاعراف، آية ١١-١٢.

٣- سورة طه، آية ١١٦ - ١١٧.

وعلى هذا الأساس فان الحق سبحانه وتعالى قدر جميع ما يجري في ملكوته بناء على علمه الازلي. وهذا هو الفارق الجذري بين الخالق لكل شيء وبين أحد مخلوقاته وهو الانسان الذي يصر ان يستوعب ويعي الذات الالهية وكل ما يتصل بها من قدرة وارادة وعلم، وهذا هو مبعث التخبط والتناقض، والانحطاط الفكري، لأن استيعاب المقيد للمطلق يعني تشويه وتحطيم معالم القوة المُطلقة لكي يتم استيعابها من القوة المقيدة. وزيادة في ايضاح علاقة العلم بالقدر فانني أود أن اضرب مثلا في كيفية تقدير الحق سبحانه وتعالى للامور بناء على علمه. ان الحق سبحانه وتعالى يعلم مسبقاً بأن فلاناً من الناس يقوم بعملية القتل بملء ارادته فيجعل الله سبحانه وتعالى هذا العمل سبباً في نهاية المقتول. مثلما رفض ابليس بملء ارادته السجود لسيدنا آدم، واتباع آدم وزوجه لتسويلات ابليس بارادة حرة.

الانسان وحرية الاختيار:

يقرر الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه شفاء العليل في الباب التاسع والعشرين: أن الانسان يعيش في هذا الوجود بين قضائين: كوني وشرعي، فيقول: «فما كان من كوني فهو متعلق بربوبيته وخلقه، وما كان من ديني فهو متعلق بالآهيته وشرعه، وهو كما أخبر عن نفسه سبحانه له الخلق والأمر، فالخلق: قضاؤه وقدره وفعله، والأمر: شرعه ودينه، فهو الذي خلق وشرع وأمر، وأحكامه جارية على خلقه قدراً وشرعاً، ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني القدري، وأما حكمه الديني الشرعي فيعصيه الفجار والفساق، والأمران غير متلازمين، فقد يقضى ويقدر مالا يأمر به ولا يشرعه، وقد يشرع ويأمر بما لا يقضيه ولا يقدره، ويجتمع الأمران فيما وقع من طاعات عباده وإيمانهم، وينتفي الأمران فيما يقع من المعاصي والفسق والكفر، وينفرد القضاء الديني والحكم الشرعي فيما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور، وينفرد الحكم الكوني فيما وقع من المعاصي. اذا عرف ذلك فالقضاء في كتاب الله نوعان: كوني قدري، كقوله تعالى: «فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ»، وقوله سبحانه وتعالى: «وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ»، وشرعي ديني، كقوله تعالى: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ»، أي: أمر وشرع، ولو كان قضاء كونياً لما عبد غير الله»(١).

الانسان في نظام الوجود... يملك نوعاً من الحرية والاختيار وله إمكانات في

١ - عبد الحليم قنبس، مصدر سابق، ص١٥١ - ١٥٢.

فعالياته وتلك الامكانات ليست متوفرة للموجودات الاخرى حتى للحيوانات. ولأن النظام العيني يستمد وجوده من النظام العلمي، وان منبع العالم الكياني هو العالم الرباني؛ فإن العلم الازلي المتعلق بأفعال الانسان وأعماله هو بمعنى أنه يعلم من الأزل: من هو الذي سوف يطيع باختياره وحريته ومن هو العاصي كذلك. والذي يوجبه ذلك العلم ويقتضيه هو ان يطيع ذلك المطيع بإرادته وان يعصي ذلك العاصي بإرادته. وهذا هو معنى قول اولئك القائلين بأن «الانسان مختار بالإجبار» فلا يمكنه ان لا يكون مختاراً. فليس للعلم الازلي أي دخل في سلب الحرية والاختيار ممن قرر له في النظام العلمي والنظام العيني ان يكون مختاراً وليس له أي دخل في سلب الاختيار والحرية الانسانية بأن يجبره على الطاعة والمعصية»(١).

«إن الانسان خلق مختاراً حراً، بمعنى أنه أعطي فكراً وإرادة. فليس الانسان في أعماله كالحجر تدحرجه فيتدحرج ويسقط متأثراً بجاذبية الارض دون أن تكون له أية إرادة، او كالنبات ليس له إلا طريق واحد، فبمجرد توافر شروط معينة ينمو بالشكل المعتاد. أو كالحيوان الذي يؤدي أعماله بتأثير غريزي. كلا ان الانسان يجد نفسه دائماً على مفترق طرق ليختار منها ايها شاء بملء حريته ووفق مشيئته ونوعية تفكيره، وليس مجبوراً على سلوك أحدها لا غير، وانما الذي يعين أحد الطرق هو اسلوب فكره واختياره، وهنا تبرز مقومات الشخصية والصفات الاخلاقية والروحية، والمسبقات التربوية والوراثية، والمقاييس العقلية والنظرات البعيدة للانسان، فيعلم إلى أي حد يرتبط المستقبل السعيد أو الشقي بتلك العوامل، وبالتالي بالطريق الذي يختاره بنفسه»(٢).

لقد ثبت بالدليل القاطع ان الانسان يعيش في هذه الحياة ضمن دائرتين اثنتين لا ثالث لهما، أما الدائرة الاولى: فهي التي تنفذ فيها إرادة الله تبارك وتعالى ومشيئته الكونية التي لا راد لها إلا هو سبحانه، وفيها جعل الانسان يسير بحسبها وعلى مقتضاها سيراً مجبراً لا إرادة له فيها ولا اختيار... وأما الدائرة الثانية: فهي التي تنفذ فيها إرادته ومشيئته الشرعية، وفيها جعل الله تعالى الانسان يسير فيها سيراً اختيارياً، بحيث لا مكره له فيها ولا مجبر. فما كان من إرادته ومشيئته الكونية فلا خروج لأحد عنها، وما كان من إرادته ومشيئته الشرعية فأنه سبحانه

١ - مرتضى المطهري، مرجع سابق، ص١٤٥.
٢ - مرتضى المطهري، مرجع سابق، ص٧٣.

يطاع فيها ويعصى. فالاحوال والافعال التي تحصل مع الانسان أو منه ضمن الدائرة التي تسيطر عليه، فإنه ليس له شأن بوجودها، وهي قسمان: قسم يقتضيه نظام الكون والحياة مباشرة، وقسم لا يقتضيه ذلك مباشرة. أما ما يقتضيه نظام الكون والحياة مباشرة، فهو الذي يجعل الانسان خاضعاً له، ويسير على مقتضاه سيراً جبرياً، لأنه يسير وفق نظام لا قدرة ولا طاقة له في مخالفته أو الخروج عنه. فحياته ووجوده مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بذلك النظام. فقد أتى إلى هذه الحياة على غير إرادة منه، وسيذهب عنها على غير إرادة منه أيضاً، وهو لا شأن له بشكل جسمه من حيث اللون أو الطول أو القصر أو الجمال أو عدمه، كما لا دخل له بكونه ذكراً أم أنثى، فهو في كل ذلك وأشباهه مسير لا مخير. وذلك لأن الله تبارك وتعالى جعل هذا وأمثاله خاضعاً لإرادته ومشيئته الكونية التي تتمثل في نظام الكون والحياة... فنحن نرى الانسان ضمن هذه الدائرة التي تسيطر عليه، يسير منها بأعمال لا يقدر على التخلي عنها... وأما الدائرة الثانية التي يسيطر عليها الانسان فإنها الحالات التي يقوم بأفعاله فيها بكامل إرادته واختياره ورضاه. وذلك لأن الانسان كائن بشري: عاقل مدرك مفكر، ينطلق في كل تصرف يتصرفه، وفي كل عمل يعمله لاشباع غرائزه وحاجاته العضوية، ومن خلال تفكيره وادراكه، وبدافع من إرادته التي فطره الله عليها، وبهذه الارادة التي يتمتع بها كل انسان يتحقق له فيها الاختيار بين الأبدال، فهو ان شاء ان يشبع حاجاته العضوية من مأكل ومشرب وملبس وغير ذلك من مال حلال طيب، أو من حرام خبيث، فانه لا مجبر له على شيء من ذلك»(١).

بعد أن أشرنا الى بعض الآراء التي تشير الى حرية الانسان في الكون، وصلة تلك العلاقة بمشيئة الله سبحانه وتعالى. لا بد لنا من ان نوضح حرية الانسان واختياره في هذا الكون في ضوء ما أخبرنا به الحق سبحانه وتعالى عن طريق انبيائه وكتبه ورسله بالرغم من وضوح الدلالات الساطعة وثبوت الحجج القاطعة على صحة ذلك، إذ يعد وجود الكتب السماوية ومهمة الانبياء والرسل من الدلالات الأولية على تمتع الانسان بحرية الاختيار. إن وجود القرآن الكريم بكل ما يحتوي من آيات حكيمة تدل على حرية الاختيار، ولكننا سوف نوضح حرية الانسان في الاختيار، بين الخير والشر، بين الحق والباطل، بين الانضواء تحت راية حزب الله

١ - عبد الحليم قنبس، مصدر سابق، ١٤١ - ١٤٤.

أم الانضواء تحت راية ابليس من خلال طرحنا لعدة مسائل أساسية وهي:

المسألة الاولى:

لقد خلق الحق سبحانه وتعالى جميع المخلوقات سواء أكانت حيوانية أم نباتية، أم من الجمادات، أم من الملائكة، أم من المخلوقات التي لا نعرف خلقها جميعاً طائعة لعبادته تكويناً خلا الانس والجن فانه خلقهما سبحانه وتعالى لعبادته تشريعاً وليس تكويناً. ونعني بكلمة تكوين، أي أن من طبيعة المخلوق الذي خلق على الطاعة التكوينية ان يكون طائعاً إذ إنه لا يقوى ولا يستطيع إلا ان يكون طائعاً فقط. أما المخلوق الذي خلق تشريعاً لعبادة الله فان الحق سبحانه وتعالى أودع فيه قدرات، وطاقات، وملكات تجعله اما ان يتبع الشرع المرسل اليه فيعبد الله، واما ان لا يتبع الشرع الذي ارسل اليه فيعصي أوامر الحق سبحانه وتعالى. ويبدو ذلك ساطعاً مشرقاً في قوله عز من قائل:

«وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ والإِنسَ إلاَّ لِيَعبُدُونِ* ما أُرِيدُ مِنهُم مِّن رِّزقٍ وَما أُرِيدُ أَن يُطعِمُونِ» (١).

ونحن نعلم جميعاً ان ابليس وهو أصل الجن عنده من القدرات التي شاء الحق سبحانه وتعالى ان يجسدها فيه على ان يرفض أمر الله سبحانه وتعالى ويبدو ذلك بوضوح في قوله تعالى:

«وَلَقَد خَلَقناكُم ثُمَّ صَوَّرناكُم ثُمَّ قُلنا لِلملائِكَةِ اسجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدوا إلاَّ إبلِيسَ لَم يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ* قالَ ما مَنَعَكَ ألاَّ تَسجُدَ إذ أَمَرتُكَ قالَ أَنا خَيرٌ مِّنهُ خَلَقتَنِي مِن نارٍ وَخَلَقتَهُ مِن طِينٍ» (٢).

أما بالنسبة الى قدرة الانس على طاعة الله وعلى عدم طاعته التي شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجسدها في الانس فتبدو واضحة جلية في قوله عز من قائل:

«وإذ قُلنا لِلمَلائِكَةِ اسجُدوا لِآدَمَ فَسَجَدوا إلاَّ إبليسَ أَبى* فَقُلنا يا آدَمُ إنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوجِكَ فَلا يُخرِجَنَّكُما مِنَ الجَنَّةِ فَتَشقى* إنَّ لَكَ ألاَّ تَجُوعَ فِيها وَلا تَعرَى* وأَنَّكَ لا تَظمَؤُا فِيها وَلا تَضحَى* فَوَسوَسَ إلَيهِ الشَّيطانُ قالَ يا آدَمُ هَل أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخُلدِ وَمُلكٍ لا يَبلى* فَأَكَلا مِنها فَبَدَت لَهُما سَوءاتُهُما وَطَفِقا يَخصِفانِ عَلَيهِما مِن وَرَقِ الجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى» (٣).

١ - سورة الذاريات، آية ٥٦ - ٥٧.

٢ - سورة الاعراف، آية ١١ - ١٢.

٣ - سورة طه، آية ١١٦ - ١٢١.

واضح من الآيات السابقة ان الجن والانس عندهما القدرة التي جسدها الباري عز وجل فيهما على الاقبال على طاعة الله أو الادبار عنها. ولو خلقا تكويناً للطاعة كبقية الملخوقات الاخرى لما كان في استطاعتهما ان يعصيا امر الحق سبحانه وتعالى ولكنه شاء لهما ان يفعلا ذلك. فهما يقومان بجميع الامور المتصلة بجانب الطاعة أو عدمها في ضوء حريتهما داخل حدود مشيئته، إذ سمح لهما بذلك.

المسألة الثانية:

تنشأ هذه المسألة من المسألة الاولى إذ ان الخلق التشريعي للطاعة التي خلق عليها الانس والجن تقتضي من الحق سبحانه وتعالى ان يبين لهما معالم الطريق القويم لكي يمارسوا حرية الاختيار التي وهبها لهما عن طريق رسله تعالت وجلت قدرته، ويظهر ذلك بجلاء في قوله عز وجل:

«يا مَعشَرَ الجِنّ والإنسِ ألَم يَأتِكُم رُسُلٌ مِّنكُم يَقُصُّونَ عَلَيكُم آياتي ويُنذِرونَكُم لِقاءَ يَومِكُم هذا قالوا شَهِدنا على أنفُسِنا وَغَرَّتهُمُ الحَياةُ الدُّنيا وَشَهِدوا عَلى أنفُسِهِم أنَّهُم كانوا كافِرينَ» (١).

المسألة الثالثة:

تدور هذه المسألة حول الانسان والهدى الذي أرسله اليه الحق سبحانه وتعالى رحمة وتلطفاً بهذا المخلوق لكي يقرر ويختار أي السبيلين يريد، ولكل سبيل مصيره الخاص به، ففي الوقت الذي يكون مصير الذين اتبعوا الهدى الالهي جنات النعيم، فان جهنم ستكون موئلا للذين أدبروا وصدفوا عن الهدى الالهي ليتبعوا عدو البشرية الأشر ابليس عن طريق تزيين الشهوات والملذات لهم. ويظهر وضوح هذه المسألة بصفاء للذي يود ان يرشف من عين الحقيقة في قول الباري عز وجل:

«قُلنا اهبِطوا مِنها جَميعاً فإمَّا يأتِيَنَّكُم مِّنّي هُدىً فَمَن تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوفٌ عَلَيهِم وَلاَ هُم يَحزَنونَ• والذينَ كَفَروا وكَذَّبوا بآياتِنا أُولئِكَ أصحابُ النّارِ هُم فِيها خالِدونَ» (٢).

ولقد بين لنا الرحمن الرحيم، اللطيف بشؤون خلقه وعباده ان هذا الهدى سوف يأتي عن طريق الانبياء والرسل.

١- سورة الانعام، آية ١٣٠.

٢- سورة البقرة، آية ٣٨- ٣٩.

قال تعالى:

«يا بَني آدَمَ إمّا يَأتِيَنَّكُم رُسُلٌ مِنكُم يَقُصّونَ عَلَيكُم آياتي فَمَن اتَّقى وأصلَحَ فلا خَوفٌ عليهِم ولا هُم يَحزَنونَ* والَّذينَ كَذَّبوا بآياتِنا واستَكبَروا عَنها أولئِكَ أصحابُ النّارِ هُم فيها خالِدونَ»(١).

ان مهمة رسل الحق سبحانه وتعالى للبشر لا تتعدى دائرة البشرى للذين آمنوا والنذير للذين صَدفوا عن طريق الهدى والنور بعد توضيحه لهم. فلا إجبار ولا إكراه، ولكن توضيح لمعالم الهدى وبشرى ونذير.

قال تعالى:

«وَما نُرسِلُ المُرسَلينَ إلاّ مُبَشِّرينَ وَمُنذِرينَ فَمَن آمَنَ وأصلَحَ فَلا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنونَ»(٢)

قال تعالى:

«رُسُلاً مُبَشِّرينَ وَمُنذِرينَ لِئَلاّ يَكُونَ لِلنّاسِ على اللهِ حُجَّةٌ بَعدَ الرُّسُلِ وكانَ اللهُ عَزيزاً حَكيماً»(٣).

المسألة الرابعة:

تختص هذه المسألة بالعلاقة بين الانسان والشيطان ذلك ان ابليس (الشيطان) اعتقد ان سبب هلاكه وخروجه من رحمة الله يكمن في وجود سيدنا آدم عليه السلام بحجة انه لولا وجود آدم لبقي ابليس على حالته العبادية الفريدة من نوعها للحق سبحانه وتعالى، إذ كان يعرف بطاووس الملائكة، ولكنه فسق عن أمر ربه ورفض الامتثال لدعوته، عندما طلب من الملائكة جميعاً ان تسجد لسيدنا آدم عليه السلام. لذلك فانه يود ان يثأر لنفسه من سيدنا آدم وذريته، وتبدو دلالات التهديد والوعيد ساطعة جلية في قول الباري عز وجل:

«قالَ يا إبليسَ مالَكَ ألاّ تَكُونَ مَعَ السّاجِدينَ* قالَ لَم أكُن لأسجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقتَهُ مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنونٍ* قالَ فاخرُج مِنها فإنَّكَ رَجيمٌ* وإنَّ عَليكَ اللَّعنَةَ إلى يَومِ الدِّينِ* قالَ رَبِّ فأنظِرني إلى يَومِ يُبعَثونَ* قالَ فإنَّكَ مِنَ المُنظَرينَ* إلى يَومِ الوَقتِ المَعلومِ* قال رَبِّ بِما أغوَيتَني لأُزَيِّنَنَّ لَهُم في الأرضِ ولأُغوِيَنَّهُم أجمَعينَ* إلاّ عِبادَكَ مِنهُمُ المُخلَصينَ»(٤)

١- سورة الاعراف، آية ٣٥- ٣٦.

٢- سورة الانعام، آية ٤٨.

٣- سورة النساء، آية ١٦٥.

٤- سورة الحجر، آية ٣٢- ٤٠.

«يبدو بوضوح من الآيات السابقة التهديد والوعيد الذي أطلقه الشيطان لذرية آدم مدللا على عدواته الأبدية للانسان في مختلف العصور والأزمان، وأنه سيتبع كل ما في وسعه، وما عنده من أساليب ليجنبهم طريق الحق والخير المتمثل في اتباع الصراط المستقيم، ويزين لهم الحياة الدنيا بجميع محاسنها وزخرفها ليكونوا من الضالين عن طريق الحق والخير»(١).

إن الحق برحمته الواسعة ولطفه العظيم مع الانسان لم يكله إلى قدراته ليتعرف على هذه العداوة العاتية التي يكنها له عدوه اللدود، فقد أبلغه بهذه العداوة وحذره من اتباع خطوات عدوه وتسويلاته له من خلال تزيين الشهوات والملذات الدنيوية على حساب الحقائق الوجودية والنظم الأخلاقية المتجسدة في الهدى الذي أرسله الباري عز وجل للانسان عن طريق الانبياء والرسل. لقد أبلغ آدم وهو في الجنة ونهاه عن طاعة عدوه كما اخبر ذريته على هذا الكوكب ونهاهم عن اتباع عدوهم والاذعان الى همزات الشياطين وتسويلاتهم. ويتضح ذلك في قول الحق سبحانه وتعالى:

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ»(٢).

قال تعالى:

«يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ»(٣).

قال تعالى:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ»(٤).

على الرغم من وضوح البلاغ الذي أرسله الهادي عز وجل الى الانسان فإن أغلب الناس تلبية لرغباتهم وشهواتهم اتبعوا عدوهم الشيطان وهو يزين لهم تلك

١- د. حسن الحياري، التصور الاسلامي للوجود، دار البشير، عمان، الاردن، ١٩٨٩، ص١٦٠.
٢- سورة طه، آية ١١٦ - ١١٧.
٣- سورة الاعراف، آية ٢٧.
٤- سورة فاطر، آية ٦.

الشهوات والمفاتن التي تعج وتموج بها الحياة الدنيا حتى اصبح ولياً لهم من دون الله الذي خلق فسوى وانار السبيل لكل انسان لبيب لينيب الى خالقه وما جاء عنه من هدى ورحمة للعالمين. لذلك فإن الباري عز وجل قرع الانسان على هذا الاختيار الفاسد الذي يتبع الانسان فيه عدوه اللدود، فخاطبه قائلا:

«وإذ قُلنا لِلمَلائِكَةِ اسجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدوا إلاَّ إبلِيسَ كانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَن أَمرِ رَبِّهِ أفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أولِياءَ مِن دوني وَهُم لَكُم عَدُوٌّ بِئسَ لِلظالِمينَ بَدَلاً» (١).

واضح من الآيات السابقة ان الانسان بمقدوره ان يختار اتباع النهج الالهي الذي يمثل جانب الخير أو يختار الابتعاد عن الهدى الالهي واتباع همزات الشيطان وتسويلاته في تزيين الشهوات والملذات على حساب الحق والحقيقة.

المسألة الخامسة:

تتناول هذه المسألة طبيعة الذات الانسانية وما ركب فيها الخالق سبحانه وتعالى من قدرات وملكات سواء الفسيولوجية منها أم القدرات العقلية. لقد وهب الحق سبحانــه وتعالى الذات الانسانية الملكة العقلية التي يستطيع بواسطتها ان يميز بين الخير والشر، بين طريق الرحمن وسبيل الشيطان، بين الحق والباطل. وفي حالة تعرض هذه الملكة لخلل ما فان التكليف يسقط عن الانسان المصاب لعدم تمكنه من التمييز وفقدانه حرية الاختيار بين الخير والشر. هذا بجانب ان الحق سبحانه وتعالى مكن الذات الانسانية من الاختيار بين الالتزام بجانب التقوى الذي جبلت عليه الذات الانسانية، والالتزام بجانب الفجور الذي جبلت عليه أيضاً. فالذات الانسانية جبلت على جانبي الخير والشر فيستطيع الانسان ان يتبع أو يركز على أي الجانبين يشاء، ويبدو ذلك واضحاً بجلاء في قول الباري عز وجل:

«إنَّا خَلَقنا الإنسانَ مِن نُطفَةٍ أمشاجٍ نَبتَليهِ فَجَعَلناهُ سَميعاً بَصيراً* إنَّا هَدَيناهُ السَّبيلَ إمَّا شاكِراً وإمَّا كَفُوراً» (٢)

قال تعالى:

«لَقَد خَلَقنا الإنسانَ في كَبَدٍ* أيَحسَبُ أن لَن يَقدِرَ عَلَيهِ أحَدٌ* يَقُولُ أهلَكتُ مالاً لُبَداً* أيَحسَبُ أن لم يَرَهُ أحَدٌ* ألَم نَجعَل لَهُ عَينَين* وَلِساناً وشَفَتَين* وَهَدَيناهُ النَّجدَين» (٣).

---

١ - سورة الكهف، آية ٥٠.

٢ - سورة الانسان، آية ٢-٣.

٣ - سورة البلد، آية ٤ - ١٠.

قال تعالى:

«وَنَفسٍ وَما سَوَّاها* فَألهَمَها فُجُورَها وَتَقواها* قَد أَفلَحَ مَن زَكَّاها* وَقَد خَابَ مَن دَسَّاها» (١).

لقد بين لنا الحق سبحانه وتعالى أن الذات الانسانية ركب فيها جانبا الفجور والتقوى. حيث يقود جانب الفجور فيها الانسان الى اتباع جانب الشر المتمثل في اتباع عدوه اللدود إبليس والابتعاد عن جانب الخير، المتمثل بالنهج الإلهي المنير الذي بعثه الحق سبحانه وتعالى هدى ورحمة للناس أجميعن. أما جانب التقوى الذي وشجت عليه النفس الانسانية فيقود ذات الانسان في حالة اتباعه الى الإنابة للهدى الالهي الذي بعثه هدى ورحمة وذكرى للعالمين، واتباع تعليماته في شتى أمور الحياة. لقد شاء الحق سبحانه وتعالى ان يلهم النفس الانسانية كلا الجانبين. وأي جانب من الجانبين يريده الانسان يسعى اليه بحريته التامة التي وهبها له الحق سبحانه وتعالى. ان ممارسة الانسان لهذه الحرية لا تتعدى المشيئة الالهية لأن الله سبحانه وتعالى وهبه هذه الحرية. فتعني هنا مشيئة الله سبحانه وتعالى انه سمح للانسان ان يختار اي الجانبين يريد، فأي شيء يختاره الانسان يكون ضمن حدود المشيئة، لان الحق سبحانه وتعالى لو شاء ما أعطى الانسان هذه الحرية وما ركب فيه جانبي الفجور والتقوى، وغدا كبقية المخلوقات الاخرى التي خلقت تكويناً للطاعة، كما أنه لو شاء لسلب منه هذه الحرية التي وهبها إياه.

قال تعالى:

«لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفسَكَ أَلاَّ يَكُونوا مُؤمِنِينَ* إن نَّشَأ نُنَزِّل عَلَيهِم مِّنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّت أعناقُهُم لَها خاضِعِينَ» (٢).

المسألة السادسة:

إن الحق سبحانه وتعالى خلق الحياة وما فيها من مفاتن وزخارف وشهوات ومتع دنيوية، كما خلق الموت وجميع مستلزمات الحياة الدنيا فقط ليختبر الانسان ماذا سيفعل في الحياة الدنيا، هل سيتبع جانب الشر في نفسه، ويتخذ من عدوه ابليس ولياً وينأى بنفسه عن الباري عز وجل من خلال الاعراض عن نهجه القويم، أم أنه سوف يتبع جانب الخير في ذاته، ويسلك في ضوء تعليمات الهدى الالهـــــي

---

١ - سورة الشمس، آية ٧ - ١٠.

٢ - سورة الشعراء، آية ٣ - ٤.

الذي أرسله رحمة وبشرى للعالمين؟ ويبدو وضوح الهدف من خلق الحياة والموت جلياً مشرقاً في قوله عز من قائل:

«الذي خَلَقَ المَوتَ والحَياةَ لِيَبلُوَكُم أَيُّكُم أَحسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ» (١).

قال تعالى:

«فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَّفسَكَ عَلى آثارِهِم إِن لَّم يُؤمِنُوا بِهذا الحَدِيثِ أَسَفاً، إِنَّا جَعَلنا ما عَلى الأَرضِ زِينَةً لَّها لِنَبلُوَهُم أَيُّهُم أَحسَنُ عَمَلاً» (٢).

لقد شاءت حكمة الحق سبحانه وتعالى ورحمتة وتلطفه بالانسان ان يبين له حقيقة الحياة الدنيا، وحقيقة الهدف من خلقها، إذ طلب منه تشريعاً وليس تكويناً أن يفهم الحياة الدنيا على حقيقتها وألا ينخدع بمظاهرها الجذابة فتأسره داخل أطرها، بل يستخدمها للوصول الى الاهداف النبيلة العليا المتمثلة في الفوز العظيم في الحياة الآخرة.

قال تعالى:

«وابتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا وأَحسِن كَما أَحسَنَ اللهُ إِلَيكَ وَلا تَبغِ الفَسادَ فِي الأَرضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفسِدِينَ» (٣)

قال تعالى:

«اعلَمُوا أَنَّما الحَياةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَينَكُم وَتَكاثُرٌ فِي الأَموالِ والأَولادِ كَمَثَلِ غَيثٍ أَعجَبَ الكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وفِي الآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضوانٌ وَما الحَياةُ الدُّنيا إِلاَّ مَتاعُ الغُرُورِ» (٤)

المسألة السابعة:

لقد خلق الحق سبحانه وتعالى الانسان لطاعته وعبادته تكليفاً وليس قصراً كبقية المخلوقات، وهذا النوع من الخلق أعطى الانسان حرية الاختيار بين طاعة الله سبحانه وتعالى وعبادته في كل ما يريده في ضوء نهجه القويم وبين أن يلحد بالله وينكر وجوده نهائياً ويتبع كل ما يحلو له من مدارس فكرية وأنماط سلوكيـــة

١- سورة الملك، آية ٢.

٢- سورة الكهف، آية ٦-٧.

٣- سورة القصص، آية ٧٧.

٤- سورة الحديد، آية ٢٠.

تنسجم مع اهوائه ورغباته، او أن يتخذ انداداً من دون الله، أو يتخذ معه شريكاً في ملكه تعالت وجلت قدرته عما وصفه الانسان من أوصاف لا تليق بمقام جلاله. لقد أنكر قسم من الناس وجود الخالق، وقسم آخر نادى بتعدد الآلهة، وقسم نادى بالثنائية، والتثليث، والأبوة لله سبحانه وتعالى، وقسم أقر بوجوده ولكنه يفسق ليلاً نهاراً عن نهجه السديد الذي ارتضاه للعالمين جميعاً. وتكمن مسألة التكليف للانسان في قول الباري عز وجل في الآيات القرآنية الحكيمة التالية:

قال تعالى:

«وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ* ما أُرِيدُ مِنهُم مِّن رِّزقٍ وَما أُرِيدُ أن يُطعِمُونِ» (١).

قال تعالى:

«يا بَنِي آدَمَ إمَّا يَأتِيَنَّكُم رُسُلٌ مِّنكُم يَقُصُّونَ عَلَيكُم آياتي فَمَنِ اتَّقَىٰ وأصلَحَ فَلا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنونَ* والذينَ كَذَّبوا بِآياتِنا واستَكبَروا عَنها أولئِكَ أصحابُ النّارِ هُم فيها خالِدُونَ» (٢).

إن هذا الهدى الذي وعد به الحق سبحانه وتعالى هو دين الاسلام الذي هتف ونادى به جميع الانبياء والرسل على مراحلهم المختلفة، وشاء الحق سبحانه وتعالى لهذا الهدى ان يكون كاملا في عهد آخر الانبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه جميعاً.

قال تعالى:

«... اليَومَ أكمَلتُ لَكُم دِينَكُم وَأتمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإسلامَ دِيناً فَمَنِ اضطُرَّ في مَخمَصَةٍ غَيرَ مُتَجانِفٍ لإثمٍ فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (٣).

وأي انسان يتخذ من غير الاسلام نهجاً ومعتقداً في حياته الدنيا فلن يقبل الحق سبحانه وتعالى ذلك منه اطلاقاً ويعد من الخاسرين الذين لم يفوزوا في اختبار الحياة الدنيا. فيكون اختيارهم خاطئاً ومخالفاً لما أمرهم به الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى:

«وَمَن يَبتَغِ غَيرَ الإسلامِ دِيناً فَلَن يُقبَلَ مِنهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرينَ» (٤)

١- سورة الذاريات، آية ٥٦- ٥٧.

٢- سورة الاعراف، آية ٣٥- ٣٦.

٣- سورة المائدة، آية ٣.

٤- سورة آل عمران، آية ٨٥.

قال تعالى:

«إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلامَ وما اختَلَفَ الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ إلاَّ مِن بَعدِ ما جاءَهُمُ العِلمُ بَغياً بَينَهُم وَمَن يَكفُر بآياتِ اللهِ فإِنَّ اللهَ سَريعُ الحِسابِ» (١).

ان الذي يقرأ كتاب الحق سبحانه وتعالى من أوله الى آخره يعلم علم اليقين ان هذا الكتاب يخاطب انساناً عنده القدرة على الاختيار بين الخير والشر، بين الحق والباطل، بين اتباع النهج الإلهي أو اتباع النهج الشيطاني، ولو لم يكن بمقدور المخاطب في هذا الكتاب القدرة على الاختيار لبطل جميع ما في هذا الكتاب من آيات وما احتوت عليه من حكم، وعلوم، وأوامر ونواه. ولكننا سوف نختار بعضاً من الآيات القرآنية لكثرتها التي تدل على حقيقة اختيار الانسان للسبيل التي يريدها.

قال تعالى:

«وَقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُم فَمَن شاءَ فَليُؤمِن وَمَن شاءَ فَليَكفُر إنَّا أعتَدنا لِلظالِمينَ ناراً أَحاطَ بِهِم سُرادِقُها وإن يَستَغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمُهلِ يَشوي الوجوهَ بِئسَ الشَّرابُ وَساءَت مُرتَفَقاً» (٢).

قال تعالى:

«وأنزَلنا إلَيكَ الكِتابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لِّما بَينَ يَدَيهِ مِنَ الكِتابِ وَمُهَيمِناً عَلَيهِ فاحكُم بَينَهُم بِما أنزَلَ اللهُ ولا تَتَّبِع أهواءَهُم عَمَّا جاءَكَ مِنَ الحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلنا مِنكُم شِرعَةً وَمِنهاجاً وَلَو شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً واحِدَةً وَلَكِن لِيَبلُوَكُم في ما آتاكُم فاستَبِقوا الخَيراتِ إلى اللهِ مَرجِعُكُم جَميعاً فَيُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم فِيهِ تَختَلِفونَ» (٣).

قال تعالى:

«وَلَو شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن في الأرضِ كُلُّهُم جَميعاً أفأنتَ تُكرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونوا مُؤمِنينَ» (٤).

قال تعالى:

«لا إكراهَ في الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكفُر بالطَّاغوتِ وَيُؤمِن باللهِ فَقَدِ استَمسَكَ بالعُروَةِ الوُثقى لا انفِصامَ لَها واللهُ سَميعٌ عَليمٌ» (٥).

---

١ - سورة آل عمران، آية ١٩.

٢ - سورة الكهف، آية ٢٩.

٣ - سورة المائدة، آية ٤٨.

٤ - سورة يونس، آية ٩٩.

٥ - سورة البقرة، آية ٢٥٦.

إن الحق سبحانه وتعالى لو شاء لجعل الناس كافة مؤمنين ولكنه تعالت وجلت قدرته شاء للانسان ان يمارس حرية الاختيار، لذلك فان حرية الاختيار لا تخرج عن مشيئة الله. فالذي يؤمن والذي يكفر عندما يمارس حرية اختياره، يكون كله جميعاً في ظلال المشيئة، يعنى السماح له إما بالإيمان وإما بالكفر، إما باختيار جانب الخير وإما جانب الشر. فتعني هنا مشيئة الله سبحانه وتعالى السماح، والاذن المعطى للانسان في ممارسة حريته في الاختيار بين السبيلين. ولكن قسماً كبيراً من الناس خلط بين المشيئة الإلهية، وعلم الله الازلي لكل ما يجري في ملكوته، وقضاء الله وقدره، وإرادة الانسان فنتج عن هذا الخلط فهم خاطئ لحرية الانسان، حيث ذهبوا الى فهم بعض النصوص القرآنية التي توضح حرية الانسان بالمشيئة الالهية بصورة خاطئة. وسوف نورد بعضاً من هذه الآيات، وسنرى سوياً ماذا تعني بصورة دقيقة، وللحق فإنها منسجمه مع بقية الآيات القرآنية الحكيمة.

قال تعالى:

«مَن كانَ يُرِيدُ العاجِلَةَ عَجَّلنا لَهُ فيها ما نَشاءُ لِمَن نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصلاها مَذمُوماً مَدحُوراً* وَمَن أرادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَها سَعيَها وَهُوَ مُؤمِنٌ فأُولئِكَ كانَ سَعيُهُم مَشكُوراً* كُلاًّ نُمِدُّ هؤلاءِ وهؤلاءِ مِن عَطاءِ رَبِّكَ وما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحظُوراً» (١).

قال تعالى:

«إنَّ سَعيَكُم لَشَتَّى* فَأَمَّا مَن أَعطى وَاتَّقى* وَصَدَّقَ بالحُسنى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِليُسرى* وأَمَّا مَن بَخِلَ واستَغنى* وَكَذَّبَ بالحُسنى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسرى» (٢)

قال تعالى:

«إنَّ هَذِهِ تَذكِرَةٌ فَمَن شاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً* وَما تَشاءُون إلاَّ أن يَشاءَ اللهُ إنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً* يُدخِلُ مَن يَشاءُ في رَحمَتِهِ والظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُم عَذاباً أَلِيماً» (٣)

قال تعالى:

«كَلاَّ إنَّهُ تَذكِرَةٌ* فَمَن شاءَ ذَكَرَهُ* وَما يَذكُرونَ إلاّ أن يَشاءَ اللهُ هُوَ أهلُ التَّقوى وأهلُ المَغفِرَةِ» (٤).

١- سورة الاسراء، آية ١٨- ٢٠.

٢- سورة الليل، آية ٤- ١٠.

٣- سورة الانسان، آية ٢٩- ٣١.

٤- سورة المدثر، آية ٥٤- ٥٦.

قال تعالى:

«فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهدِيَهُ يَشرَح صَدرَهُ للإسلامِ وَمَن يُرِد أَن يُضِلَّهُ يَجعَل صَدرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كأنّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ كَذلِكَ يَجعَلُ اللهُ الرِّجسَ على الَّذينَ لا يُؤمِنونَ* وهذا صِراطُ رَبِّكَ مُستَقيماً قَد فَصَّلنا الآياتِ لِقَومٍ يَذَّكَّرونَ» (١)

إن جميع هذه الآيات وما يضاهيها من آيات قرآنية اخرى تدل على اساسيتين هامتين؛ الاولى: ان الحق سبحانه وتعالى يبين لنا ان الانسان يمارس حريته في ضوء مشيئة الله سبحانه وتعالى، أي بالسماح له بممارسة هذه الحرية. أما بالنسبة الى الاساسية الثانية فإن الحق سبحانه وتعالى يساعد الانسان حسب اختياره، فالذي يريد الدنيا على حساب الآخرة يعطيه منها ويزيده بعداً عن سبيل الخير طالما رغب في المضي قدماً على ما هو عليه من انحراف عن جانب الخير، وكذلك بالنسبة للانسان الذي يختار جانب الخير وينبذ جانب الشر، فإن الحق سبحانه وتعالى يساعده في ذلك طالما سعى برغبته وارادته نحو الخير وطرقه. وحقيق بنا ان نشير في هذا المقام الى حقيقة هامة مفادها ان حرية الانسان في الاختيار بين الخير والشر قائمة في الحياة الدنيا فقط، وليس كما يفهمه بعض الناس، أو أرادوا ان يفهموا حرية الانسان انها تتعدى الى امور اخرى سواء في الدنيا أو في الآخرة. كما نود أن نشير الى أن الانسان يستطيع أن يبدل في اختياراته، فقد يختار جانب الخير ومن ثم يبتعد عنه ويقبل على جانب الشر، والعكس صحيح. لذلك فإن الباري عز وجل خاطب المؤمنين بألا يرتدوا عن دينهم، كما خاطب الذين أسرفوا على أنفسهم في عمل الآثام وانماط الفسق مبتعدين عن طريق الرحمن الى العودة، والانابة الى طريق الحق والخير المتمثل في الدين الذي ارتضاه تبارك وتعالى للعالمين. ودليل ذلك يبرز بوضوح ساطع في الآيات الكريمة الآتية:

قال تعالى:

«إنَّ الذينَ كَفَروا بَعدَ إيمانِهِم ثُمَّ ازدادُوا كُفراً لَّن تُقبَلَ تَوبَتُهُم وأُولئِكَ هُمُ الضَّالّونَ» (٢)

قال تعالى:

«يا أيُّها الذينَ آمنوا مَن يَرتَدَّ مِنكُم عَن دِينِهِ فَسَوفَ يأتي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ على المُؤمِنينَ أَعِزَّةٍ على الكافِرينَ

---

١ - سورة الانعام، آية ١٢٥.

٢ - سورة آل عمران، آية ٩٠.

يُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ ولا يَخافُونَ لَومَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يَشاءُ واللهُ واسِعٌ عَليم» (١)

قال تعالى:

«قُل يا عِبادِيَ الذينَ أسرَفوا على أنفُسِهِم لا تَقنَطوا مِن رَّحمَةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ جَميعاً إنَّهُ هُوَ الغَفورُ الرَّحيمُ* وأنيبوا إلى رَبِّكُم وأسلِموا لَهُ مِن قَبلِ أن يأتِيَكُم العَذابُ ثُم لا تُنصَرونَ» (٢)

وعلى هذا الاساس كانت مهمة الانبياء عليهم صلوات الله جميعاً وما زالت عليه مهمة من تبعهم بإحسان الى يوم الدين.

المسألة الثامنة والأخيرة

إن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان تشريعاً لعبادته وزوده بكل ما يلزمه من أمور وحقائق لكي يعبد الله طوعاً في ضوء ما جسد فيه من قدرات عقلية وما وضحه له عن طريق الانبياء والرسل ليتعرف على نهج الخير ويتبعه، ونهج الشر ويبتعد عنه، كما أعطاه فرصة ليفوز في الاختبار وهي الحياة الدنيا ليقيم الحجة على الانسان بما سيختاره من السبيلين. ثم وضح تبارك وتعالى ان الثواب والعقاب سيكون في اليوم الآخر بناء على اختيار الانسان في دار الاختبار: الحياة الدنيا. فمن الضروري جداً أن نوضح هنا ان الثواب والعقاب سيكون فقط على الامور والقضايا التي كان فيها الانسان حر الإرادة في اختياره، مثل اختيار طريق الخير أو طريق الشر وما يتبع ذلك من انماط سلوكيه ومعتقدات فكرية، أما الجوانب الاخرى التي لا تخضع لإرادة الانسان فلا يحاسب عليها الانسان اطلاقاً لأنها خارج طوق حريته، مثل: أذكر هو أم انثى، قصير أم طويل، أبيض أم أسود، فقير أم غني؟، والى غيرها من الامور التي لا تخضع الى اختيار الانسان وارادته.

أما بالنسبة الى عقاب اعداء الله الذين ضل سعيهم في الدنيا فيبدو واضحاً مشرقاً في قوله عز وجل:

«وَيَومَ يُحشَرُ أعداءُ اللهِ إلى النَّارِ فَهُم يُوزَعونَ* حَتَّى إذا ما جَاءُوها شَهِدَ عَلَيهِم سَمعُهُم وأبصارُهُم وَجُلُودُهُم بِما كانوا يَعمَلُونَ* وَقَالوا لِجُلُودِهِم لِمَ شَهِدتُّم عَلَينا قالوا أنطَقَنا اللهُ الذي أنطَقَ كُلَّ شَيءٍ وَهُوَ خَلَقَكُم أوَّلَ مَرَّةٍ وإليهِ تُرجَعونَ» (٣)

١- سورة المائدة، آية ٥٤

٢- سورة الزمر، آية ٥٣- ٥٤

٣- سورة فصلت، آية ١٩- ٢١

قال تعالى:

«إنَّ الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم ناراً كُلَّما نَضِجَت جُلودُهُم بَدَّلناهُم جُلوداً غيرها ليَذوقوا العَذابَ إنَّ اللهَ كانَ عَزيزاً حَكيماً» (١).

أما بالنسبة للذين أنابوا واستقاموا على الهدى الذي أرسله الباري عز وجل رحمة وبشرىً للعالمين فإن ثوابهم على ذلك سيكون في جنات السلام والخلود، وذلك هو الفوز العظيم.

قال تعالى:

«إنَّ اللهَ يُدخِلُ الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ يُحَلَّونَ فيها مِن أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلُؤاً ولِباسُهُم فيها حَريرٌ» (٢).

قال تعالى:

«ادخُلوا الجَنَّةَ أنتُم وأزواجُكُم تُحبَرونَ* يُطافُ عَليهِم بِصِحافٍ مِن ذَهَبٍ وأكوابٍ وفيها ما تَشتَهيهِ الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعيُنُ وأنتُم فيها خالِدونَ* وتِلكَ الجَنَّةُ التي أُورِثتُموها بِما كُنتُم تَعمَلونَ» (٣)

إن أعمال الانسان التي يقوم بها في الحياة الدنيا بمحض إرادته هي التي سوف تقوده إما الى جنات الفردوس وإما الى نار جهنم وبئس المصير، ودليل ذلك يكمن في قول الباري عز وجل:

«يَومَئِذٍ يَصدُرُ النَّاسُ أشتاتاً لِيُروا أعمالَهُم* فَمَن يَعمَل مِثقالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ* وَمَن يَعمَل مِثقالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ» (٤)

نتائج الدراسة:

لقد خلصت الدراسة الى عدة نتائج اساسية مفادها أن كل ما يجري في ملكوت الخالق سبحانه وتعالى يحدث ضمن المشيئة الإلهية، كما أن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يعطي الانسان حرية الاختيار بين الحق والباطل، بين الخير والشر، وانه سيجد ثوابه أو عقابه بناء على هذا الاختيار في الحياة الدنيا. كما أفادت الدراسة أن علم الله سبحانه وتعالى الأزلي، أي معرفة الأحداث قبل وقوعها من أصحابها «لأنه سبحانه

١ - سورة النساء، آية ٥٦

٢ - سورة الحج، آية ٢٣

٣ - سورة الزخرف، آية ٧٠ - ٧٢

٤ - سورة الزلزلة، آية ٦ - ٨

وتعالى لا يفاجأ بشيء» لا تؤثر على حرية الاختيار عند الانسان، بل تدل على قدرة الحق سبحانه وتعالى وعلمه اللامتناهي. وبينت الدراسة أيضاً ان الحق سبحانه وتعالى يقدر الامور في ملكوته بناء على علمه للأحداث قبل ظهورها عن اسبابها. لذلك فإن الانسان يسعى نحو هذه الامور التي تدخل مناط التكليف بحرية كاملة لأنه لا يعلم أي شيء عنها قبل حدوثها. أي أن حرية الانسان في مجالات التكليف لا تتأثر بعلم الله وتقديره للامور لأنها تعد غيباً بالنسبة للانسان في الوقت الذي تكون معلومة منذ الأزل لله سبحانه وتعالى. وهذه من الفروقات الهامة بين الخالق والمخلوق. وفي ضوء هذه النتائج نستطيع أن نفهم كافة الآيات القرآنية على نسق واحد وتكامل فريد من نوعه، كما نستطيع ان نفهم بشكل دقيق أحاديث المصطفى صلوات الله عليه وسلامه.

قال تعالى:

«وأمَّا ثَمودُ فَهَدَيناهُم فاستَحَبُّوا العَمَىٰ على الهُدَىٰ فَأَخَذَتهُم صاعِقَةُ العَذابِ الهُونِ بِما كانوا يَكسِبونَ* وَنَجَّينا الذينَ آمَنوا وَكانوا يَتَّقونَ» (١).

١ - سورة فصلت، آية ١٧ - ١٨

المراجع

١ – القرآن الكريم.

٢– حسام الدين الوسي، دراسات في الفكر الفلسفي الاسلامي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

٣– حسن ابراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٨٥.

٤– د. حسن الحياري، التصور الاسلامي للوجود، دار البشير، عمان، الاردن، ١٩٨٩.

٥– السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، المجلد الاول، دار الكتاب الاسلامي، ايران، ١٩٧٢.

٦– الشهر ستاني، الملل والنحل، الجزء الاول.

٧– الشيخ الركابي، خطاب الحرية في النظام الايبستمولوجي، دار النهضة الاسلامية، بيروت، لبنان، ١٩٩٠.

٨– عبد الحليم قنبس وخالد عبد الرحمن، مسألة القضاء والقدر، دمشق، ١٩٧٩.

٩– الدكتور عبد الرحمن بدوي، مذاهب الاسلاميين، الجزء الاول، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.

١٠– عبد اللطيف محمد العبد، دراسات في الفلسفة الاسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٩.

١١– د. عبد الله سلوم السامرائي، الله والانسان، بغداد، ١٩٨٣.

١٢– د. علي شلق، العقل الفلسفي في الاسلام (الفرق والاحكام)، دار المدى للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥.

١٣– علي عبد المعطي، قضايا الفلسفة العامة ومباحثها، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٤.

١٤- عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي، دار الفكر العربي، الطبعة الاولى.

١٥- د. فؤاد كامل قدح، حقائق الوجود، المطبعة الجديدة، ١٩٦٧.

١٦- د. فيصل بدير عون، الفلسفة الاسلامية في المشرق، مكتبة الحرية الحديثة، جامعة عين شمس، ١٩٨٢.

١٧- محمد ابو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٦.

١٨- محمد باقر الصدر، فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٠.

١٩- محمد جواد مغنية، الشيعة في الميزان، دار التيار الجديد، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٩٨٩.

٢٠- محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الاسلامية، الطبعة الثانية، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣.

٢١- مرتضى المطهري، الانسان والقضاء والقدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٨.

٢٢- مصطفى عبدالرزاق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦.

٢٣- المغني، الجزء الثامن.

٢٤- الملطي، التنبيه.

٢٥- د. مهدي فضل الله، من اعلام الفكر الفلسفي الاسلامي، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢.

٢٦- نبيل حمدي، هل الانسان مسير أم مخير؟، مطابع الاتفاق، الاسكندرية، ١٩٧٨.

٢٧- نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت

٢٨- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، ١٩٨٢.

الفصل الخامس

الحكمــــة

الحكمة

هدفت الدراسة الحالية الى التعرف على مفهوم الحكمة واهميتها بالنسبة للانسان في كلا الدارين. كما تناولت انواع الحكمة ومصادرها وعلاقة الحكمة بالعلم، وعلاقة الداعية بالحكمة. وقد اعتمدنا في ذلك على القرآن الحكيم بعد أن عرضنا آراء الباحثين والمؤلفين، وتوصلت الى ان هناك نوعان من الحكمة: الحكمة المطلقة وهي للحق سبحانه وتعالى، والحكمة المقيدة وتقسم الى الحكمة النقلية ومصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والحكمة المكتسبة، وهي التي يستطيع أن يصل اليها الانسان عن طريق البحث والدراسة للمجالات المعرفية. وان هناك علاقة طردية عالية بين الحكمة والعلم. اضف الى ذلك ان الانسان بحاجة ماسة الى الحكمة بنوعيها اذا ما اراد ان يجتلي سر وجوده ويحقق اهدافه في ضوء ذلك.

الحكمة

المقدمة

تعد الحكمة من أكثر الكلمات التي شدت انتباه الانسان وتفكيره عبر تاريخه المديد لما لها من وقع خاص على النفس الانسانية، وما تعكسه من فوائد جمة على حاضر الانسان ومستقبله في الحياة الدنيا والآخرة. فكل انسان منا يتوق إلى أن يوصف من قبل الآخرين بهذه الكلمة التي تشكل مصدر اعتزازه وتحقيق ذاته من وجهة نظره أمام أبناء جنسه. فالحكمة بجانب كلمة الحرية تعدان من أكثر المصطلحات التي تشرئب لها النفوس البشرية سواء عند الذين نالوا نصيباً منها أم الذين ما زالوا يلهثون وراء نصيبهم. والحق ان الانسان هتف ونادى عبر تاريخه بهاتين الكلمتين بشتى الطرق والاساليب التي عرفها طيلة تقدمه الحضاري. ولكن الذين عاشوا في ظلالها أناس قليلون، وتاريخ الانسانية يشهد على صحة ذلك من كثرة المظلومين، والمضطهدين، والسفهاء، والجهلاء. والدليل الأقوى يكمن في قول الحق سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم عندما وصف أكثر الناس بأنهم لا يعلمون، وفاسقون، وظالمون، وجاهلون.

تعريف الحكمة :

الحكمة ليست بالشيء السهل البسيط الذي يمكن أن يحصل عليه الانسان دون بذل الجهد الحثيث في طلب العلم والرجوع إلى المصادر المعرفية التي تفيض بالحكمة ونورها. فالحكمة كما يصفها اللغويون تعني العدل، الحلم، ما يمنع من الجهل، ما يمنع من الفساد، كل كلام موافق للحق، وضع الشيء في موضعه، صواب الأمر وسداده.

وعن جعفر الصادق عليه السلام قال «الحكمة ضياء المعرفة وميزان التقوى وثمرة الصدق، وما أنعم الله على عبده بنعم أعظم، وأرفع، وأجزل، وأبهى من الحكمة »(١)

يرى ابن سينا أن الحكمة «صناعة نظر يستفيد منها الانسان تحصيل ما عليه الوجود كله في نفسه، وما عليه الواجب مما ينبغي أن يكسبه فعله لتشرق بذلك نفسه

١ - الميزان في تفسير القرآن، المجلد الثاني، ص٤٠٤.

وتستكمل وتصير عالماً معقولا مضاهياً للعالم الموجود، وتستعد للسعادة القصوى بالآخرة. وذلك بحسن الطاقة الانسانية»(١)

والحكمة عند سيد قطب رحمة الله عليه تعني «ثمرة التعليم بالقرآن الكريم، وهي ملكة يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها الصحيحة، ووزن الأمور بموازينها الصحيحة وإدراك غايات الأوامر والتوجيهات»(٢)

يرى الطباطبائي، رحمه الله، الحكمة أنها «القضايا الحقة المطابقة للواقع من حيث اشتمالها على سعادة الانسان كالمعارف الحقة الالهية في المبدأ والمعاد، والمعارف التي تشرح حقائق العالم الطبيعي من جهة مساسها بسعادة الانسان، كالحقائق الفطرية التي هي أساس التشريعات الدينية»(٣)

«وقد عدد صاحب البحر المحيط تسعة وعشرين رأياً في الحكمة منها: الإصابة في القول والعمل، ومنها الفهم، ومنها الكتابة، ومنها إصلاح الدين وإصلاح الدنيا»(٤)

«فالحكمة هي نفاذ البصيرة إلى سنن الحوادث ومجريات الامور، واتقان العمل، والتصريف دون صدام مع قوانين الظواهر، وفي ضوء ظروف العصر الذي تواكبه»(٥)

وفي ضوء هذا المفهوم السامق للحكمة ذهب الفلاسفة إلى تعريف الفلسفة عندما ارادوا إعلاء شأنها على أنها حب الحكمة.

انواع الحكمة:

في ضوء التعريفات السابقة للحكمة، فالحكمة تحتاج إلى العلم الكامل والشامل والدقيق للشيء الذي يريد أن يتخذ الانسان فيه رأياً سديداً لا ينتابه خطأ أو فساد. هذا بجانب الالتزام التام بما هو حق دون تأثير العواطف والجوانب الأخرى

١ - بدير عون، الفلسفة الاسلامية في المشرق، مكتبة الحرية الحديثه، ١٩٨٢، ص٢٩٦.

٢ - في ظلال القرآن، المجلد الاول ص١٣٩.

٣ - الميزان في تفسير القرآن، المجلد الثاني، ص٣٩٥.

٤ - عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفي في الاسلام، بيروت، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٤، ص٢٢٨.

٥ - ماجد عرسان الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية الاسلامية، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية ١٩٧٨، ص٥١.

في اتخاذ القرار الحكيم. ونحن نعلم جميعاً ان الانسان يتصل بهذا الوجود الفيزيقي (عالم الشهادة) والميتافيزيقي (عالم الغيب). وقد حاول قسم من الناس التعرف إلى طبيعة الاشياء ومكنوناتها التي تتصل بعالمنا الفيزيقي والميتافيزيقي عن طريق النهج الإلهي (الدين الاسلامي) والقسم الآخر من الناس ذهب الى طريق الاعتماد على العقل الانساني مما أدى الى ظهور المدارس الفكرية الفلسفية المتعددة. والشيء الذي لا بد من ابرازه في هذا المقام ان الانسان لا يستطيع ان يجتلي جميع الحقائق المتصلة بالعالم الفيزيقي، هذا بجانب عجزه الساطع في التعرف إلى شتى المعلومات والمعارف التي ينطوي عليها العالم الميتافيزيقي، وذلك يعود لكون الانسان مخلوقاً، وكل ما هو مخلوق مقيد، والمقيد له حدود لا يستطيع ان يتعداها. لذلك فإن الانسان مهما وصل الى درجات متقدمة من العلم والمعرفة لا يمكن ان يصل الى درجة الحكمة المطلقة التي يستطيع بواساطتها أن يسير على نور وهدى في جميع الامور المتعلقة بعالم الشهادة وعالم الغيب. هذا بجانب الشهوات التي وشجت عليها النفس الانسانية وما تمليه من ضغوط على الانسان بهدف الابتعاد عن الحق واتباع الشهوات والاهواء الذاتية.

فالحكمة المطلقة لن تكون إلا للقوة المطلقة التي تفعل ما تريد ولا يحد حدودها شيء فهي مطلقة الارادة والحرية، فهذا النوع من الحكمة للخالق سبحانه وتعالى فهو العليم الحكيم الذي خلق كل شيء والفعال لما يريد، والذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والارض، وقد اعطى كل شيء قدره، ولا يفوته شيء ولا يصدر عنه الا الحق تعالت وجلت قدرته عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم.

وفي مقابل هذه الحكمة المطلقة هناك الحكمة الجزئية أو المقيدة، وهي التي يستطيع الانسان ان يصل الى لبابها ويتفيأ ظلالها اليانعة ويلوذ بها من شر عدوه السرمدي ابليس وجنده، ويفوز بنعيم الدنيا والآخرة. وهذا النوع من الحكمة لا يستطيع الانسان ان يصل بطاقاته الذاتية الى المعلومات كافة، ومجموعة المعارف، ومكنونات الامور المتعلقة بعالم الغيب والشهادة والتي تعد من مستلزمات هذه الحكمة. لذلك فإن الحكمة المقيدة أو الجزئية تقسم الى قسمين: فالقسم الاول يدعى الحكمة النقلية، وهي التي بعثها لنا الحق سبحانه وتعالى عن طريق كتبه ورسله لكي نعيش في ضوئها ونهتدي بنورها في الحياة الدنيا والآخرة. ولا يوجد مصدر لهذا النوع من الحكمة سوى النهج الالهي، لأن هذه الحكمة خارج متناول قدرات الانسان

الذاتية، فليس للانسان بد من أن يأخذها من مصدرها الاساسي، واذا ما حاول ان يبحث عنها بوسائل وطرق اخرى فمن المحال ان يصل اليها لأنها خارج قدرات البشر. أما القسم الثاني من الحكمة فيدعى الحكمة المكتسبة، لأن الانسان يستطيع ان يصل الى هذا النوع بقدراته الذاتية التي جسدها الحق سبحانه وتعالى فيه، وذلك عن طريق البحث والدراسة وطرق ابواب المعرفة المختلفة ليجتلي شتى الحقائق والمعلومات المتعلقة بفرع أو اكثر من فروع المعرفة. فإذا ما وصل الى هذا المستوى يطلق عليه كلمة حكيم في هذا الفرع المعرفي او ذاك.

اهمية الحكمة:

ان الانسان عبر تاريخه وحاضره ومستقبله بحاجة ماسة الى كلا النوعين من الحكمة، الحكمة النقلية والحكمة المكتسبة، لكي يعي حقيقة نفسه، وحقيقة وجوده على هذا الكوكب، وحقيقة الحياة الدنيا، وحقيقة الآخرة وما ينتظره فيها من مصير. ومما يجدر الاشارة اليه ان الانسان بشكل عام قد نأى بجانبه عن الحكمة النقلية التي بعثها الحق سبحانه وتعالى رحمة وتلطفاً بعباده ليأخذ بيدهم الى طريق النور والسؤدد، بالرغم من أن هذه الحكمة جاءت من عند العليم الحكيم ذي الحكمة المطلقة الذي لا يصدر عنه سوى الحق، والعدل، والصواب، والعلم، والذي لا يفوته شيء من جميع الأمور ومكنوناتها. أما بالنسبة الى الحكمة المكتسبة فقد بذل الانسان جهداً عظيماً في مجالات البحث والتنقيب والدراسة وطرق ابواب العلوم المتعددة بهدف الوصول الى جميع ما تصل اليه طموحاته واهدافه. والحق ان الانسان قد نجح عبر تاريخه نجاحاً مذهلا في كشف الحقائق المتصلة بالعالم الفيزيقي هذا بجانب الاختراعات العلمية الحديثة التي يشهدها العالم في هذا القرن.

ولكن الانسان كما ذكرنا آنفاً بحاجة ماسة لكلا النوعين وخاصة الحكمة النقلية لأن الانسان الذي يصدف عنها يعد جاهلا مهما أوتي من العلوم التي تؤهله ان يمتلك قدراً كبيراً من الحكمة المكتسبة. وذلك يعود الى ان الحكمة النقلية تتصل بقضايا الانسان المتصلة بكلا الدارين، دار الفناء (الحياة الدنيا) ودار الخلود (الآخرة) وما تعكسه من آراء وقرارات صائبة تتعلق بشؤون الانسان في كلتا الدارين. أما بالنسبة للحكمة المكتسبة فهي تتصل فقط بالحياة الدنيا وامورها، وكما نعلم فإن الحياة الدنيا تعد مدخلا للدار الآخرة، فكل ما تحتوي عليه من متع وزينة تعد متاعاً قليلا اذا ما

قورنت بما تحتوي عليه دار السلام والخلود. لذلك فإن الحق سبحانه وتعالى وصف الانظمة كلها والناس كافة الذين يصدفون عن النهج الالهي وما ينطوي عليه من حكمة نقلية بأنهم يرتعون في مراعي الجاهلية، وانهم جاهلون. فالانسان الذي يعرف شتى العلوم المتصلة بالحياة الدنيا من علم الفضاء، وعلم الطب، وعلم الفيزياء بأنواعه، وعلم الكيمياء بأنواعه، وبقية العلوم التي عرفها عبر تاريخه الحضاري وليس له نصيب من الحكمة النقلية يعد جاهلا، لأنه جهل الحقائق الكبرى المتصلة بالانسان وطبيعة خلقه، واهداف وجوده، ومكانته في الكون، والانسان ومصيره في اليوم الآخر. لذلك وصف الحق سبحانه وتعالى هؤلاء بالجهل والجاهلية كما يبدو لنا جلياً في الآيات الحكيمة التالية:

قال تعالى

«قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ» (١)

قال تعالى

«أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (٢)

«ان معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص. فالجاهلية -كما يصفها الله ويحددها قرآنه- هي حكم البشر للبشر لأنها هي عبودية البشر للبشر، والخروج من عبودية الله، ورفض الوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بالوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله. إن الجاهلية -في ضوء هذا النص- ليست فترة من الزمان ولكنها وضع من الاوضاع. هذا الوضع وجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غداً، فيأخذ صفة الجاهلية، المقابلة للاسلام، والمناقضة للإسلام. والناس في اي زمان وفي اي مكان- إما انهم يحكمون بشريعة الله -دون فتنة عن بعض منها- ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً، فهم إذن في دين الله. وإما انهم يحكمون بشريعة من صنع البشر- في اي صورة من الصور- ويقبلونها فهم إذن في جاهلية، وهم في دين من يحكمون بشريعته، وليسوا بحال في دين الله. والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية، والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية، ويعيش في الجاهلية» (٣)

١- سورة الزمر آية ٦٤.

٢- سورة المائدة، آية ٥٠.

٣- في ظلال القرآن، الجزء الثاني، ص٩٠٤.

العلم والحكمة:

ومما يجدر الاشارة اليه ان الحكمة تبنى على العلم اليقيني الثابت الذي لا ينتابه شك او جهل بغض النظر عن نسبة الشك أو الجهل لأنها مهما كانت ضئيلة فإنها تفسد الحكمة. ولا يمكن بأي حال من الاحوال ان تشيد الحكمة على فرضيات، ونظريات، وظنون، وتأملات، وتوقعات. لأن الحكمة تعني اتخاذ القرار أو الرأي السديد المبني على معلومات دقيقة ثابتة لا تحتمل الخطأ. لقد شاء الحق سبحانه وتعالى ان يبعث لنا الحكمة عن طريق كتبه ورسله دون توضيح جميع المعلومات ومجموعة المعارف التي بنيت عليها تلك الحكمة. وقد يكون السبب وراء ذلك يعود الى عدم قدرة الانسان على فهم واستيعاب تلك المنظومة الواسعة من المعلومات والمعارف. وإما قد يكون السبب لعدم قدرة اغلب الناس على اتخاذ الآراء الحكيمة حتى لو عرفوا تلك المعلومات لما وشجت عليه النفس الانسانية من الجدل والمناورة، وحب الالتفاف على الحقائق التي لا تناسب الاهواء الذاتية. هذا بجانب ان الباري عز وجل شاءت ارادته أن ينيب له ويستقيم على صراطه المستقيم المسلمون من البشر عن طريق ايمانهم به ومخافتهم منه دون رؤيتهم له أو للامور الغيبية التي جعلها بعزته وجلالة غيباً.

ان القرآن الكريم وصفه الحق سبحانه وتعالى بالحكيم لأنه يحتوي على الآيات القرآنية الحكيمة التي انبثقت عن حكمته سبحانه وتعالى والتي اسست على العلم اليقيني الثابت الذي لا ينتابه باطل ولا يتخلل اليه شك. ولو كان القرآن كما يدعي الخراصون بعيداً عن العلم لثبت بطلانه على مر السنين، ونجح الانسان في ساحة التحدي التي رسمها القرآن الكريم للناس الذين لا يؤمنون بهذا القرآن ومصدره الالهي. ومن الاسس الاساسية والمعجزة لهذا القرآن انه ينطلق بالعلم والحق على مر العصور مع اختلاف الانماط الحضارية والابداعية للانسان، لأنه لا ينتابه جهل، أو ضعف، أو شك يخشى ان يكتشف من خلال التقدم العلمي والحضاري للانسان، لذلك ليس غريباً أن نجد القرآن الحكيم يقدم المعلومات للانسان ويخاطبه في مطلع القرن الهجري الاول بالأسلوب والطريقة نفسها التي يخاطب بها الانسان في مطلع القرن الخامس عشر مع الاختلاف الحاد في المعلومات، والعلوم، والتقدم الحضاري بين الانسان في كلا القرنين، وسيبقى يخاطب ويقدم نفس المعلومات للاجيال القادمة بالطريقة نفسها والاسلوب مع تقدمها العلمي الهائل الذي سوف تحققه مع مرور

السنين. فجميع ذلك يدل على أن جميع ما في القرآن اسس وشيد على علم قاطع ذي دلالة ثابتة. لذلك اخبرنا الباري عز وجل ان هذا الكتاب الحكيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه جاء من عند العليم الحكيم.

قال تعالى

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (١)

وكيف يعوز القرآن الحكيم العلم وهو من عند العليم الخبير الذي وسع علمه السموات والارض ومن فيهن، ولا يغيب عنه شيء ولا يفوته شيء. فهو العلام الحكيم الذي لا يصدر عنه الا الحق، لعلمه الشامل بجميع ما في الوجود من موجودات، فالحق سبحانه وتعالى وصف لنا ذاته بأنه يعلم كل شيء، وان علمه قد وسع ما في الوجود من اسرار، ومكنونات، ومعلومات، فلا يعزب عنه شيء من الأشياء كافة.

قال تعالى

«إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا» (٢)

فالقرآن الكريم جاءنا من عند العليم الحكيم بشتى القضايا والامور المتعلقة بالوجود واسراره وجميع العلوم المتصلة بجميع موجوداته. وقد تم تفصيل هذا الكتاب المنير بناء على العلم الالهي المديد الذي لا تحده بداية او نهاية، المحيط بكل شيء في الوجود ومحتوياته.

قال تعالى

«وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (٣)

والحق ان العلم الذي جاء به القرآن الكريم للانسان بجانب الحكمة التي ينطوي عليها، لا يمكن للانسان ان يصل بطاقاته الذاتية لهذا العلم الذي ارسله المولى عز وجل بمثابة الهدى والنور للانسان عبر تاريخه ليخرجه من الظلمات الى النور.

١- سورة فصلت، آية ٤١- ٤٢.

٢- سورة طه، آية ٩٨.

٣- سورة الاعراف، آية ٥٢.

قال تعالى:
«إقرَأْ وَرَبُّكَ الأكرَم* الذي عَلَّمَ بالقَلَم* عَلَّمَ الإنسانَ ما لَم يَعلَم» (١)

فالانسان كغيره من المخلوقات له حدود وطاقات معينة جسدها فيه الخالق سبحانه وتعالى، ولا يستطيع ان يتجاوز هذه الطاقات والقدرات مهما حاول أن يأخذ بالاسباب لأنه ذو طاقات محدودة تقف واجمة عند حدود معينة. فالعلم الذي وصل للانسان عن طريق القرآن الكريم لا يستطيع الانسان بأية حال من الاحوال ان يصل الى هذا العلم معتمداً على قدراته وطاقاته الذاتية. ودليل ذلك يكمن في ان الامور التي لم يتم تعليمها للانسان من خلال القرآن الكريم بقيت مجهولة بالنسبة للانسان، وستبقى على هذه الحالة حتى يرث الحق سبحانه وتعالى الارض ومن عليها. ومن هذه الامور التي شدت انتباه الانسان وفشل في الوصول الى ماهيتها، الروح التي تسكن جسمه. لقد حاول الانسان بشتى الطرق والوسائل للوصول الى ماهية الروح ولم ينجح في ذلك، حتى ذهب الناس الى توجيه الاسئلة للرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه مستفسرين عن الروح وماهيتها. فجاء القول الفصل من الحق سبحانه وتعالى ليبين امر الروح ويوضح ان الانسان ما وصله من العلم الإلهي إلا القليل.

قال تعالى:
«وَيَسئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أَمرِ رَبّي وَما أُوتِيتُم مِنَ العِلمِ إلاّ قَليلاً» (٢)

فالانسان المسلم الذي يؤمن بالنهج الالهي القويم، وينطلق في شتى اموره الحياتية منيباً مستقيماً لهذا النهج المنير، يجب أن يؤمن ايماناً جازماً بالحكمة النقلية التي جاءت عن طريق القرآن الكريم وسنة نبينا الحبيب، وينعم في نورها ويعيش في ظلالها، هذا بجانب بذل الجهود الحثيثة في طلب العلم، والبحث والتنقيب، والدراسة في شتى العلوم المتعلقة بالحياة الدنيا للوصول الى المنابع الاساسية للحكمة المكتسبة، والتي يستطيع ان يصل اليها الانسان بقدراته الذاتية التي جسدها فيه الحق سبحانه وتعالى. وبهذا يكون الانسان في هذه الحالة قد استفاد من الحكمتين النقلية والمكتسبة بما يعود عليه بالفائدة في كلتا الدارين.

---

١ - سورة العلق، آية ٣-٥.

٢ - سورة الاسراء، آية ٨٥.

أما بالنسبة للذين يقحمون انفسهم وعقولهم في الامور التي لا يقوى عليها الانسان لأنها خارج طوق وسائله وقدراته فإنهم يصدفون عن الطريق القويم الذي يقود الانسان الى سدرة الحق والصواب. ان الحق سبحانه وتعالى نهى عباده المخلصين عن الخوض في الامور التي لا يستطيع علم الانسان ان ينفذ اليها، لما يعكسه من آثار سلبية على حقيقة الامور والقضايا التي يجب أن تشكل اسس الاعتقاد السليم عند الانسان الذي يقف عند حدود الطاقة الانسانية.

قال تعالى:

«ولا تَقفُ ما لَيسَ لكَ بِهِ عِلمٌ إنَّ السَّمعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ عَنهُ مَسئُولاً» (١)

ومما يؤسف له حقاً ان كثيراً من الناس قد ذهبوا الى الحديث، والتأمل، واثارة الشكوك والظنون حول القضايا التي تعد خارج قدرات البشر، لقد تحدثوا عن الامور الغيبية ومكنوناتها وكأنها واقع محسوس، مما أدى بهم الى الاعتقاد بالامور والقضايا المتناقضة التي لا يجمع بينها جامع سوى الفلتات الذهنية، والتخرصات الظنية، وتأملات اصحاب الشهوات وتخيلاتهم، فقد تعددت بهم السبل والآراء حتى ابتعدوا عن حقيقة الأمر وسداده.

ان الذين يصلون الى درجات متقدمة من العلم هم اقدر الناس على التيقن من حقيقة القرآن الحكيم وما يحتوي عليه من علم الهي. فهم الذين يعرفون تمام المعرفة ان هذا القرآن لا يمكن أن يكون بأي حال من الاحوال إلا من عند الحق سبحانه وتعالى وذلك لأنه يحتوي على علوم وحكمة لا يمكن للانسان ان يصل اليها عن طريق قدراته الذاتية. لذلك ليس غريباً ان نجد عشرات العلماء الافذاذ من مختلف التخصصات المعرفية ومن مختلف شعوب الكرة الارضية قد ساقهم علمهم الى الايمان بالقرآن الحكيم مصدراً ومضموناً.

قال تعالى:

«هُوَ الذي أنزَلَ عَلَيكَ الكِتابَ مِنهُ آياتٌ مُحكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأمَّا الذينَ في قُلُوبِهِم زَيغٌ فَيَتَّبِعونَ ما تَشابَهَ مِنهُ ابتِغاءَ الفِتنَةِ وابتِغاءَ تأويلِهِ وَما يَعلَمُ تأويلَهُ إلاّ اللهُ والرّاسِخونَ في العِلمِ يَقُولُونَ آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إلاّ أُولُوا الألبابِ» (٢)

---

١ - سورة الاسراء، آية ٣٦.

٢ - سورة آل عمران، آية ٧.

ويجدر بنا بعد الذي قدمناه من حقائق حول القرآن الحكيم ومصدره الالهي ومحتواه الذي يزخر بالعلم والحكمة النقلية. ان نشير الى اعداء الحق والحقيقة الذين يعدون القرآن العربي الحكيم وسنة نبينا الامين مبعثاً للتخلف والانحطاط وحاجزاً يحول دون التقدم ومجاراة الامم الاخرى. اننا قد لا نلومهم كثيراً على هذا السلوك طالما اننا نعرف تمام المعرفة انهم يجهلون حقيقة القرآن الكريم وما ثبت من سنة رسولنا الكريم. انهم فهموا الاسلام كتاباً وسنة من خلال الممارسات المشوهة التي يقوم بها لفيف من الناس هنا وهناك، إذ أسست هذه الممارسات الشاذة على التأويلات الجائرة للنصوص القرآنية والدس في سنة نبينا الكريم وتأويلها بما ينسجم مع اهوانهم واهواء سادتهم عبر تاريخهم الطويل في تعاملهم مع النهج الاسلامي. لذلك امسى الاسلام مشوهاً في اذهان عامة الناس. إنه لا بد من التمييز الواضح بين الاسلام الحقيقي الذي يشيد بنيانه الناطع على الكتاب الكريم والسنة النبوية في شتى امور الحياة وبين الممارسات التي يقوم بها الناس والتي تتصل فقط ببعض الامور الاسلامية تاركين وراء ظهورهم الامور التي تشكل الهيكل الاساسي والبنية الأساسية الخلقية للمجتمع الاسلامي. فالاسلام الحقيقي هو منارة العلم ومحطة انظار العلماء والباحثين، ولا ينتج عنه الا مجتمعاً اسلامياً يتميز بالعدل، والايثار، والتعاون، والتماسك، والحب، والتضحية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والى غيرها من السمات الاسلامية الغراء التي تعكس ذاتها داخل المجتمع المسلم. أما ما نراه من ظلم، وكذب، وفسق، وفجور، وخيانه، وغش في هذه المجتمعات الحالية فهي نتيجة للانحرافات الحادة التي استقرت في اذهان الناس وليس لها أية علاقة بالنهج الاسلامي المنير.

ولكن شياطين الانس والجن ومن استهوته طريقتهم ذهبوا الى نصب شراك العداء للحق، والعلم، والحكمة النقلية التي يفوح بها النهج الاسلامي عبر تاريخ البشرية. ولو اراد الحق سبحانه وتعالى لما فعلوا ذلك. ولكن حرية الاختيار التي وهبها الحق سبحانه وتعالى للانس والجن دون سائر مخلوقاته جعلتهم يمارسون شتى الاساليب والطرق المشبعة بالعداء والكراهية للنهج الاسلامي الذي يفيض بالعلم والحكمة. ومن اساليب العداء السرمدية التي يكنها هذا الفريق ضد الحق واتباعه، اثارة الشكوك والمفتريات حول النهج الاسلامي المنير. وقد تجد هذه المناورات المنحرفة قبولا تاماً عند الذين في قلوبهم مرض والذين غرتهم الحياة الدنيا

بزخرفها وزينتها. ودليل هذه العداوة يبدو ظاهراً جلياً في قوله عز من قائل:

«وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ» (١)

مصادر الحكمة:

لقد شاءت حكمة الحق سبحانه وتعالى أن يبعث لنا الرسل والانبياء تترى بالكتاب والحكمة لينير للانسان السبل ويتركه يختار بنفسه بعد أن جسد فيه الملكة العقلية ووهبه حرية الاختيار. والشيء المؤسف حقاً أن الانسان بشكل عام عبر تاريخه مع الانبياء والرسل كان منابذاً للحكمة التي بعثها الحق سبحانه وتعالى رحمة وتلطفاً بعباده. بهدف مساعدتهم على اختيار أفضل السبل المؤدية الى سدرة الحق والصواب في الدارين؛ الأولى والآخرة. فقد ذهب الانسان الى الاستهزاء بالرسل والاستخفاف بهم وبكل ما جاءوا به من عند الحق سبحانه وتعالى. حتى الكتاب الحكيم الذي بعثه لنا الحق سبحانه وتعالى كان موضعاً لتكذيبهم واثارة شكوكهم. وقد بين لنا الباري سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم قد جاءنا من لدن حكيم، خبير، عليم لا ينتابه الباطل مطلقاً لأنه أسس بنيانه على علم، وخبرة، وحكمة الهية لا يعزب عنها شيء.

قال تعالى

«الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (٢)

قال تعالى:

«تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» (٣)

وطالما أن القرآن الكريم قد بني وأسس على علم الله سبحانه وتعالى وحكمته المطلقة فإن الحكيم سبحانه وتعالى وصف لنا كتابه الكريم، بالحكيم، وآياته، بالحكيمة. كيف لا وهي تنطق بالحق المبين الذي لا يتسلل اليه الشك أو الخطأ، أو الفساد.

---

١ - سورة الانعام، آية ١١٢ - ١١٣.

٢ - سورة هود، آية ١.

٣ - سورة الزمر، آية ١.

قال تعالى:

«الر تلك آيات الكتاب الحكيم» (١)

قال تعالى:

«يس * والقرآن الحكيم» (٢)

لقد كانت مهمة خاتم الانبياء والمرسلين صلوات الله عليه وسلامه مثل غيره من الانبياء والرسل تعليم الانسان الكتاب والحكمة لينير له سبل السلام، والوئام، والمحبة، والايثار، والتضحية، والتعاون، والاخاء، والعدل، والفوز بنعيم الدنيا والآخرة. ولقد لقي صلوات الله عليه من الاساءة، والتكذيب، والتطريد، والتشهير، وحبك المؤامرات لقتله -فقط- لأنه يود أن يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويوصلهم الى سدرة الحق في الدنيا والآخرة. وبدلا من تقديم جزيل الشكر والامتنان للحق سبحانه وتعالى لبعثه فيهم رسولا منهم مخلصاً لهم واميناً على اسرارهم واماناتهم، ونموذجاً يحتذى بخلقه وعطفه ورحمته، ذهبوا الى منابذته والوقوف في طريقه بشتى السبل والطرق الشريرة التي عرفها البشر.

قال تعالى:

«لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» (٣)

قال تعالى:

«هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» (٤)

ومما يهيج الاسى ويفجر القلوب دماً، أسفاً وندماً أن المسلمين قد أبتعدوا عن مصدر الحكمة النقلية المتمثل بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عندما حاولوا البحث عن المعلومات والاسباب والمسببات التي ترتكز عليها الحكمة النقلية مما جعلهم يقحمون العقل الانساني بأمور خارج طوق وسائله مما أثار بينهم الاختلافات

١- سورة يونس، آية ١.

٢- سورة يس، آية ١-٢.

٣- سورة آل عمران، آية ١٦٤.

٤- سورة الجمعة، آية ٢.

الطائفية وتعددت آرائهم واعتقاداتهم حول القضية الواحدة، حتى تاهت بهم السبل وتقطعت بهم الاسباب، فكان من الأجدر بنا معشر المسلمين أن نعيش بنعيم الآيات القرآنية الحكيمة وفي ظلال السنة النبوية الطاهرة دون تأويل النصوص واخراجها عن مسارها القويم، والتأويلات الجائرة للسنة النبوية الشريفة، وبعد الاعتماد الكلي على مصدر الحكمة النقلية (الكتاب والسنة النبوية) يجب أن توجه جميع الطاقات لنيل العلوم والمعارف المتعلقة بالحكمة المكتسبة التي تتصل بشتى الأمور والقضايا المتعلقة بالحياة الدنيا ليقوم الإنسان المسلم بمهام الخلافة في الأرض على أفضل نموذج وأحسن سبيل.

ولكن الهوى الذي تموج به النفوس البشرية كان وراء الانحراف الحاد عند المسلمين، حيث ذهب رجال الهوى والشهوة الى تحرير الفتاوى الجائرة والدس في السنة النبوية الشريفة بما ينسجم مع أهواء أسيادهم لتثبيت دعائم الحكم والسلطان للذين لا يستحقونه، والذي سنحت له الظروف أن يجتلي تاريخ المسلمين وكيف تعاملوا مع الاسلام. لا يفاجىء بما يفرزه الواقع الهابط من أمور تدل على الفساد العظيم الذي يستشري في جسد ابناء المجتمع؛ إذ نجد التخبط الواضح والتناقض الصارخ بين الشعارات الاسلامية والوطنية المرفوعة من جهة وبين الممارسات الشاذة التي يمارسها ابناء المجتمع في شتى أمورهم الحياتية. وهذا التناقض الذي دفع أمير الشعراء أحمد شوقي ليستنكر هذا الوضع حيث يقول:

شعوبك في شرق البلاد وغربها	كأصحاب كهف في عميق سبات
بايمانهم نوران ذكر وســـــنة	فما بالهم في حالك الظلمـــات

في الوقت الذي حاول فيه دعاة الاصلاح الى توضيح هذا التناقض للناس وحثهم على الاعتماد على مصدري الحكمة النقلية، الكتاب والسنة النبوية، وطرح التناقض جانباً بين الاعتقاد والسلوك، ذهب المرجفون والذين في قلوبهم مرض إلى إثارة الشكوك والأقاويل الباطلة حول الاسلام عن طريق التعريض لكتاب الله على أنه لا يناسب هذه المرحلة الحديثة من الحضارة الانسانية وأنه بحاجة الى تحديث ليناســـب ظروف المرحلة الحالية، والشيء المذهل حقاً الذي يكشف مدى تخبطهم، وعدم وعيهم وحقدهم على الاسلام أنهم عدوا القرآن الحكيم والسنة النبوية الشريفة مثالا للتخلف والرجعية، وانهما يحولان دون التقدم الحضاري الحالي الذي تشهده الشعوب المعاصرة. فقد طالبوا علناً بالتخلي عن مصدر الحكمة

النقلية ليتسنى لهم ما ترنوا له النفوس وتطيب له خواطرهم.

وفي ظلال هذه المعطيات الحاقدة ظهرت مجموعة من الكتاب لتقدم الاسلام الحديث والمعاصر بطريقة تنم على ضعف هؤلاء الكتاب في فهم حقيقة الاسلام من جهة وفهم حقيقة المجتمعات الحالية من جهة أخرى.

ان السبيل السليمة لعلاج ما نحن فيه من ضعف وفساد يكمن في ازالة التناقض بين ما ترفع من شعارات وما تمارس من انماط سلوكية، وذلك عن طريق الاعتماد الكلي على مصدري الحكمة، الكتاب الحكيم والسنة النبوية الطاهرة، وشحذ الهمم في طلب العلم والمعرفة في شتى دروب المعرفة والقضايا الحياتية التي نعيش وبهذا العمل نكون قد سعدنا بنعيم الحكمتين، الحكمة النقلية، والحكمة المكتسبة.

الحكمة والدعوة:

إن الدعوة الى النهج الاسلامي ليست بالأمر السهل اليسير الذي يستطيع القيام به كل انسان بغض النظر عن طاقاته وقدراته وحصيلة معارفه. فالدعوة لهذا النهج كانت مهمة اصفياء البشر الذين اختارهم الحق سبحانه وتعالى ليعلموا الناس الكتاب والحكمة، ويبشروهم وينذروهم لقاء اليوم الآخر وما سيكون فيه من ثواب وعقاب، كل حسب ما عملت يداه في الحياة الدنيا. وبعد أن ختم المدد الرسالي بخاتم الانبياء والرسل أصبحت هذه الدعوة مهمة أمناء الرسل، وهم الفقهاء المخلصون الذين أنابوا واستقاموا للنهج المنير، ولا يخشون في الحق لومة لائم لفهمهم الساطع السليم لحقيقة النهج الاسلامي وما يعكسه في نفوس اتباعه من أنماط سلوكية وفكرية متميزه، ملؤها الصدق، والأمانة، والاخلاص، والتضحية لمبادىء هذا النهج. فالذي يود أن يدعو للنهج الاسلامي لا بد له من الوقوف على جميع الحقائق العلمية التي ينطوي عليها والحكمة التي يفيض بها النهج ليغدو قادراً على فهم حقيقة هذا النهج الذي يغرس في اذهان اتباعه فهماً دقيقاً للحياة الدنيا وما تجسد فيها من مفاتن وشهوات، وحقيقة الآخرة وما ينتظر الانسان فيها من ثواب وعقاب، وطبيعة النفس الانسانية وخصائصها، ونظرة الانسان الى الحقيقة وكيف تعامل معها عبر تاريخه، ودور العقل الانساني في الوصول الى الحقيقة، ومعرفة الخلافات الجوهرية واسبابها بين النهج الاسلامي والنهج البشري المتمثل في المدارس الفكرية والمذهبية التي ابتدعها الانسان عبر تاريخه.

ان جميع هذه القضايا تشكل في نفس الداعية فهماً حقيقياً متميزاً تمكنه في اختيار أفضل وانجح الاساليب وطرق الحوار في دعوة أخيه الانسان الى الحق الذي بعثه الحق سبحانه وتعالى هدى للعالمين.

أما إذا كان هناك نقص عند الداعية في فهم طبيعة النهج الإلهي وخصائصه التي تميزه عن غيره من الأطر الفكرية فإن هذا النقص سوف يعكس نفسه في سلوك الداعية ومدى فهم المدعوين لطبيعة النهج وخصائصه مما يؤدي بالتالي الى سوء فهم النهج الاسلامي على حقيقته في اذهان الناس وظهور الانقسامات الفكرية بينهم، وتتعدد بهم السبل، حيث يغدو كل حزب بما لديهم فرحون.

فالدعوة الى النهج الاسلامي تحتاج من الداعية ان يكون ملماً بشتى الامور والمعلومات، والعلوم التي تمكنه من ان يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة وان يجادل بالتي هي أحسن مصداقاً لقوله تعالى:

«ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» (١)

«على هذه الاسس يرسي القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها، ويعين وسائلها وطرائقها، ويرسم المنهج للرسول الكريم، وللدعاة من بعده بدينه القويم، فلننظر في دستور الدعوة الذي شرعه الله في هذا القرآن. ان الدعوة، دعوة الى سبيل الله، لا لشخص الداعي ولا لقومه. فليس للداعي من دعوته الا أنه يؤدي واجبه لله، لا فضل له يتحدث به، لا على الدعوة، ولا على من يهتدون به، وأجره بعد ذلك على الله.

والدعوة بالحكمة، والنظر في احوال المخاطبين وظروفهم والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها. فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه وبالموعظة الحسنة التي تدخل الى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الاخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية. فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ، وبالجدل بالتي هي أحسن، بـلا

١ - سورة النحل، آية ١٢٥.

تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح حتى يطمئن الى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل ولكن الاقناع والوصول الى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه الا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها عند الناس، فتعد التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وان الداعي لا يقصد الا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء اليها في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر، ولكي يطامن الداعية من حماسته واندفاعه يشير النص القرآني الى أن الله هو الاعلم بمن ضل عن سبيله وهو الاعلم بالمهتدين. فلا ضرورة للحاجة في الجدل انما هو البيان والأمر بعد ذلك لله»(١)

ويرى العلامة الطباطبائي رحمه الله في هذا الموضوع «والتأمل في هذه المعاني يعطي أن المراد بالحكمة -والله أعلم- الحجة التي تنتج الحق الذي لا مرية فيه ولا وهن ولا ابهام، والموعظة هي البيان الذي تلين به النفس، ويرق له القلب لما فيه صلاح السامع من العبر، وجميل الثناء ومحمود الأثر ونحو ذلك.

والجدال، هو الحجة التي تستعمل لفتل الخصم عما يصر عليه وينازع فيه من غير أن يريد به ظهور الحق....فينطبق ما ذكره تعالى من الحكمة، والموعظة، والجدال، بالترتيب على ما أصطلحوا عليه في فن الميزان بالبرهان والخطابة والجدل غير أنه سبحانه قيد الموعظة بالحسنة، والجدال بالتي هي أحسن ففيه دلالة على أن من الموعظة ما ليست بحسنة ومن الجدال ما هو أحسن وما ليس بأحسن ولا حسن، والله تعالى يأمر من الموعظة بالموعظة الحسنة ومن الجدال بأحسنة»(٢)

ومن المؤسف حقاً أن نجد كثيراً من الذين يدعون الى الله لا يتبعون هذا النهج الرسالي النبيل الذي يدعوهم الى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن، فذهبوا الى الدعوة بطريقتهم الخاصة التي تعكس مقدار حماستهم تارة ومقدار أقحامهم العقل في أمور لا يقوى عليها العقل الانساني بحجة الواقع الذي نعيش وطبيعة الظروف والملابسات الفكرية والاجتماعية والسياسية التي يعيشون تحت وطأتها تارة أخرى. هذا بجانب عدم الالمام التام بالنهج الاسلامي عند قسم

١ - في ظلال القرآن، الجزء الرابع، صفحة ٢٣٠١ - ٢٣٠٢.

٢ - الميزان في تفسير القرآن، المجلد الثاني عشر، صفحة ٣٧١ - ٣٧٣.

منهم مما جعلهم يتخبطون يميناً ويساراً تبعاً للظروف المحيطة بهم ومن الأفضل لنا جميعاً ان نترك مهمة الدعوة للذين أوتوا نصيباً من العلم والحكمة من الحق سبحانه ليكونوا خير الداعين إلى هذه السبيل، وهذا النهج الاسلامي المنير. ويكون همنا الوحيد في التفكير والتخطيط في كيفية الالتفاف حولهم ومناصرتهم على اعدائهم ليشقوا طريقهم في تثبيت دعائم العدل في الأرض عن طريق تطبيق مبادىء الاسلام بين الناس وبهذا التفكير الجاد والسلوك السليم يكون كل فرد منا قد تبوأ مكانه الطبيعي في مناصرة الحق واهله، والذود عن الاسلام والدفاع عن مبادئه حسب ما أتاه الله سبحانه وتعالى من قدرات وامكانات، وهذه السبيل هي التي توصلنا الى ما ترنو اليه أفئدة المسلمين في فجاج الكرة الأرضية.

الخلاصة:

فالحكمة تعني اختيار القرارات وتبني الآراء واختيار الاساليب والطرق السلوكية في ضوء معرفة تامة أسست على علم ثابت لشتى الجوانب المتعلقة في الشيء الذي يود الانسان أن يختار فيه قراراً، أو يتبنى رأياً، أو يتخذ نمطاً سلوكياً، والانسان بحاجة ماسة الى الحكمة في جميع القضايا الاساسية المتصلة في الدنيا والآخرة فهو يحتاج الى كلا النوعين من الحكمة، الحكمة النقلية ومصدرها الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة، والحكمة المكتسبة ومصدرها أمهات الكتاب ودور المعرفة، والجهد البشري الحثيث في طلب المعرفة، وهناك علاقة تامة بين الحكمة والعلم حيث تبنى الحكمة على علم ثابت لا يشوبه نقص بأي حال من الاحوال. والذي يود أن يدعو الى النهج الالهي لا بد له من أن يتمتع بقدر من الحكمة يستخدمها في دعوته للناس ويختار أفضل الاساليب والطرق المؤدية الى تحقيق أهدافه.

المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- ابو السعود العمادي، تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣- أبو القاسم الزمخشري، الكشاف، دار المعرفة، بيروت.

٤- السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، دار الكتاب الاسلامي، قم، ايران، ١٩٧٢.

٥- حسن ابراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٨٥.

٦- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ١٩٨٠.

٧- عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفي في الاسلام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤.

٨- فيصل بدير عون، الفلسفة الاسلامية في المشرق، مكتبة الحرية الحديثة، ١٩٨٢.

٩- ماجد عرسان الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية الاسلامية، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٧٨.

١٠- محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨١.

١١- محمد حسين فضل الله، اسلوب الدعوة في القرآن، دار الزهراء، بيروت، ١٩٨٢.

١٢- محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢.

١٣- نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

الفصل السادس

الإسلام والقومية

الإسلام والقومية

تهدف هذه الدراسة الى توضيح العلاقة بين الاسلام والقومية، لما لهذه العلاقة من اثار واسعة النطاق على مجريات الاحداث على المستويين العالمي والإقليمي حاضراً ومستقبلا. وقد أشار الباحث الى حقيقة الاسلام ومبادئه الاساسية، كما بين حقيقة القومية عن طريق عرض الاقتباسات التي تمثل اراء زعماء القومية على اختلاف قومياتهم. واخيراً وضح الباحث علاقة الاسلام بالقومية منذ عهد سيدنا نوح عليه السلام حتى يومنا هذا. وقد تبين ان شعار القومية يمثل أقدم شعار رفعه الانسان مقابل الهدى الذي وعد الحق سبحانه وتعالى به ذرية آدم. وما زال هذا الشعار يرفع لنفس الهدف والغاية.

الإسلام والقومية

المقدمــــة:

تعد العلاقة بين الإسلام والقومية من أهم المواضيع التي يجب إماطة اللثام عن حقيقتها، لما لهذه العلاقة من آثار واسعة النطاق على مجريات الأحداث في دول العالم بشكل عام ودول العالم الثالث بشكل خاص. وبالرغم من قدم هذه العلاقة، فإنها ما زالت غامضة في أذهان أغلب الناس، لذا استغلت أبشع أنواع الاستغلال من الذين لا يريدون إلا الشر والسوء للإنسان والإسلام. وقد تراكمت الأحداث التاريخية عبر التاريخ وازدادت حدة في هذه الأيام انعكاساً لما استقر في أذهان الناس من معلومات خاطئة حول نوع هذه العلاقة. وقد استغل المستشرقون هذه العلاقة بشتى الأساليب والطرائق عن طريق إذكاء الشعور القومي بين الأقوام التي تدين بالإسلام بهدف الوصول الى ما تتوق له الأنفس الأجنبية الحاقدة على الإسلام أولا وعلى الشعوب التي تدين بالإسلام ثانياً. ومن المؤسف حقاً أنهم قد حققوا الهدف الذي كان بالنسبة لهم بمثابة الأمنية التي يريدون أن ينظروا من خلالها الى الإسلام وهو مشوه في أذهان المسلمين والى الاقوام التي تدين به وهم تبع لهم في مختلف مجالات الحياة. وهذا ما تحقق لهم بالكامل في القرن العشرين بعد إثارة النعرات القومية والطائفية بين الأقوام الذين كانوا يدينون بالإسلام في ظلال الخلافة العثمانية، حتى ذهب المسلم من هؤلاء الأقوام يحارب أخاه المسلم مخالفاً بذلك النصوص القرآنية الكريمة منشداً الى نظرية العرق التي زرعها أعداء الإسلام والشعوب في نفوس المسلمين، بهدف القضاء على الإسلام واستغلال الشعوب التي تدين به. وهذا ما حصل فعلا إذا ما تأملنا وعد بلفور ومعاهدة سايكس بيكو وما انعكس عنهما في أذهان الناس في هذه المنطقة من منطلقات فكرية. فكلهم يلعنهما كلاماً ويحافظ على ما جاء فيهما من إثارة نعرات إقليمية وعرقية فعلا وسلوكاً،هذا بجانب الحفاظ التام على الحدود المصطنعة التي شيدت بناء على ما جاء في المعاهدتين السابقتين. وقد يجري بنا سياق الحديث لنرى في الجهة الأخرى ماذا حدث للمسلمين الأتراك بعد أن أشرنا باقتضاب الى ما حدث لإخوانهم العرب المسلمين، بعد هزيمة دولة الخلافة في تركيا عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى، حين لم يكتف أعداء الإسلام والشعوب بتقسيم المنطقة العربية الى مناطق نفوذ تابعة للإنجليز والفرنسيين، هذا بجانب إرساء

قواعد دولة إسرائيل على حساب الشعب العربي الفلسطيني المسلم، وإنما ذهبوا ليضعوا شروطهم التي تعكس عداوتهم للإسلام واللغة العربية، إذ أملى الإنجليز شروطهم الأربعة، المعروفة بشروط كروزون. وهذه الشروط هي:

١ - أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام
٢ - أن تلغي الخلافة
٣ - أن تتعهد بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة
٤ - أن تختار تركيا لنفسها دستوراً مدنياً بدلا من الدستور العثماني المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية والقائم على قواعدها.(١)

لذلك اختارت تركيا الدستور المدني السويسري، واستخدمت الحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية، ومنعت إقامة الأذان باللغة العربية، ومنع تعليم الدين والقرآن في المدارس، تنفيذاً لهذه الشروط. ولذلك ظهر الاتجاه القومي عند مختلف الأقوام التي تدين بالإسلام في قارتي آسيا وافريقيا وظهرت انعكاسات الأفكار الغربية التي تحاول هدم الإسلام في شتى مناحي الحياة في تلك الدول التي وجدت نفسها تحت أقدام عدوها منهوكة القوى عسكرياً واقتصادياً وحضارياً بسبب الفكر القومي المسموم الذي نفثه الغرب في أذهان أبناء الأمة الواحدة، ليجد كل قوم منهم مصيره البائس أمام الهجمة الغربية الشرسة على كل ما يعتز به من حضارة وتاريخ وثقافة، وليجد أبناء كل قوم أنهم أصبحوا تبعاً لسادتهم في كل سمة من سمات العصر.

إن الشيء المذهل حقاً أن نجد بعض الأقلام الجاهلة أو المأجورة، والأفواه الحاقدة أو المعبأة دون علمها قد ذهبت جميعها لتنادي بإعدام الإسلام وتعاليمه وكل من يتخذه نهجاً متذرعين أن سبب تخلفهم في شتى مناحي الحياة يعود الى هذا النهج الإلهي المنير، فلم يكفهم أنهم كانوا أدوات في أيدي أعداء الأمة الإسلامية عندما استخدموا في إثارة النعرات القومية والإقليمية بهدف القضاء على الأمة الإسلامية، بل إنهم مصرون على هذه المكانة الوضيعة في خدمة أعداء الإسلام لهدم أركان الإسلام وكل من ينادي باتخاذه نهجاً حياتياً بعد أن نجحوا على أيدي سادتهم في تمزيق جسد الأمة المسلمة. فكلنا يعرف أن الإسلام الحقيقي هو المحارب في

١ - د. عبد الستار فتح الله، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، جمهورية مصر العربية، صفحة ١١٤.

شتى أرجاء المنطقة العربية والإسلامية بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الحضارة الإنسانية.

إن التناقض الذي تعج به المجتمعات العربية والإسلامية يعود بشكل كبير إلى سوء الفهم للعلاقة التي تربط الإسلام بالقومية، سواء أكانت القومية عربية أم أعجمية. ولما لهذا الموضوع من آثار واسعة النطاق على حاضر الأمة الإسلامية ومستقبلها فإننا سوف نتناول هذا الموضوع بالبحث والدراسة الموضوعية للوصول بعون الله الى حقيقة هذه العلاقة وما يترتب عليها من اعتقادات وممارسات. لذلك فإننا سنعرض في هذه الدراسة نبذة تاريخية موجزة عن الإسلام والتعريف به وسمات المجتمع المسلم، ونبذة تاريخية عن القومية وسمات المجتمع القومي، ونبذة تاريخية موجزة عن العلاقة بين الإسلام والقومية.

حقيقة الإسلام

تجدر بنا الإشارة في هذه الدراسة الى حقيقة الإسلام كما وضحها الحق سبحانه وتعالى في كتابه المنير، علنا في هذا التوضيح نسهم بالقدر المستطاع في توضيح الفرق الشاسع بين الإسلام والقومية بشكل عام، والإسلام والعروبة بشكل خاص. وقد استبدل بالمفهوم الحقيقي للاسلام مفاهيم غريبة عن أسس الإسلام بهدف الوصول الى ما تشرئب له النفوس من ملذات وأطماع شهوية على حساب المفهوم الحقيقي للإسلام وتعاليمه المؤثلة المجيدة. وقد حاول جم غفير من الكتاب والمؤلفين والساسة والمفكرين الاستخفاف بعقول العامة في تمييع المفاهيم الحقيقية للإسلام والاستبدال بها مفاهيم شاذة تناسب أهواءهم وأطماعهم الدنيوية بعد أن ألبسوها أزياء إسلامية مملوءة بالزيف والخداع. إنه لا بد من الإفصاح عن مدلول هذه الكلمة بكل السبل والطرق المتاحة بعد أن أصبح الإنسان الملتزم بما يملية عليه الإسلام من عقائد وأنواع سلوك، يشار اليه على أنه رجعي تارة، ومتطرف تارة أخرى، هذا بالإضافة الى وصفه بالتخلف والتزمت، والتشدد، والتعصب واذا ما حاول هذا الإنسان ان يدفع عن نفسه هذه التهم المغرضة بالحجة والبرهان مستنداً بذلك الى ما جاء في الكتاب الحكيم، وجد نفسه أمام عدو أشر يمتلك القدرة على إلصاق شتى التهم والادعاءات الباطلة حوله، هذا بالإضافة الى إنزال شتى أنواع العقوبات والتهديدات اذا ما رفض الاستقطاب نحوهم عن طريق شرائه بالأموال واغوائه بالمراكز الوظيفية. تبدأ هذه المناورات غير الأخلاقية بالمطاردة والاستجواب

مروراً بتضييق سبل العيش عن طريق الطرد من الوظائف حتى تنتهي في بعض الأحيان الى الإهانة في أقبية السجون وتقديم الأعناق إلى أعواد المشانق. والعجب الذي لا يربو عليه عجب أن كل هذه الاعمال المخزية التي تعجز الكلمات عن وصف وحشيتها وقبحها تحدث على مرأى ومسمع الناس كافة تحت شعارات القومية والإسلام. وبهذه الأعمال الغوغائية المتناقض بعضها مع بعض التي اباحت دم الأبرياء والمخلصين من أمة محمد، يكون أصحاب القرارات ومنفذوها قد برهنوا على صدق ولائهم لأعداء الإسلام، وعلى هذه الجرائم البشعة استحقوا الحماية الأجنبية لهم من شعوبهم المغلوبة على أمرها. ولكي يخفوا هذه الحقيقة- حقيقة ولائهم لأعداء أمتهم- ذهبوا الى الحديث وإلقاء الخطب والأهازيج الوطنية التي تظهر وطنيتهم وحبهم لأمتهم وعقائد مجتمعاتهم ليضلوا بها السواد الأعظم من الناس. وإن التاريخ الإسلامي يغص بالمعلومات الجمة الوفيرة عن علماء التوحيد وأبناء القرآن البررة الذين دفعهم إيمانهم الى ركوب الأخطار عن طريق كشف العابثين المشوهين لحقيقة الإسلام، وكان ثمن ذلك أن قدموا أعناقهم أضاحي للحق والدفاع عن بيضة الإسلام. وقد كتمت جميع فضائلهم وتم تحريرها الى مثالب بهدف الاستخفاف بعقول العامة والسيطرة عليها بالأوهام والمفتريات التي تحررها وسائل إعلامهم.

إن الحديث قد يطول إذا أردنا أن نصف الممارسات اليومية للأفراد والجماعات في المجتمعات التي تعج وتموج بالتناقضات حول الإسلام والقومية، ولكننا سوف نكتفي بهذا العرض الموجز السريع للوصول الى المراد، دون الإسهاب والإطناب.

إن الإنسان شهد على نفسه بالحقيقة الأولى التي ينادي بها الإسلام قبل وجوده التاريخي والمادي على سطح الكرة الأرضية، إنه شهد بألوهية الحق تبارك وتعالى وهو في السموات العلى، وهو في عالم الذر عندما أشهد الحق سبحانه وتعالى ذرية آدم على أنفسهم، فشهدوا له بالربوبية والألوهية.

قال تعالى:

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ» (١)

١ - سورة الاعراف، آية ١٧٢.

وبعد أن تقرر إذن الهبوط لآدم وحواء وعدوهما إبليس الى الأرض، وعد الحق سبحانه وتعالى بنى آدم أن يبعث لهم النهج السديد الذي يقودهم الى سدرة الحق والصواب ويخفف عنهم شقاء الحياة الدنيا والفوز بنعيم الآخرة. إن الهبوط من السماء الى الأرض يشكل العناء والتعب والكد والمكابده، والشقاء للانسان، ولكن الإنسان لم يذعِن الى توجيهات الحق سبحانه وتعالى عندما أمرُه أن يتخذ الشيطان عدواً وأن لا يقرب الشجرة التي أمره بالابتعاد عنها. فكانت مخالفته لأوامر الله سبحانه وتعالى السبب وراء هبوطه مع عدوه الأشر إبليس عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين. فجاء هذا الوعد من الحق سبحانه وتعالى لآدم وذريته بمثابة العطف والرحمة الإلهية لهذا المخلوق الضعيف أمام عدوه إبليس ليتبع الهدى الذي سيرسله الحق سبحانه وتعالى للإنسان على سطح الكرة الأرضية ليقوي من قدرته على مقاومة وساوس وأحابيل عدوه السرمدي الذي لا يفارقه قيد لحظة.

قال تعالى:

«قُلنا اهبِطوا منها جميعاً فإمَّا يأتِيَنَّكُم منّي هُدىً فمن تبعَ هُدايَ فلا خوفٌ عليهِم ولا هُم يحزَنونَ * والذينَ كفَروا وكذَّبوا بآياتِنا أُولئِكَ أصحابُ النّارِ هُم فيها خالِدونَ» (١)

إن هذا الهدى الذي يمثل النجاة الحقيقية للإنسان على هذا الكوكب ويخلصه من شرور عدوه ويقوده إلى الفوز بنعيم الدنيا والآخرة سيصل الى الإنسان عن طريق الرسل الذين اختارهم الحق سبحانه وتعالى ليكونوا منذرين ومبشرين للإنسان.

قال تعالى:

«يا بني آدَمَ إمَّا يأتِيَنَّكُم رُسُلٌ مّنكُم يقُصُّونَ عليكُم آياتي فمَنِ اتَّقى وأصلَحَ فلا خوفٌ عليهِم ولا هُم يحزَنونَ * والذين كذَّبوا بآياتِنا واستَكبَروا عنها أولئِكَ أصحابُ النّارِ هُم فيها خالِدونَ» (٢)

إن الهدى الذي جاء به الأنبياء والرسل من عند ربهم للانسان هو الاسلام الذي هتف ونادى به جميعهم دون استثناء ابتداء بسيدنا نوح عليه السلام وانتهاء بخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم؛ لذلك جاء فصل الخطاب في قول الحق سبحانه وتعالى كدليل جازم على ان الدين عند الله الاسلام فقط ومن يتبع غيره ديناً

١- سورة البقرة، آية ٣٨- ٣٩.

٢- سورة الاعراف، آية ٣٥- ٣٦.

يعد من الخاسرين.

قال تعالى:

«إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلامُ وَما اختَلَفَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ إِلاَّ مِن بَعدِ ما جاءَهُمُ العِلمُ بَغياً بَينَهُم وَمَن يَكفُر بآياتِ اللهِ فإنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ» (١)

وقال تعالى:

«وَمَن يَبتَغِ غَيرَ الإسلامِ دِيناً فَلَن يُقبَلَ مِنهُ وَهُوَ في الآخِرةِ مِنَ الخَاسِرِينَ» (٢)

لذلك ليس غريباً أن نجد كلمة مسلم وأسلم ومسلمين قد نادى بها أو وصف بها أناس منذ سيدنا نوح عليه السلام، وليس كما يفهمه السواد الاعظم من الناس في هذه الأيام بأن كلمة مسلم بزغت الى حيز الوجود في حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وسوف نورد الأدلة القرآنية القاطعة التي توضح أن الانبياء والمرسلين كان هدفهم الوحيد توصيل رسالة الإسلام الى الناس ليبشروهم بالجنة إذا ما أنابوا واستقاموا لهذا النهج الإلهي المنير، وينذروهم من عقاب جهنم إذا ما صدفوا عن طريق الحق والنور المتجسدة في دين الحق وهو الإسلام.

الدليل الأول:

ان سيدنا نوح عليه السلام أول من نادى وهتف باسم الإسلام، فقد بعثه الباري عز وجل الى قومه يدعوهم الى الإنابة والاستقامة وتفويض أمورهم لخالقهم تعالت وجلت قدرته، وقد مكث فيهم تسعمائة وخمسين عاماً وهو يدعوهم إلى ان يسلموا للحق سبحانه وتعالى.

قال تعالى:

«لَقَد أَرسَلنا نُوحاً إلى قَومِهِ فَقالَ يا قَومِ اعبُدُوا اللهَ ما لَكُم مِّن إلهٍ غَيرُهُ إنّي أخافُ عَلَيكُم عَذابَ يَومٍ عَظِيمٍ» (٣)

وقال تعالى:

«واتلُ عَلَيهِم نَبَأَ نُوحٍ إذ قالَ لِقَومِهِ يا قَومِ إنْ كانَ كَبُرَ عَلَيكُم مَّقامِي وَتَذكِيري بآياتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلتُ فأجمِعُوا أمرَكُم

١ - سورة آل عمران، آية ١٩.

٢ - سورة آل عمران، آية ٨٥.

٣ - سورة الاعراف، آية ٥٩.

وَشُرَكَاءَكُم ثُمَّ لا يَكُن أَمرُكُم عَلَيكُم غُمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ * فَإِن تَوَلَّيتُم فَمَا سَأَلتُكُم مِّن أَجرٍ إِن أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرتُ أَن أَكُونَ مِنَ المُسلِمِينَ» (١)

الدليل الثاني:

أما بالنسبة إلى سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام فإنه كان حنيفاً مسلماً بالرغم مما دار حوله من خلاف بين الطوائف المتعددة. وكل من يسلم وجهه لله يكون قد اتبع ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى:

«مَا كَانَ إِبرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلا نَصرَانِياً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المُشرِكِينَ» (٢)

وقال تعالى:

«وَمَن أَحسَنُ دِيناً مِّمَّن أَسلَمَ وَجهَهُ للهِ وَهُوَ مُحسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبرَاهِيمَ خَلِيلاً» (٣)

الدليل الثالث:

وإيماءة إلى سيدنا يعقوب عليه السلام فقد وصى أبناءه أن يعبدوا دين الآباء والأجداد المتمثل في دين الإسلام وأن يسلموا ويفوضوا أمورهم للحق سبحانه وتعالى.

«وَوَصَّى بِهَا إِبرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسلِمُونَ* أَم كُنتُم شُهَدَاءَ إِذ حَضَرَ يَعقُوبَ المَوتُ إِذ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعبُدُونَ مِن بَعدِي قَالُوا نَعبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبرَاهِيمَ وَإِسمَاعِيلَ وَإِسحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحنُ لَهُ مُسلِمُونَ» (٤)

الدليل الرابع:

حقيق بنا في هذا المقام أن ننوه بقصة سيدنا سليمان عليه السلام مع الملكة بلقيس، إذ تدور أحداث القصة حول طلب سيدنا سليمان من الملكة بلقيس وقومها أن يأتوا مسلمين، وكيف كان رفضهم لهذا الطلب في بادئ الأمر ثم كيف أعلنت الملكة

١- سورة يونس، آية ٧١- ٧٢.
٢- سورة آل عمران، آية ٦٧.
٣- سورة النساء، آية ١٢٥.
٤- سورة البقرة، آية ١٣٢- ١٣٣.

بلقيس إسلامها وفوضت أمرها لرب العالمين. ويبدو ذلك جلياً في قول الحق سبحانه وتعالى:

«قالَت يا أيُّها المَلَؤا إنّي أُلقيَ إليَّ كِتابٌ كَريمٌ* إنَّهُ مِن سُلَيمانَ وإنَّهُ بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ* ألاَّ تَعلوا عَلَيَّ وأتوني مُسلِمينَ» (١)

ويظهر إسلام الملكة بلقيس وإنابتها للحق سبحانه وتعالى في قوله عز من قائل:

«قيلَ لَها ادخُلي الصَّرحَ فَلَمَّا رَأتهُ حَسِبَتهُ لُجَّةً وكَشَفَت عَن ساقَيها قالَ إنَّهُ صَرحٌ مُمَرَّدٌ مِّن قَواريرَ قالَت رَبِّ إنّي ظَلَمتُ نَفسي وأسلَمتُ مَعَ سُلَيمانَ لِلهِ رَبِّ العالَمينَ» (٢)

الدليل الخامس:

إنه حري بنا أن نعلم أن الباري عز وجل عندما أرسل المرسلين لإنزال العقوبة على قوم لوط المسرفين باستثناء المسلمين منهم، لم يجدوا سوى بيت واحد فقط من المسلمين، وهو بيت سيدنا لوط عليه السلام خلا امرأته التي كانت من الغابرين. وهذا دليل ساطع على أن سيدنا لوطاً كان مسلماً يدعو إلى الإسلام.

قال تعالى:

«قالُوا إنَّا أُرسِلنا إلى قَومٍ مُّجرِمينَ* لِنُرسِلَ عَلَيهِم حِجارَةً مِّن طِينٍ* مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلمُسرِفِينَ* فأخرَجنا مَن كانَ فِيها مِنَ المُؤمِنِينَ* فَما وَجَدنا فِيها غَيرَ بَيتٍ مِّنَ المُسلِمِينَ» (٣)

الدليل السادس:

لا مندوحة لنا في هذا المقام من أن نشير إلى دعاء سيدنا يوسف عليه السلام عندما شكر الله سبحانه وتعالى على ما آتاه من الملك والعلم وتأويل الأحاديث وطلب من خالقه أن يتوفاه مسلماً ويلحقه مع الصالحين. ويبدو ذلك جلياً في قوله عز من قائل:

«رَبِّ قَد آتَيتَني مِنَ المُلكِ وَعَلَّمتَني مِن تأويلِ الأحاديثِ فاطِرَ السَّمواتِ والأرضِ أنتَ وَلِيِّ في الدنيا والآخِرَةِ تَوَفَّني مُسلِماً وألحِقني بالصَّالِحينَ» (٤)

١ – سورة النمل، آيه ٢٩ – ٣١.

٢ – سورة النمل، آيه ٤٤.

٣ – سورة الذاريات، آيه ٣٢ – ٣٦.

٤ – سورة يوسف، آيه ١٠١.

الدليل السابع :

إنه لحقيق بنا أن نذكر نداء سيدنا موسى عليه السلام لقومه وما حدث مع سحرة الطاغية فرعون عندما أعلنوا جهراً إسلامهم متحدين بذلك فرعون وجنده. مما أثار حفيظة فرعون عندما شاهدهم بأم عينه وهم يعلنون إيمانهم برب موسى وهارون بعدما حصحص الحق أمام اعينهم وتبين لهم أن السحر لا يغني عن الحق شيئاً . فقد توعدهم بجميع صنوف العذاب بسبب إسلامهم برب موسى وهارون، علماً بأنه كان يعدهم منذ لحظات قليلة أن يكونوا من المقربين إذا كانت لهم الغلبة على سيدنا موسى عليه السلام. وما كان من السحرة في هذا الموقف الجازم إلا أن توجهوا للرحمن عز وجل ليثبتهم على إسلامهم وأن يتوفاهم مسلمين. أما نداء سيدنا موسى عليه السلام لقومه فيبدو جلياً في قول الحق سبحانه وتعالى:

«وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ» (١)

وأما بالنسبة إلى دعاء سحرة الطاغية فرعون فيظهر بجلاء في قوله عز من قائل:

«وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ» (٢)

الدليل الثامن :

وحري بنا أن نشير إلى حواريي سيدنا عيسى عليه السلام عندما دعوا الحق سبحانه وتعالى أن يكون شاهداً على إسلامهم وقبولهم دعوة سيدنا عيسى عليه السلام ويبدو ذلك ظاهراً جلياً في قوله عز من قائل في الآيتين الكريمتين التاليتين:

قال تعالى:

«وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ» (٣)

وقال تعالى:

«فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (٤)

١ - سورة يونس، آيه ٨٤.
٢ - سورة الاعراف، آيه ١٢٦.
٣ - سورة المائدة، آيه ١١١.
٤ - سورة آل عمران، آيه ٥٢.

الدليل التاسع:

تجدر الإشارة إلى أهل الكتاب واعترافهم بأنهم كانوا مسلمين وإقرارهم بذلك قبل نزول القرآن على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسماعهم به. ويظهر ذلك بوضوح في قوله عز من قائل:

«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ» (١)

كما أن القرآن الكريم قد أنار السبل لكل من أراد أن يصل إلى سدرة الصواب في دعوة أهل الكتاب ومناقشتهم لإنارة الطريق أمامهم وتوضيح الحقائق لهم كما أشار الحق سبحانه وتعالى في كتابه المكنون بوجوب الإيمان بجميع الكتب السماوية وعدم التفريق بين الرسل والإقرار بأن الاله واحد وأن الجميع له مسلمون. وتبدو هذه المعلومات المؤثلة ظاهرة جلية في قول الباري عز وجل في الايات الكريمة التالية:

قال تعالى:

«وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ* وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ» (٢)

قال تعالى:

«وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (٣)

قال تعالى:

«وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (٤)

١- سورة القصص، آيه ٥٢- ٥٣.

٢- سورة العنكبوت، آيه ٤٦- ٤٧.

٣- سورة البقرة، آيه ١١١- ١١٢.

٤- سورة البقرة، آيه ١٣٥- ١٣٦.

الدليل العاشر :

بعد أن أشرنا في الأدلة السابقة إلى الحلقات الاسلامية التاريخية التي كان يمثلها رسل الله ومن آمن بهم من أقوامهم عن طريق إسلامهم للحق سبحانه وتعالى، فلا مندوحة لنا من الإشارة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الباري عز وجل ليكمل دين الإسلام الذي يمثل الهدى الذي وعد الحق سبحانه وتعالى به بني آدم عندما أمر بهبوط آدم وزوجه إلى الأرض. وقد أمر عليه الصلاة والسلام أن يعرض عن كل ما تشكل في أذهان الناس من انحراف في عقائدهم وكل ما يدعون إليه من دون الله سبحانه وتعالى، كما أمر أن يسلم وجهه فقط لرب العالمين دون مداهنة أو مواربة، أو التقاء في منتصف الطريق مع الذين لم ينيبوا بعد للهدى الإلهي، ويبدو ذلك بوضوح في قول الحق سبحانه وتعالى:

«قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين» (١)

في ضوء ما تقدم من أدلة وما رافقتها من آيات بينات يبدو بوضوح وجلاء أن جميع الانبياء والمرسلين بعثهم الحق سبحانه وتعالى إلى الإنسان عبر تاريخه بالهدى الإسلامي الالهي المنير ليضيء له السبيل في الدنيا والآخرة ويقوي من ساعد الإنسان على مقاومة إبليس وجنده من الجن والإنس. وقد أراد الباري عز وجل أن يبدأ هذا النهج الإلهي المنير بسيدنا نوح عليه السلام، مروراً بجميع الأنبياء والمرسلين حتى بعث للناس جميعاً خاتم الأنبياء والمرسلين بالقرآن الكريم في اللغة العربية، ليكون هذا القرآن وسنة الرسول الكريم الهدى الإلهي الكامل الشامل للناس جميعاً؛ لذلك فإن الإسلام بدأ بسيدنا نوح عليه السلام ومن آمن معه من قومه، وجميع الانبياء والرسل ومن آمن معهم من أقوامهم فقد كانوا يمثلون الحلقات الإسلامية عبر تاريخ الإنسان، حتى أراد الحق سبحانه وتعالى أن يختم المدد الرسالي بخاتم الأنبياء والمرسلين، وأن تكون الرسالة التي جاء بها للناس كافة وناسخة لكل ما قبلها من رسالات وكتب سماوية؛ لذلك فإن المسلم هو الذي يتبع القرآن الكريم وسنة الرسول الكريم بعد بعثته صلوات الله عليه.

وهناك حقيقة سامقة لا بد من الإشارة إليها لما استقر في أذهان الناس من معلومات ومدركات خاطئة حول الإسلام، إن الاسلام إنابة واستقامة وتفويض

---

١ - سورة غافر، آيه ٦٦.

الأمور للحق سبحانه وتعالى واتباع كتابه الحكيم وسنة نبيه الأمين في شتى مجالات الحياة، فهو سبيل الخير الذي يمكن أن يختاره الإنسان أو ينبو عنه بكامل إرادته؛ لذلك فإن الإسلام لا يورث عن طريق الأبوة والمصاهرة، والعشرة الزوجية، وأي نوع من أنواع القرابة. فقد يكون الأب مسلماً والابن غير ذلك، وقد يكون الابن مسلماً وأبوه غير ذلك، وكذلك بالنسبة إلى مختلف أنواع القربى. فالإسلام للناس كافة لمن أراد أن يعتقد فيه ويسلك في ضوئه، فهو ليس حكراً لقوم دون قوم، أو جماعة دون جماعة. ودليلنا على ما ذكر يبدو ساطعاً منيراً في الآيات القرآنية الكريمة التالية:

قال تعالى:

«وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (١)

وقال تعالى:

«وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ* قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» (٢)

وقال تعالى:

«وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» (٣)

وقال تعالى:

«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ» (٤)

وقال تعالى:

«تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ* مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ* سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ* وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ* فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ» (٥)

---

١ - سورة سبأ، آيه ٢٨.

٢ - سورة هود، آيه ٤٥ - ٤٦.

٣ - سورة التوبه، آيه ١١٤.

٤ - سورة التحريم، آيه ١٠.

٥ - سورة المسد .

بينت لنا الآيات السابقة بعض أنواع القربى لبعض الأنبياء والمرسلين الذين اختطوا نهجاً غير الإسلام، فلم تنفعهم نوع القربى الدموية التي تربطهم برسل الحق سبحانه وتعالى لأن الإسلام ليس إرثاً لأحد لكي يوزع على ورثته من أصحاب القربى. كما أن الحق سبحانه وتعالى قد بين لنا في كتابه الحكيم أن الذين يتقاعسون عن تطبيق قواعد النهج الإسلامي واتباع تعليماته سيستبدل بهم أناسا آخرين يكونون أفضل منهم في تطبيقه كاملا. ويبدو ذلك في قوله عز من قائل في الأيات الكريمة التالية:

«يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا ما لَكُم إذا قِيلَ لَكُمُ انفِروا في سَبيلِ اللهِ اثَّاقَلتُم إلى الأرضِ أرَضيتُم بالحياةِ الدُّنيا مِنَ الآخِرَةِ فَما مَتاعُ الحياةِ الدُّنيا في الآخِرَةِ إلاَّ قَليلٌ* إلاَّ تَنفِروا يُعَذِّبكُم عَذاباً أليماً وَيَستَبدِل قَوماً غَيرَكُم وَلا تَضُرُّوهُ شَيئاً واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ» (١)

وقال تعالى:

«هَا أنتُم هَؤلاءِ تُدعَونَ لِتُنفِقوا في سَبيلِ اللهِ فَمِنكُم مَّن يَبخَلُ وَمَن يَبخَل فَإنَّما يَبخَلُ عَن نَفسِهِ واللهُ الغَنيُّ وأنتُمُ الفُقَراءُ وإن تَتَوَلَّوا يَستَبدِل قَوماً غَيرَكُم ثُمَّ لا يَكونوا أمثالَكُم» (٢)

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره للآية السابقة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما تلا هذه الآية:

«وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا امثالكم» قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين إذا تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه ثم قال: «هذا وقومه ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس» (٣)

وفي ضوء ذلك نجد الفهم السديد للإسلام عند ابن الإسلام وفارسه، إمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام عندما وصف الإسلام بالكلمات التالية: «الاسلام هـــو

---

١ - سورة التوبة، آيه ٣٨- ٣٩.

٢ - سورة محمد، آيه ٣٨.

٣ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الجزء الرابع، صفحة ١٩٦، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الاولى ١٩٨٦.

التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل الصالح»(١)

وبعد كل ما ذكر كيف يعقل عاقل بأن الإسلام يورث من إنسان إلى آخر عن طريق مراكز إخراج شهادات الميلاد، أو من جيل الى آخر دون الاعتقاد والتسليم للنهج الإلهي وانعكاس ذلك الاعتقاد والتسليم في شتى مناحي الحياة. إن السواد الأعظم من المسلمين ألفوا مع مرور الزمن وتداخل العادات والتقاليد المحلية والأجنبية، هذا بجانب الغزو الفلسفي السابق والغزو الثقافي الحالي، أموراً كثيرة في شتى المجالات، بعيدة كل البعد عن الإسلام وتعاليمه ولكنها من المؤسف جداً قد استقرت في أذهانهم على أنها تتفق مع الإسلام وتعليماته، لذلك كانت الكتابة عن الإسلام وطبيعته، ودار الإسلام وخصائصها، والدولة الإسلامية وميزاتها، والمجتمع المسلم وسماته تعد من أصعب المهام التي يمكن أن يقوم بها الإنسان.

بعد أن فرغنا من الحديث عن حقيقة الإسلام وتاريخه لا بد لنا من الإشارة إلى سمات المجتمع المسلم في الوقت الذي اختلطت فيه الأوراق، وتاهت الأقلام عن جادة الطريق. واستقرت الأضداد في أذهان عامة الناس، وظهرت الأقلام المأجورة التي استغلت هذه المعطيات للنيل من الإسلام وأهله. إن هذه المعطيات الغريبة شكلت مفهوماً شاذاً في أذهان الناس عن الإسلام والمجتمع المسلم. لذلك ليس غريباً أن نجد بعض المجتمعات والأفراد تعلن ظاهراً أنها مع الإسلام وأتباعه، وهي في حقيقتها تشوه الإسلام وتحاربه وتضييق الخناق على أتباعه بالطرائق كافة التي توصل اليها البشر. ونصبت من نفسها شرطياً أميناً على خدمة مصالح أعداء الإسلام في ديار المسلمين.

وقبل أن نوضح خصائص المجتمع المسلم لا بد من الإشارة إلى بعض آراء السلف الصالح في هذا الموضوع لنصل إلى المراد بعون الله دون الإسهاب والإطناب.

يرى الطباطبائي رحمه الله :«أن التاريخ الإسلامي – فيما عدا فترة قصيرة منه– لا يمثل الإسلام في كثير من خطوطه .... ولا يصح ان نحمل الإسلام تبعات أخطاء المسلمين على امتداد التاريخ الإسلامي »(٢)

١- نهج البلاغة، الجزء الرابع، دار المعرفة، بيروت، صفحة ٢٩.

٢- الطباطبائي، نظرية السياسة والحكم في الإسلام، الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٨٢، صفحة ٥٣.

ويرى سيد قطب رحمه الله: «أن الإسلام تصور مستقل للوجود والحياة، تصور كامل ذو خصائص متميزة، ومن ثم ينبثق منه منهج ذاتي مستقل للحياة كلها، بكل مقوماتها وارتباطاتها، ويقوم عليه نظام ذو خصائص معينة... هذا التصور يخالف مخالفة أساسية سائر التصورات الجاهلية قديماً وحديثاً. وقد يلتقي من هذه التصورات في جزئيات عرضية جانبية، ولكن الأصول التي تنبثق منها هذه الجزئيات مختلفة عن سائر ما عرضته البشرية من نظائرها....وليست وظيفة الإسلام إذن أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الأرض، ولا الأوضاع الجاهلية القائمة في كل مكـــان... لم تكن هذه وظيفته يوم جاء، ولن تكون هذه وظيفته اليوم ولا في المستقبل... فالجاهلية هي الجاهلية، الجاهلية هي الإنحراف عن العبودية لله وحده وعن المنهج الالهي في الحياة، واستنباط النظم والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والقيم والموازين من مصدر آخر غير المصدر الإلهي... فالجاهلية هي عبودية الناس للناس، بتشريع بعض الناس للناس ما لم يأذن به الله، كائنة ما كانت الصورة التي يتم بها هذا التشريع... والإسلام هو عبودية الناس لله وحده بتلقيهم منه وحده تصوراتهم وعقائدهم، وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم والتحرر من عبودية العبيد... لذلك فإن هناك نظاماً واحداً هو النظام الإسلامي وما عداه من النظم فهو جاهلية... وإن هناك شريعة الله وما عداها فهو هوى... وإن هناك حقاً واحداً لا يتعدد، وما عداه فهو ظلال... وان هناك داراً واحدة هي دار الإسلام، تلك التي تقوم فيها الدولة المسلمة، فتهيمن عليها شريعة الله، وتقام فيها حدوده، ويتولى المسلمون فيها بعضهم بعضاً... فلا وطن للمسلم إلا الذي تقام فيه شريعة الله، فتقوم الروابط بينه وبين سكانه على أساس الارتباط في الله، ولا جنسية للمسلم إلا عقيدته التي تجعله عضواً في الأمة المسلمة في دار الإسلام، ولا قرابة للمسلم إلا تلك التي تنبثق من العقيدة في الله، فتتصل الوشيجة بينه وبين أهله في الله... منذ جاء الإسلام لم يعد وطن المسلم هو الأرض، انما عاد وطنه دار الإسلام، الدار التي تسيطر عليها عقيدته وتحكم فيها شريعة الله وحدها، الدار التي يأوي اليها ويدافع عنها ويستشهد لحمايتها ومد رقعتها... والأرض التي لا يهيمن فيها الإسلام ولا تحكم فيها شريعته هي دار الحرب... يحاربها المسلم ولو كان فيها مولده وفيها قرابته، وأمواله ومنافعه. وكذلك حارب محمد صلى الله عليه وسلم- مكة- وهي مسقط رأسه وفيها عشيرته وأهله، وفيها داره ودور أصحابه وأموالهم التي تركوها. فلم تصبح دار إسلام له ولأمته إلا حين دانت للإسلام

وطبقت فيها شريعته... إن الامة التي يكون من الرعيل الأول فيها ابو بكر العربي وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي وإخوانهم الكرام، والتي تتوالى أجيالها على هذا النسق الرائع... الجنسية فيها هي العقيدة، والوطن فيها هو دار الإسلام، والحاكم فيها هو الله، والدستور فيها هو القرآن... إنه لا إسلام في أرض لا يحكمها الإسلام ولا تقوم فيها شريعته، ولا دار إسلام إلا التي يهيمن عليها الإسلام بمنهجه وقانونه، وليس وراء الايمان إلا الكفر، وليس دون الإسلام إلا الجاهلية»(١)

ويرى أبو الأعلى المودودي عليه رحمة الله أن خصائص الدولة الإسلامية هي:

١- ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أو لسائر القاطنين في الدولة نصيب من الحاكمية. فإن الحاكم الحقيقي هو الله، والسلطة الحقيقية مختصة بذاته تعالى وحده، والذين من دونه في هذه المعمورة إنما هم رعايا في سلطانه.

٢- ليس لأحد من دون الله شيء من أمر التشريع والمسلمون جميعاً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً لا يستطيعون أن يشرعوا قانوناً ولا يقدرون أن يغيروا شيئاً مما شرع الله لهم.

٣- إن الدولة الإسلامية لا يؤسس بنيانها إلا على ذلك القانون المشرع الذي جاء به النبي من عند ربه مهما تغيرت الظروف والأحوال والحكومات التي بيدها زمام هذه الدولة، ولا تستحق طاعة الناس إلا من حيث إنها تحكم بما أنزل الله وتنفذ أمره تعالى في خلقه.(٢)

إن كل من سنحت له الظروف أن يطلع على كتاب الله العزيز وسنة نبيه الأمين، وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجتمعه الفاضل، لن يجد نصباً في تحديد معالم المجتمع المسلم الأساسية بالرغم من المتاهات والمدركات الخاطئة التي دونت في الكتب والمجلدات، وما تعج وتموج به الأذهان الغافلة، وما تفتريه وسائل الإعلام والصحافة من مفتريات وتخرصات لتثبيت ما استقر في أذهان الناس من مفاهيم هابطة عن سمات المجتمع المسلم. فالمجتمع الذي يتبع نهج الحق المنير

١- سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣.

٢- ابو الاعلى المودودي، نظرية الإسلام السياسية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٥، ص٨.

سبحانه وتعالى في شتى أموره الحياتية لا بد أن يتميز عن بقية المجتمعات الأخرى، كيف لا؟ وهو ينعم باتباع مورد الحق والحقيقة الذي يضيء لأفراد المجتمع مختلف السبل والطرق المؤدية إلى الفوز والفلاح في الحياة الدنيا والآخرة. وبهذا يكون المجتمع المسلم قد حقق الأهداف التي تربطه بحياته الدنيا والأهداف التي تربط أفراده كافة بمستقبلهم في الآخرة. وهذه الحالة لن تتوفر إلا لأبناء وأفراد المجتمع المسلم. لذلك فإن المجتمع الإسلامي يتميز على غيره من المجتمعات في الصفاة المؤثلة التالية:

١ - تطبيق القانون الإلهي في شتى نواحي الحياة على جميع أفراد المجتمع دون استثناء لحاكم أو محكوم. ودليل ذلك يظهر بوضوح في الآيات القرآنية الكريمة التالية: قال تعالى:

«وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك...» (١)

وقال تعالى:

«إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما» (٢)

وقال تعالى:

«فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما» (٣)

وقال تعالى:

«... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» (٤)

وقال تعالى:

«أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون» (٥)

٢ - المثول أمام القوانين والأنظمة بالتساوي لجميع أفراد المجتمع والحكم فيما بينهم على أساس العدل والمساواة في ضوء الكتاب الكريم والسنة النبوية

---

١ - سورة المائدة، آية ٤٩.

٢ - سورة النساء، آيه ١٠٥.

٣ - سورة النساء، آيه ٦٥.

٤ - سورة المائدة، آيه ٤٤.

٥ - سورة المائدة، آيه ٥٠.

الطاهرة. ودليل هذه السمة المجيدة المؤثلة يكمن في قوله عز من قائل في الآيات التالية:

قال تعالى:

«إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُم أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً»(١)

وقال تعالى:

«....وإِن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ»(٢)

ويوضح لنا رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام هذه السمة السامقة للمجتمع المسلم في قوله: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون الشريف، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(٣)

٣- المجتمع المسلم لا يعرف التجزئة طريقاً إليه سواء أكان المجتمع صغيراً أم كبيراً، ولا يعرف هذا المجتمع تعدد القيادات والولاءات، فهو مجتمع واحد، الولاء فيه للحق سبحانه وتعالى ورسوله والمؤمنين، ذو قيادة واحدة مطاعة طالما تطبق شريعة الله كاملة في المجتمع. إن الحق سبحانه وتعالى قد بين لنا في كتابه الحكيم أن الذين يسلمون أمرهم لله سبحانه وتعالى ويفوضون أمورهم إليه، ويتبعون نهجه القويم الذي ارتضاه للناس كافة في شتى أمورهم الحياتية يكونون قد نالوا شرف الانضـواء تحت راية حزبه تعالت وجلت قدرته دون غيرهم من الناس. فهذا التجمع لا يمكن أن ينقسم على نفسه وتتعدد ولاءاته وقياداته. ودليلنا في ذلك يكمن في قول الحق سبحانه وتعالى:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُم فَإِن تَنَازَعتُم فِي شَيءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرَّسُولِ إِن كُنتُم تُؤمِنُونَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيرٌ وأَحسَنُ تَأوِيلاً»(٤)

١- سورة النساء، آيه ٥٨.

٢- سورة المائدة، آيه ٤٢.

٣- البخاري، كتاب الحدود ابواب رقم ١١، ١٢.

٤- سورة النساء، آيه ٥٩.

قال تعالى:
«إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُم أُمَّةً واحِدَةً وأنا رَبُّكُم فاعبُدُونِ» (١)

قال تعالى:
«وإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُم أُمَّةً واحِدَةً وأنا رَبُّكُم فاتَّقُونِ» (٢)

لذلك فان عمر بن الخطاب رضي الله عنه احتج على الأنصار في سقيفة بني ساعدة عندما قالوا منا أمير ومنكم أمير، فقال لا يجوز لها قرنان (أي أميران). حتى انتهى الأمر إلى اختيار قيادة واحدة.

٤- لا يوجد في المجتمع المسلم مكانة للتفوق العرقي والنعرات الإقليمية، فهوية الجميع، وجنسيتهم، وعقيدتهم، وشريعتهم فقط الإسلام. فالإسلام للناس كافة والذي يعتقد به يعلم يقيناً أن كل الناس يعودون نسباً لسيدنا آدم والمفاضلة بين ذريته تعود فقط إلى تقوى الله وليس بالنزوع إلى نظرية الاستعلاء والاستكبار المحرمة شرعاً والتي تغذيها النزعات القومية وما يدور في فلكها من توجهات إقليمية غرضية، شهوية. ودليل هذه الصفة المؤثلة المجيدة يبدو ظاهراً جلياً في قوله عز من قائل:

«يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقناكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلناكُم شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفوا إِنَّ أَكرَمَكُم عِندَ اللهِ أَتقاكُم...» (٣)

وقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة هذه السمة السامقة للمجتمع المسلم إذ ركز في حديثه وتوجيهاته في عدة مواقع ومناسبات على أهميتها بالنسبة لأفراد المجتمع المسلم. وسوف نورد بعضاً من هذه الأحاديث الشريفة كدليل قاطع على ما ذكرنا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (٤)

«أيها الناس، الا إن ربكم واحد. لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى» (٥)

١- سورة الانبياء، آيه ٩٢.
٢- سورة المؤمنون، آيه ٥٢.
٣- سورة الحجرات، آيه ١٣.
٤- مسلم وابن ماجه.
٥- البيهقي وابن مردوية.

«المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى»(١)

٥- إن شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعد من أسمى صفات المجتمع المسلم، وبهذه السمة المجيدة المؤثلة أمست الأمة المسلمة التي شكلها محمد صلى الله عليه وسلم في مدينته الفاضلة تتبوأ أعلى مرتبة بشرية بين الأمم. وقد وصفها الحق سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم حيث قال:

«كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت لِلنّاسِ تَأمُرونَ بالمَعروفِ وَتَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ وَتُؤمِنونَ باللهِ...»(٢)

وقد وصف لنا الحق سبحانه وتعالى المؤمنين في عدة مواقع في كتابه العزيز بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر نذكر منها قوله عز من قائل:

«والمُؤمِنُونَ والمُؤمِناتُ بَعضُهُم أَولِياءُ بَعضٍ يَأمُرُونَ بالمَعرُوفِ وَيَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ وَيُقيمونَ الصَّلاةَ وَيُؤتونَ الزَّكاةَ وَيُطيعونَ اللهَ وَرَسولَهُ أُولئِكَ سَيَرحَمُهُمُ اللهُ إنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكِيمٌ»(٣)

أما أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الموضوع فسنذكر بعضاً منها لتوضيح المراد:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(٤)

«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»(٥)

٦- نظام الشورى يشكل الاسلوب الاداري في المجتمع المسلم في اتخاذ القرارات واتباع الوسائل والطرق المتعددة في القضايا الحياتية التي لا يوجد فيها نص قرآني كريم أو سنة نبوية شريفة. ودليلنا في ذلك يعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

١- الطبراني.

٢- سورة آل عمران، آيه ١١٠.

٣- سورة التوبة، آيه ٧١.

٤- مسلم، كتاب الايمان باب ٢٠.

٥- الترمذي (كتاب الفتن) باب ١٢، ابو داود (كتاب الملاحم) باب ١٧.

«فَبِما رَحمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُم وَلَو كُنتَ فَظّاً غَليظَ القَلبِ لانفَضّوا مِن حَولِكَ فاعفُ عَنهُم واستَغفِر لَهُم وَشاوِرهُم في الأَمرِ فإذا عَزَمتَ فَتَوَكَّل على اللهِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلينَ» (١)

قال تعالى:

«والَّذينَ استَجابوا لِرَبِّهِم وأَقامُوا الصَّلاةَ وأَمرُهُم شُورَىٰ بَينَهُم وَمِمَّا رَزَقناهُم يُنفِقُونَ» (٢)

ويقول إمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام سألت يوماً رسول الله لو وقع لنا بعدك ما لم نجد له حكماً في القرآن أو نسمع منك فيه شيئاً فماذا نفعل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «أجمعوا العابدين من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوا برأي واحد» (٣)

وسيرة نبينا الكريم تفيض بالمعلومات والمناسبات التي تشير إلى ممارسة نظام الشورى نذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر، مشورته لأصحابه في غزوة بدر، وأحد، والأحزاب.

٧- الولاية في المجتمع المسلم تكون فقط لله ورسوله، وأولي الأمر، وسائر المؤمنين في شتى انواعها سواء أكانت على المستوى الفردي أم الجماعي، وعلى المستويين الداخلي والخارجي. ولا يجوز لمجتمع مسلم أن تكون ولايته أو تبعيته لأي مجتمع كان، مهما كانت الظروف والمناسبات لأن الله سبحانه وتعالى حرم هذا النوع من الولاية على سائر المؤمنين. ودليلنا في ذلك يبدو بوضوح في قول الحق سبحانه وتعالى:

«إنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسولُهُ والَّذينَ آمَنوا الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤتُونَ الزَّكاةَ وَهُم راكِعونَ» (٤)

وقال تعالى:

«والمُؤمِنونَ والمُؤمِناتُ بَعضُهُم أَولِياءُ بَعضٍ يَأمُرونَ بِالمَعرُوفِ وَيَنهَوَنَ عَنِ المُنكَرِ....» (٥)

١- سورة آل عمران، آيه ١٥٩.

٢- سورة الشورى، آيه ٣٨.

٣- تفسير روح المعاني، جزء ٢٥ صفحة ٤٢.

٤- سورة المائدة، آيه ٥٥.

٥- سورة التوبة، آيه ٧١.

وقال تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين» (١)

٨- يعد الجهاد في سبيل الله من أبرز صفات المجتمع المسلم لما لهذه الصفة من مكانة سامقة عند الله للذين يتخذونها طريقاً توصلهم إلى أسمى وأقرب الدرجات عند الله سبحانه وتعالى. وبالرغم مما دار حول هذه الكلمة المقدسة من مهاترات ومفتريات من قبل أعداء الإسلام وأتباعهم، فيكفي المسلمين شرفاً أنهم عن طريق الجهاد بطرقه المتعددة يريدون أن يقدموا النهج الإلهي المنير إلى أبناء جنسهم ليكونوا لهم إخوة في الله يتساوون معهم في مختلف الحقوق والواجبات، ويفوزوا جميعاً بنعيم الدنيا والآخرة. ولكن ماذا نقول للذين لا يريدون إلا الحياة الدنيا، وجعلوها مبلغ علمهم ومركز اهتماماتهم. فسر الاختلاف بين المسلمين وغيرهم من البشر يعود إلى نظرة كل طرف الى حقيقة الحياة الدنيا. ففي الوقت الذي ينظر فيه المسلمون الى الحياة الدنيا على أنها مقدمة للحياة الخالدة، فإن غيرهم من الناس تنتهي آمالهم وطموحاتهم داخل إطار الحياة الدنيا. إن الحق سبحانه وتعالى أخبرنا في كتابه العزيز أن الحياة الدنيا تعد دار ابتلاء وامتحان للإنسان. وفي ضوء سلوك الانسان في الحياة الدنيا يترتب عليه مصيره في دار الخلود. لذلك فالجهاد في سبيل الله يعد من أقصر الطرق وأفضلها للوصول الى الغاية النبيلة التي يتمناها كل ذي لب وجنان، وهي الفوز برضا الحق سبحانه وتعالى ودخول جنته التي أعدها للمتقين من عباده. لذلك فإن الحق سبحانه وتعالى فرض الجهاد على عباده المتقين ليأخذ بيدهم الى أسرع وأفضل السبل في الوصول الى الجنة. ودليل ذلك يبدو بوضوح وجلاء في قوله عز من قائل في الآيات التالية:

قال تعالى:

«كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون» (٢)

١- سورة المائدة، آيه ٥١.

٢- سورة البقرة، آيه ٢١٦.

وقال تعالى:

«إِنَّ اللهَ اشتَرى مِنَ المُؤمِنِينَ أَنفُسَهُم وأموالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ فَيَقتُلُونَ وَيُقتَلُونَ وَعداً عَلَيهِ حَقّاً في التَّوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ وَمَن أَوفَى بِعَهدِهِ مِنَ اللهِ فاستَبشِروا بِبَيعِكُمُ الَّذي بايَعتُم بِهِ وذلِكَ هو الفَوزُ العَظِيمُ» (١)

وقال تعالى:

«انفِروا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدوا بأَموالِكُم وَأَنفُسِكُم في سَبيلِ اللهِ ذلِكُم خَيرٌ لَكُم إن كُنتُم تَعلَمُونَ» (٢)

وقال تعالى:

«فَليُقاتِل في سَبيلِ اللهِ الَّذينَ يَشرُونَ الحَياةَ الدُّنيا بالآخِرَةِ وَمَن يُقاتِل في سَبيلِ اللهِ فَيُقتَل أو يَغلِب فَسَوفَ نُؤتِيهِ أجراً عَظِيماً» (٣)

وقد خاطب الحق سبحانه وتعالى الذين يتقاعسون عن تأدية واجبهم الجهادي في سبيله بعدة أساليب لكي يدركوا أهمية هذه الفريضة وما تجلبه عليهم من سعادة ونعيم في الدنيا والآخرة.

قال تعالى:

«أَم حَسِبتُم أن تَدخُلوا الجَنَّةَ وَلَمّا يَعلَمِ اللهُ الَّذينَ جاهَدوا مِنكُم وَيَعلَمَ الصّابِرِينَ» (٤)

قال تعالى:

«أَم حَسِبتُم أن تُترَكوا وَلَمّا يَعلَمِ اللهُ الَّذينَ جاهَدوا مِنكُم وَلَم يَتَّخِذوا مِن دُونِ اللهِ ولا رَسُولِهِ ولا المُؤمِنينَ وَلِيجَةً واللهُ خَبيرٌ بِما تَعمَلُونَ» (٥)

قال تعالى:

«يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا مالَكُم إذا قِيلَ لَكُمُ انفِروا في سَبيلِ اللهِ اثّاقَلتُم إلى الأرضِ أَرَضِيتُم بالحَياةِ الدُّنيا مِنَ الآخِرَةِ فَما مَتاعُ الحَياةِ الدُّنيا في الآخِرَةِ إلّا قَليلٌ» (٦)

١- سورة التوبة، آيه ١١١.

٢- سورة التوبة، آيه ٤١.

٣- سورة النساء، آيه ٧٤.

٤- سورة آل عمران، آيه ١٤٢.

٥- سورة التوبة، آيه ١٦.

٦- سورة التوبة، آيه ٣٨.

وقد أعطى الحق سبحانه وتعالى مكانة خاصة للذي يستشهد في سبيله دون غيره من الناس لما لهذه الفريضة من منزلة رفيعة عنده سبحانه وتعالى. ودليل ذلك يبدو في الآيات الكريمة التالية:

قال تعالى:

«وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (١)

قال تعالى:

«وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ» (٢)

وقد علمنا رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم فريضة الجهاد وأهميتها فعلا وقولا. فعلا عن طريق الغزوات المتعددة التي قادها ضد أعداء الإسلام، وقولا عن طريق ما وصلنا عنه صلوات الله عليه من أحاديث نبوية طاهرة. وسوف نورد بعضاً من هذه الاحاديث النبوية الشريفة لنصل بعون الله الى المراد.

«سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم :أي العمل أفضل؟ قال:«إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم ماذا؟ قال:«الجهاد في سبيل الله». قيل ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»(٣)

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت : يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال:«الإيمان بالله، والجهاد في سبيله»(٤)

وعن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أي الناس أفضل؟ قال:«مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله». قال: ثم من؟ قال: مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ويدع الناس من شره»(٥)

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله تعالى أو الغـــــدوة

١- سورة آل عمران، آيه ١٦٩ - ١٧٠.

٢- سورة البقرة، آيه ١٥٤.

٣- متفق عليه.

٤- متفق عليه.

٥- متفق عليه.

خير من الدنيا وما عليها»(١)

لذلك فإننا نجد ابن الإسلام وفارسه قد فهم حقيقة الجهاد من كتاب الله وسيرة معلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومارسه فعلا في حياة رسول الله، وقد شهدت له الغزوات والمعارك أي نوع من الفرسان كان. فإذا ما تصفحنا التاريخ الإسلامي في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وجدناه أبرز فرسان غزوة بدر، وأحد، والخندق، وخيبر. لذلك ليس غريباً أن يصف لنا إمام المتقين الجهاد في كلماته المعبرة الدقيقة حيث يقول: «أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة. فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء. وديث بالصغار والقماءة، وضرب على قلبه بالاسداد، وأديل الحق منه بتضييع الجهاد»(٢)

١ - متفق عليه.

٢ - نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة، الجزء الأول، صفحة ٦٧ - ٦٨، بيروت.

القـوميــة

بعد أن فرغنا من الحديث عن تاريخ الإسلام وماهيته وخصائص المجتمع المسلم وميزاته، لا بد من الشروع في توضيح مفهوم القومية بشكل ساطع منير ليتسنى لنا توضيح معالم العلاقة بين الإسلام والقومية. ولقد رفع الإنسان شعار القومية عبر تاريخه المديد ومازال يشد هذا الشعار انتباه واهتمام الكثير من الناس بالرغم من عدم وجود مفهوم تام لهذا المصطلح وما يعكسه من آثار واسعة على معتقداتهم.

فكلمة قومية مشتقة من كلمة قوم التي يجوز الإشارة اليها بالتأنيث والتذكير سواء. والقوم تعني الرجال والنساء الذين ينحدرون من جد واحد. والقوم يميزهم عن غيرهم من الأقوام رابطة الدم، ومكان الإقامة، والعادات والتقاليد المتداولة فيما بينهم. وهذه الأمور جميعها هي التي تؤسس عليها أفكار القومية إذ تؤدي إلى إبراز الطابع الخاص لهؤلاء القوم دون غيرهم من الناس.

فالقومية كما هي معرفة في قاموس علم الاجتماع لهنري فيرتشيلد: «هي جماعة من الناس تربطهم روابط واضحة من الثقافة المتجانسة. والقومية الصحيحة تستمد حيويتها من شعور أفرادها بوحدة نوعهم، ومن التشابه الأساسي بين تقاليدهم وطباعهم. ومن مقومات القومية، تجانس الخصائص الثقافية إن لم تكن وحدتها الكاملة، وكذلك تجانس النظم الأساسية، كاللغة والدين، ووسائل الزينة، والقانون الخلقي، والنظام السياسي، ونمط الأسرة، والقيم والمثل. ويشعر الأفراد المنتمون لقومية ما برابطة التعاطف فيما بينهم شعوراً يختلف عما يحسون به نحو أفراد قومية أخرى، ويحسون بالرغبة في أن يعيشوا معيشة مشتركة»(١)

ويبين لنا داعية القومية العربية في القرن العشرين ساطع الحصري في كتابه «ما هي القومية» أهم الأسس التي تبنى عليها لحمة القومية حيث يقول «إن أس الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو: وحدة اللغة ووحدة التاريخ. لأن الوحدة في هذين الميدانين، هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة، وبكل ذلك، تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى. ولكن لا الدين، ولا الدولة، ولا الحياة

---

١ - ابو الفتوح رضوان، القومية العربية، الهيئة العامة للأجهزة والكتب العلمية، القاهرة، ١٩٦٨، ص١٧٧.

الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية»(١)

ويعرف ميشيل عفلق القومية قائلا «القومية للشعب كالاسم للشخص والملامح للوجه، هي قدر قاهر يسير مجموعة من البشر في مجرى الحوادث والظروف بصورة فريدة، وينسج عليه غلافاً من الصفحات متميز الشكل. وكما أن من العبث أن يضيع المرء عمره في اللهف والأسف - لو ولدت في غير هذا البيت ووجدت على غير هذه الصورة- فإن من الجهد الضائع أيضاً أن يحاول الإنسان التحلل من رباط قوميته التي أحكمت شدها به أصابع القرون»(٢)

ويرى منيف الرزاز أن القومية هي: «شعور بحياة واحدة، ومصير واحد، ورسالة واحدة وعقلية واحدة»(٣)

بينما يرى الكاتب يوسف خليل في كتابه «القومية العربية ودور التربية في تحقيقها» أن القومية تعني «ضرب من العاطفة الإجتماعية، تقوم دعائمها على مشاركة أعضائها بعضهم بعضاً، في قيم معينة»(٤)

«المدلول الاصطلاحي للقومية تعني الانتساب الى قوم معين أو نزعة تربط الفرد بقوم تتكون فيما بينهم روابط متجانسة ومتشابهة، وتوحد بينهم الأهداف، والمصير، والآمال، والتقاليد، والعادات»(٥)

واضح من التعريفات السابقة للقومية والتي اخترناها كنماذج متعددة حول القومية وأهدافها أن هناك غموضاً واضحاً في ماهية القومية والأسس المكونة لها، كما أن هناك قلة وضوح فيما تسعى الى تحقيقه القومية . هذا بالإضافة الى أن هناك خلافاً بين المؤرخين حول تاريخ نشوء القوميات. فمنهم من اعتقد أن القومية ظهرت الى حيز الوجود في القرن الثاني عشر الميلادي، ومنهم من اعتقد ان القرن التاسع عشر للميلاد هو فترة بزوغ القومية في أوروبا. ولكن حقيقة تاريخ القومية يرجع الى بداية تاريخ الإنسانية، وهذا الاعتقاد سوف نوضحه بالتفصيل عندمـــــا

١- ساطع الحصري، ما هي القومية، دار الملايين، بيروت، ١٩٥٩، ص٢٥١- ٢٥٢.
٢- ميشيل عفلق، في سبيل البعث، ص١١٤.
٣- منيف الرزاز، معالم الحياة العربية الجديدة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٠، ص٢٦٨.
٤- يوسف خليل، القومية العربية ودور التربية في تحقيقها، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧، ص٢٧.
٥- حسين السيد عباس، القومية العربية بين الفكر والواقع، ١٩٧٣، ص١٦.

نتحدث بعون الله عن علاقة القومية بالإسلام في الصفحات القادمة.

يلاحظ من التعريفات السابقة للقومية أنها تركز على الانتماءات العرقية والتي تجعل من الناس مجموعات متعددة تنطوي تحت شعارات قومية دون الالتفات الى المدارس الفكرية التي قد تجمع قسماً كبيراً من الناس من مختلف القوميات تحت إطار فكري واحد. لأن أهم المرتكزات الأساسية التي تبنى عليها القومية هي رابطة الدم أو نظرية العرق التي تربط جميع أبناء القوم الواحد. وهذه النظرة تكون فهماً أنانياً، واستعلائياً، واستكبارياً في أذهان أبناء القومية الواحدة. وهذا ما يؤدي بالتالي الى الصراعات الدموية والتي ينتج عنها القتل، والسلب، والطرد، والتعذيب، والاسترقاق، والعبودية، والاستغلال والى غيرها من الأمور التي عانت منها الإنسانية عبر وجودها التاريخي. لقد أفسدت العصبية العرقية البغيضة أفكار جهابذة الفكر والفلسفة اليونانية أفلاطون وارسطو حين نادى كل واحد منهما بتفوق العنصر اليوناني على بقية الشعوب والأقوام الأخرى. «يقسم الجنس البشري من وجهة نظر اليونانيين الى ثلاثة انواع: النوع الاول، طبقة الأحرار وهؤلاء هم الجنس اليوناني، والنوع الثاني، الاجانب، وهؤلاء هم الاقوام الاخرى عدا الجنس اليوناني، والنوع الثالث، العبيد، فهم الذين أسترقوا من قبل اليونان في الحروب. ويقرر أفلاطون في كتابه «القوانين» أن النوع الثالث من البشر كتب عليهم الذل. وهذا الذل المكتوب عليهم يقضي بحرمانهم من حق المواطنة وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من ساداتهم أو من سادة الغرباء. ومن يتطاول منهم على سيد غريب سلمته الدولة اليه ليقتص منه كما يريد»(١)

«أما أرسطو فإنه يرى أن هناك فصيلتين من الناس: الأولى فصيلة اليونان وهي مزودة بالعقل والإرادة وقد فطرت على التقويم الكامل وهي سيدة على سائر المخلوقات. أما الفصيلة الثانية فهي تمثل جميع البشر ما عدا العرق اليوناني، فلم تزود بالعقل والإرادة وإنما أعطيت قوة جسمانية. وقد فطرت على هذا التقويم الناقص ليكونوا عبيداً مسخرين للفصيلة الأولى اليونانية المختارة»(٢)

١ – ابراهيم دسوقي، تاريخ الفكر السياسي، صفحة ٤١.

٢ – حسن شحاته سعفان، الادب اليوناني القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعي، ص٧٨.

«.... يعتقد القومي، بأن أمته يجب أن تسيطر على الأمم الأخرى سيطرة كاملة، أو أن تكون لها بينها الكلمة العليا على الأقل، بل وإن لأمته أن تتخذ الخطوات الحاسمة الكفيلة بتحقيق ذلك»(١)

«ومما هو جدير بالذكر والملاحظة، أن جميع الآراء التي أبديت والأبحاث التي نشرت في «الفكرة القومية» وفي «مبدأ حقوق القوميات» خلال القرن التاسع عشر، كانت تنحصر في الشعوب الأوروبية وفروعها، ولم تشمل الشعوب الأسيوية والإفريقية. لأن جميع المفكرين الأوروبيين كانوا يزعمون أن تلك الشعوب ليست «متأخرة» فحسب، بل هي «محرومة من قابلية التقدم والتمدن» أيضاً. ولذلك فهي لا تستحق الحقوق التي تستحقها الشعوب الأوروبية. حتى الكتاب الذين كانوا التزموا مبدأ «حقوق القوميات» أشد الالتزام، وتحمسوا له أشد التحمس، لم يخرجوا بآرائهم في ذلك خارج نطاق الأوروبيين، ولم يسلموا بمثل تلك الحقوق للشعوب الأسيوية والإفريقية»(٢)

وفي ضوء ما تقدم يبدو بوضوح وجلاء ان شعار القومية يعني سباقاً حراً لا يضبطه نظام بين سائر الأقوام بهدف الوصول إلى المرتبة الأولى أو المراتب المتقدمة بين الأقوام لاستغلال تلك المرتبة في إذلال الآخرين وسلبهم حقوقهم التي جسدت فيهم كمخلوقات بشرية. فماذا يعني إذكاء روح الجرمانية في ألمانيا، والفارسية في إيران، والطورانية في تركيا، واليونانية في اليونان، والمارونية في لبنان، والعربية وغيرها من القوميات الأخرى سوى إثارة الفتن، والحروب الدامية، وزرع بذور الكراهية بين أبناء الجنس الواحد. إن أي نظرة فاحصة مخلصة لما حدث في تاريخ البشرية من مصائب وأهوال يرجع أغلبها الى النظرة الاستكبارية التي مارسها قوم ضد آخرين من البشر. وإذا أمعنا النظر في أغلب الحروب التي وقعت في القرن العشرين نجد الأسباب الرئيسة وراء حدوثها يعود الى الاستكبار والاستعلاء في نفوس قوم على قوم أو عدة أقوام آخرين. إن أهم المرتكزات التي تبنى عليها القومية هي رابطة الدم أو نظرية العرق التي تربط جميع أبناء القوم الواحد. ودليل ذلك يكمن في أنه لو توفرت عند فئة من الناس كافة المرتكزات

١ - بويد شيفر، القومية عرض وتحليل، ترجمة د. جعفر خصباك وعدنان الحميدي، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد - نيويورك - ١٩٦٦، ص٦٥.

٢ - ساطع الحصري، ماهي القومية، ص٢٦.

الأخرى للقومية من عادات، وتقاليد، ولغة، وتاريخ، وأهداف، إلى غيرها من المرتكزات دون استيفاء رابطة الدم، لن يسمح لها أن تنتمي الى قومية تشاركها في مختلف المرتكزات القومية ما عدا رابطة العرق. وهذا يدل بشكل قاطع على النظرة الاستعلائية والاستكبارية التي يكنها أبناء كل قوم لأبناء الأقوام الأخرى.

لقد تناسى دعاة القومية او جهلوا حقيقة أولى هي من أبرز سجايا النفس البشرية وهي حرية الاعتقاد، والتفكير، والاختيار بين السبيلين. لقد جسد خالق الإنسان حرية الاختيار في الذات الإنسانية بعد ان وهبها الملكة العقلية التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يميز بين الخير والشر بعد أن وضحهما الحق سبحانه وتعالى للإنسان. لذلك فهي من المسلمات الأولى أن يعتقد الإنسان في ضوء ما اختار لنفسه من معتقدات وأفكار يود أن يعيش في ظلالها في شتى أموره الحياتية. ومثالا على ذلك نأخذ الإنسان العربي فله الحرية في أن يختار أحدى السبيلين كما هو الحق لأبناء جنسه من البشر فالإنسان العربي قد يكون مسلماً إذا أناب واستقام للحق الذي أرسله الباري عز وجل هدى ورحمة للناس جميعاً وفوض أمره لخالقه، وسار في ضوء النهج الإسلامي في شتى أموره الحياتية. وقد يكون الفرد العربي شيوعياً عندما يؤمن بالفلسفة الشيوعية كنظام حياة ويمارسها في أموره الحياتية. والعربي قد يكون رأسمالياً عندما يعتقد بالفلسفة البراجماتية ويتخذها قاعدة لانطلاقاته الفكرية والسلوكية في شتى أمور الحياة. وللإنسان العربي الحق في أن يختار ما يريد من المعتقدات والأفكار سواء أكانت شرقية ام غربية، ماركسية ام ماويه، هندية أم إغريقية، ديوية أم لينينية. فجميع هذه المعتقدات والأفكار المتضادة والمتعاكسة حول مختلف القضايا الوجودية التي تهم الإنسان لا تسلب الإنسان العربي رابطته العرقية أو الدموية مع أبناء جنسه، لأنهم جميعاً ينتمون الى قوم واحد ورابطة دم واحدة مع اختلاف معتقداتهم، وأفكارهم، وأنماط سلوكهم، وأهدافهم. والسؤال الذي يبرز الى الذهن مباشرة. كيف يمكن لقومية عربية او غير عربية ان تحتوي على أفراد من العرب عرقاً ودماً، ويعتقدون بمختلف الأطر الفكرية والمدارس الفلسفية التي عرفها البشر، وما يترتب على هذه المعتقدات من انماط سلوكية متغايرة وأهداف دنيوية متعاكسة؟ كيف يمكن ان تجمع شتى المدارس الفلسفية وما ينتج عنها من معتقدات، وأهداف، وأنماط سلوكية مع النهج الإسلامي وما يعكسه من معتقدات، وأهداف، وأنماط سلوك عند معتنقيه؟ كيف يمكن ان يتم

الجمع بين طريق الخير، وطريق الشر في بوتقة واحدة؟ كيف يمكن ان يتم الجمع بين حزب الله وحزب الشيطان؟ كيف يمكن ان تجمع هذه الأضداد في مجتمع واحد وفي وقت واحد تحت وطأة دعوة عاطفية جامحة شعارها نظرية العرق أو رابطة الدم؟ ان الذي يود ان يسعى الى جمع تلك الأضداد كالذي يود ان يجمع بين الليل والنهار في وقت واحد ومكان واحد. ان الجمع بين تلك الاضداد لن يكون إلا على حساب بعضها بعضاً. فالجمع بين جمع الخير وجمع الشر لن يكون إلا لمصلحة طرف على حساب الطرف الآخر. إن المجتمع الذي يؤسس بنيانه على الجمع بين التناقضات لن تكون له هوية ذاتية، ولن تكون له أهداف حياتية عامة مشتركة يسعى جميع أبناء المجتمع الى تحقيقها، ولن تكون له فلسفة تربوية، واجتماعية، واقتصادية واضحة. ان هذا النوع من المجتمعات لن يعرف التماسك، والاستقرار، والتقدم، والنمو المبرمج لأن ما فيه من تناقضات سوف تعكس ذاتها في جميع أوساط المجتمع وفي شتى أموره الحياتية. وهذا هو حال مجتمعات دول العالم الثالث.

وهناك فكرة مؤثلة تلوح في الأفق تدر على الإنسان الخيرات والفوائد الجمة في الحياة الدنيا والآخرة، وهذه الفكرة هي توسيع نطاق القومية الضيق الى إطار الانسانية الرحب، طالما نحن البشر جميعاً انحدرنا من نسل واحد وذرية واحدة، فأبونا آدم وأمنا جميعاً حواء. ونتحد جميعاً تحت راية واحدة، وشعار واحد، ومعتقدات واحدة ضد اعدائنا نحن البشر من الأجناس الوجودية الأخرى. لما لا يكون هذا التجمع الإنساني النبيل ضد عدو الإنسانية الأبدي إبليس ومن تبعه من جند؟ وفي هذه الحالة تسير الأمور بشكل منطقي معقول عندما يتعاضد أبناء جنس واحد ضد أعدائهم من الجنس الآخر. اننا نعلم علم اليقين أن العدو الأكبر لآدم وذريته على مر تاريخ البشرية هو إبليس وقبيله. ان العلم والمنطق يلزمان الانسان ان يتكاتف مع أخيه الانسان ويقف معه صفاً واحداً في وجه عدو الإنسانية. لماذا تغيب هذه الأفكار عن أذهان دعاة القومية، والإقليمية، والشعوبية، والعنصرية، والفئوية، والحزبية؟ لماذا يقفون موقف العداء من الأفكار كافة التي تدعو الى وقوف الانسان مع أخيه الانسان ليشد أزره في مواجهة عدوه الأشر. لماذا يقفون ضد حب الإنسان لأخيه الإنسان وتعاطفه معه في مختلف الأمور والقضايا؟ لماذا يحاربون هذه الأفكار النبيلة عندما تطرح على الساحة؟ انها المصالح الذاتية، والشهوات الفردية، والنظرات الاستعلائية التي وشجت عليها نفوسهم فجعلتهم

ينظرون الى كل شيء من خلال تلك المصالح والشهوات الذاتية دون الالتفات الى ما يعاني الآخرون من صراعات، واسترقاق، وإذلال، وعبودية، وهضم حقوق وغيرها من الأمور التي يندى لها جبين البشرية أسفاً وندماً على تلك التصرفات العنصرية والاستعلائية التي يروج لها دعاة الاستغلال والاستكبار.

ان الانسان يعلم علم اليقين ان الحق سبحانه وتعالى بعث له الهدى عن طريق رسله رحمة وهدى للعالمين لينير للإنسان دربه ويوضح له طريق الخير ويحببه فيه ويدله على طريق الشر وينهاه عنه ليشد من ساعده في مقاومة عدوه الأشر ويحرره من أحابيله، وهمزاته، وتسويلاته. ومن المؤسف حقاً ان نجد أكثر الناس صدفوا عن العون الذي جاءهم من عند خالقهم سبحانه وتعالى واتبعوا عدوهم اللدود حتى غدوا من جنده العابثين في هيكل الإنسانية وطموحاتها. كل هذا الانحراف عن النهج الإسلامي قام به الإنسان وهو يتذرع بالحجج الواهية التي تنم على ضعفه ومزاجيته وهو يرفع الشعار تلو الآخر ضد النهج الإسلامي. وأول شعار رفعه الإنسان ضد الحق، وضد الأنبياء والرسل، وضد الخير هو شعار القومية. وهذا ما نريد أن نقوم بتفصيله بعون الله في الصفحات القادمة عندما نتحدث عن الإسلام وعلاقته بالقومية.

الاسلام وعلاقته بالقومية

هناك عديد من الآراء المتضادة حول العلاقة بين القومية والاسلام نادى بها الكتاب والمؤلفون على اختلاف نهجهم الفكري، وقد ازدادت المؤلفات انتشارا في هذا القرن نظرا لكونه قرن القوميات لشعوب آسيا وافريقيا كما يدعي كتاب القومية. ولعل من المفيد جدا أن نعرض آراء الكتاب حول هذا الموضوع من جوانبه المتعددة ثم نذهب الى توضيح المعالم الاساسية لهذا الموضوع الهام عن طريق عرض جذوره التاريخية، والحاضرة، والمستقبلية.

هناك آراء لفارس القومية العربية في القرن العشرين ساطع الحصري أردنا عرضها هنا لنرى معاً كيف ينظر للعلاقة بين الاسلام والقومية وهي: «إن فكرة القومية العربية صادفت في طريق سيرها وانتشارها عراقيل كثيرة، وعقبات خطيرة وقد تغلبت على الكثير منها منذ بداية القرن الحالي:

فإنها اخترقت أولا السد المنيع الذي تكون من امتزاج فكرة الجامعة العثمانية بمعنوية الخلافة الاسلامية. وهي على وشك الانتهاء من التغلب على العقبات التي تعترض طريقها باسم الرابطة الشرقية من ناحية، والرابطة الاسلامية من ناحية أخرى»(١).

«ان الأديان والمذاهب في البلاد الاوروبية، قد أثرت في سير الحركات القومية عن طريق تدخلها في صراع اللغات وتنافسها، كعامل «مساعد» لبعضها، وعامل «عائق» لبعضها الآخر. ولكنها، لم تصبح قط، عاملا في تكوين القوميات»(٢).

«ان آراء المعارضين للفكرة القومية - بناء على حجج دينية - ظلت تسيطر على أذهان الكثيرين مدة طويلة، وبذلك أعاقت كثيراً نشوء الفكرة القومية في البلاد العربية»(٣).

«ان الديانة الاسلامية لعبت دورا هاما في تقدم القومية العربية وتوسعها، لأنها: أولا: كانت «القومية الدافعة» للفتوحات العربية، التي نشرت اللغة العربيـــة،

١ - ساطع الحصري، اللغة والادب وعلاقتهما بالقومية، ص٢٢٩ .

٢ - ساطع الحصري، ما هي القومية، دار الملايين، بيروت، ١٩٥٩، ص١٩٨.

٣ - المصدر السابق ص٢٠٠.

ووسعت نطاق القومية العربية. ثانيا: صارت «القومية الواقعية» التي أكسبت اللغة المذكورة نوعا من «المناعة» ضد عوامل التفرع والتفتت، وصانت بذلك القومية العربية من الانشطار في عهد انحطاطها الطويل، ولكن ذلك لا يعني: ان القومية العربية ظلت مرتبطة بالديانة الاسلامية لأنه: قد تكونت أمم اسلامية غير عربية من ناحية، وجماعات عربية غير مسلمة من ناحية أخرى»(١).

وقد استشهد ساطع الحصري بأحد الأبيات الشعرية ليوضح لنا بجلاء علاقة القومية بالاسلام:

سلامٌ على كفرٍ يُوحّد بيننا　　　وأهلاً وسهلاً بعدهُ بجَهَنَّمِ(٢)

وفي هذا الموضوع يقول إلياس مرقص «الاسلام أسهم في تكون قومية عربية في إطار جغرافي - تأريخي - معلوم ومحدود...كما ان الاسلام أسهم في تكون قوميات عديدة في آسيا وإفريقيا وأوروبا، يفوق تعداد أفرادها عدة مرات تعداد افراد القومية العربية...اذاً فالاسلام لم يكن قومية عربية اسلامية واحدة....بل أكثر من ذلك»(٣).

يرى الدكتور عبدالله السامرائي في كتابه «الاسلام والقومية والاسلام والاممية» أن الرسالة الاسلامية عملت، على تهذيب الشعور القومي وتنقيته من الشوائب العنصرية والصعود بالاتجاه القبلي من بؤرة الصراع والتعصب الى آفاق الوحدة القومية الجامعة. كما عملت الرسالة الاسلامية على تحريك الولاء القومي والترابط بين أبناء الامة الواحدة من دائرته القومية الى الدائرة الانسانية على اعتبار ان الدائرتين تكمل احداهما الاخرى حيث إن الدائرة القومية ذاتها تقوم على وحدة الانسان ووحدة الأمة. وان هذا الانسان واحد في القيمة عند سائر الأمم....ولما كان الاسلام الرسالة الخاتمة وهو للناس جميعا فإن كل شعب يؤمن بهذه الرسالة ويعمل بها يتحول الى أمة...فعندما يؤمن الفرس بالاسلام يجعل منهم أمة فارسية وعندما يؤمن الأتراك به يصير هذا الشعب أمة تركية وعندما يؤمن البنغاليون بالاسلام يصير -الامة البنغالية- وهكذا بالنسبة لكل شعب. ومن اجل تسمية هذه الامم تسميات دقيقة وربط هذه التسمية بالنظرية التي كانت وراء قيامها فتسمى تلك الأمم باسماء

١ - المصدر السابق ص٢٤٩.

٢ - ساطع الحصري، اللغة والادب وعلاقتهما بالقومية، ص٢٥٠.

٣ - الياس مرقص، القومية العربية والاسلام، ص١٤١.

أقوامها ولغاتهم مضافا اليها اسم- الاسلامية- فتكون هناك أمة فارسية اسلامية وأمة تركية اسلامية وأمة بنغالية اسلامية وهكذا....ونظراً لأن لغة الرسالة الخاتمة هي العربية ولغات هذه الشعوب غير العربية فان ايمان هذه الشعوب بالاسلام يصيرهم أمما ولكن لا يصيرهم قوميات....لأن اللغة أهم عنصر من عناصر التكوين القومي. إن تفاعل الرسالة الخاتمة مع العرب حولهم الى أمة عربية اسلامية وان هذا التفاعل حولهم الى قومية عربية....ذلك لأن لغة القرآن هي العربية وان اللغة اهم ركن من أركان التكوين القومي»(١)

واضح من المقتطفات السابقة مدى التناقض والتخبط تارة وعدم الوضوح تارة اخرى، وعلى الذي يود ان يرى المزيد حول عداء أبطال القومية للاسلام ان يطلع على مؤلفات الكاتب ساطع الحصري، والأمير مصطفى الشهابي، والدكتور محمد معروف الدواليبي. والذي يود أن يعي أهم الدوافع الكامنة وراء إذكاء روح القومية العربية ان يطلع على كتاب «اعمدة الحكمة السبعة» للمؤلف ت.أ لورانس.

يقول شيخ جامع الازهر السيد محمد مصطفى المراغي: «غير خاف عليكم ان الدين لم يذهب الى العصبية الجنسية ولم يفرق بين العربي وغير العربي، وجعل الامة الاسلامية واحدة، لا فرق بين أجناسها»(٢)

ويبدو بوضوح رأي ابو الأعلى المودودي رحمه الله حول هذا الموضوع في كتابه «الامة الاسلامية وقضية القومية» حيث يقول: ان من يبحث عن معنى القومية وحقيقتها بحثاً سريعاً خاطفاً، لا يمكن ان يخفى عليه ان الاسلام والقومية يتعارضان معا من حيث روحاهما وهدفاهما. فالاسلام يخاطب الانسان ويتعامل معه من حيث كونه إنسانا، فهو يقدم للبشرية جمعاء نظاما اجتماعيا للعدل والتقوى، يقوم على أساس عقائدي وأخلاقي، ويدعو جميع البشر الى هذا النظام، وهو يضم من يقبل هذا النظام الى دائرته ويتمتع بحقوق متساوية مع الجميع، ولا يكون هناك أي مجال لتفرقة او تمييز من أي نوع طبقياً كان أو جغرافيا، قوميا كان او عرقيا، بين من يتبع عقيدة الاسلام، في مجال العبادات او مجال الاقتصاد او السياسة او الحقوق والواجبات او في مجال آخر من مجالات الحياة. فهدف الاسلام النهائي هو إقامة

١- عبد الله سلوم السامرائي، الاسلام والقومية الاسلام والامية، بغداد، ١٩٨٥، ص١٦٩-١٧٣.

٢- ساطع الحصري، ماهية القومية، ص٢٠٤.

دولة عالمية تتحطم فيها جميع سلاسل التعصبات العرقية والقومية، ويقام فيها نظام مدني وسياسي ويشترك فيه البشر جميعا بحقوق وفرص للرقي متساوية، ويحل التعاون الأخوي محل المواجهة العدائية حتى يقوم الناس بمساعدة بعضهم بعضا في تطورهم المادي والروحاني، ان نظام الأصول والمبادىء ونظم الحياة التي وضعها الاسلام للفلاح البشري، يمكن لها أن تجذب الناس عامة حين يخلون انفسهم من عصبيات الجاهلية، وحين يطهرون انفسهم من التعلق بمثلهم القومية، وعاطفة التفاخر العرقي، والمحبة القائمة على علاقات الدم والتراب، ويصبحون على استعداد للاجابة على هذه الاسئلة كبشر ليس إلا: ما هو الحق؟ أين يكمن العدل والإنصاف؟ ما هو طريق فلاح البشرية ورخائها من حيث المجموع لا من حيث كونها طبقة واحدة أو أمة واحدة أو بلد واحد؟ وعلى العكس من هذا فان القومية تفرق بين الانسان والانسان على أساس قوميته، فمعنى القومية هو ان يفضل القوميون في كل امة قوميتهم على جميع القوميات الاخرى، وأن يكون هذا القومي قوميا ظالما عدوانيا لأن من مستلزمات القومية أن يفرق على الاقل بين القومي وغير القومي من الناحية الحضارية والسياسية والقانونية، فيحفظ لأهل أمته أكثر الامتيازات، كما يقوم بالحفاظ على المثل التاريخية والعصبية التي تقوم عليها قوميته، ويرعى ما بداخله من عواطف الفخر والتفاخر القومي، فهو لن يشرك معه أهل القوميات الأخرى في أي مجال من مجالات الحياة على أسس متساوية، ولأنه من الواجب ان تتمتع أمته بفوائد ومنافع أكثر من الأمم الأخرى فإن قلبه يعمى عن العدل والانصاف، فهدفه النهائي هو إقامة الدولة القومية، بدلا من الدولة العالمية، ولو حدث واختار نظرية عالمية فان شكلها يكون بالضرورة شكلا استعماريا أو قيصريا لأن اهل القوميات الأخرى لا يمكن ان ينضموا الى دولته ويتمتعوا بالمساواة، بل يمكنهم ان ينضموا الى دولته كخدم فيها...يتضح بسهولة ان هذين المنهجين متعارضان متضادان، فحيث توجد القومية لا يمكن للإسلام أن ينمو، وحيث يوجد الاسلام، لا يكون هناك مكان للقومية، فمعنى نمو القومية هو ان يغلق الطريق أمام انتشار الاسلام، ومعنى نمو الاسلام هو اقتلاع جذور القومية من أساسها، والآن أصبح من الواضح ان الشخص الواحد الذي يدافع في وقت واحد عن نمو هذين المنهجين معا، إنما هو يعارض نفسه، فلا يمكن بأي شكل من الاشكال ان يركب شخص قاربين لكل منهما اتجاه معاكس في آن واحد. ان من يدعي تبعيته لمنهج، ومع هذا يدافع عن منهج آخر يخالفه تماما، يعبر عن اضطرابه الذهني، ونرى أنفسنا مضطرين ان نقول لمن

يقوم بهذا، انه لا يفهم الاسلام، او انه لا يفهم القومية، او انه يجهل الاثنين معا»(١).

بعد أن عرضنا الآراء السابقة وما تحمل في طياتها من أفكار متضاربة حول العلاقة بين الاسلام والقومية، فلا مندوحة لنا من الرجوع الى الجذور التاريخية للاسلام والقومية ونرى كيف كانت العلاقة بينهما عبر التاريخ لنصل في النهاية الى حقيقة العلاقة بين الاسلام والقومية ونوعيتها.

بين لنا الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أنه خلق آدم وزوجه حواء في عالم الغيب، وطلب من الملائكة ان تسجد لآدم عليه السلام فسجدوا جميعا إلا إبليس أبى واستكبر، وكانت حجته الواهية انه خلق من مادة ومعدن أفضل من المادة التي خلق منها آدم، إذ انه خلق من نار وآدم عليه السلام خلق من طين. وقد خلق الحق سبحانه وتعالى آدم من طين ونفخ فيه من روحه جلت وتعالت قدرته، وخلق من نفس آدم زوجه حواء وقال لهما اسكنا الجنة ولا تقربا تلك الشجرة وإياكم وعدوكم إبليس أن يخرجكما من الجنة كيداً وعدوانا منه لآدم وزوجته. غير أن إبليس استطاع ان يغوي آدم وحواء ويكون سببا في إخراجهما من الجنة. فقد أمر الحق سبحانه وتعالى بهبوط آدم وحواء وعدوهما إبليس الى عالم الشهادة (عالم الحس) بعضهم لبعض عدو. وقد وعد الحق سبحانه وتعالى رحمة وتلطفا منه ذرية آدم أن يبعث لهم هدى ينير لهم سبل الخير والرشد ويقوي من قدرة الانسان ويشد ساعده في مقاومة عدوه اللدود ابليس. كما بين الحق سبحانه وتعالى ان هذا الهدى بعثه سبحانه وتعالى ليخرج الناس من الظلمات الى النور. وأن من يؤمن بهذا النور سيكون له الفوز العظيم، والذي يصدف عنه يكون له الهلاك والخسران المبين. كما بين الحق سبحانه وتعالى ان هذا الهدى سيأتي الى بني آدم عن طريق رسل منهم يقصون عليهم آيات الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى:

«يا بَني آدَمَ إمَّا يَأتِيَنَّكُم رُسُلٌ مِنكُم يَقُصُّونَ عَلَيكُم آياتي فَمَنِ اتَّقَى وَأصلَحَ فلا خَوفٌ عَلَيهِم ولا هُم يَحزَنونَ* والَّذينَ كَذَّبوا بآياتِنا واستَكبَروا عَنها أولئِكَ أصحابُ النّارِ هُم فيها خالِدونَ» (٢)

١ - ابو الاعلى المودودي، الامة الاسلامية وقضية القومية، دار الانصار، القاهرة، ١٩٨١، ص١٥٣-١٥٥.

٢ - سورة الاعراف آية ٣٥ - ٣٦.

وقد بين لنا الباري سبحانه وتعالى مهمة هؤلاء الرسل بأنهم مبشرون للذين آمنوا بهذا الهدى الالهي المنير ومنذرين للذين ابتعدوا عن النهج الالهي وأنكروا المصير الذي سوف يلاقيه كل طرف في اليوم الآخر. وهذا جميعه يقفل الطريق أمام الناس في اليوم الآخر من التذرع بالحجج الواهية يوم الوقوف أمام الحق سبحانه وتعالى.

قال تعالى

«رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ على اللهِ حُجَّةٌ بَعدَ الرُّسُلِ وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً» (١)

وقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى ان يبعث كل رسول الى قومه بلسانهم وعلى أرضهم التي يعيشون عليها ليقطع على الانسان التبجح والتذرع بحجج واهنة. فاذا ما ارادوا ان يتذرعوا برابطة الدم ونظرية العرق فالرسول يكون منهم، واذا ارادوا ان يحتجوا على عامل اللغة، فالرسول جاء بلغتهم، واذا ارادوا ان يرفعوا ضد الرسول شعار الارض والوطن، فالرسول جاءهم على ارضهم وفي وسط منازلهم.

قال تعالى:

«وَما أَرسَلنا مِن رَّسُولٍ إلاَّ بِلِسانِ قَومِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشاءُ وَيَهدِي مَن يَشاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ» (٢)

ولقد واجه رسل الحق عليهم السلام جميعا من أقوامهم أشد أنواع الأذى، والسخرية، والاستهزاء، والتكذيب، والطرد، والعداء، والقتال. وهذا ما سنوضحه من خلال عرض بعض النماذج لما حصل مع بعض رسل الحق سبحانه وتعالى.

ان اول رسول بعث الى قومه ليقودهم الى سبيل الخير والرشاد هو سيدنا نوح عليه السلام لحاجة قومه الماسة لمن يبين لهم طريق الخير والصلاح بعد ان دب بينهم الفساد. وقد جاء ذكر سيدنا نوح عليه السلام في القرآن الكريم في سورة الاعراف، وسورة يونس، وسورة هود، وسورة «المؤمنون»، وسورة الشعراء، وسورة نوح.

«كان الناس بعد آدم عليه السلام يعيشون أمة واحدة على بساطة وسذاجة، وهم على الفطرة الانسانية حتى فشا فيهم روح الاستكبار وآل الى استعلاء البعض على البعض تدريجيا واتخاذ بعضهم بعضا أربابا، وهذه هي النواة الاصلية التي لو نشأت

---

١ - سورة النساء آية ١٦٥.

٢ - سورة ابراهيم آية ٤.

واخضرت وأينعت لم تثمر إلا دين الوثنية والاختلاف الشديد بين الطبقات الاجتماعية باستخدام القوي للضعيف، واسترقاق العزيز واستدراره للذليل، وحدوث المشاجرات والمنازعات بين الناس. فشاع في زمن سيدنا نوح عليه السلام الفساد في الأرض، وأعرض الناس عن دين التوحيد وعن سنة العدل الاجتماعي، وأقبلوا على عبادة الأصنام، وقد سمى الله سبحانه وتعالى منها وداً وسواعا ويغوث ويعوق ونسراً. وتباعدت الطبقات، فصار الأقوياء بالأموال والأولاد يضيعون حقوق الضعفاء، والجبابرة يستضعفون من دونهم ويحكمون عليهم بما تهواه أنفسهم. فبعث الله سبحانه وتعالى نوحا عليه السلام وأرسله اليهم بالكتاب والشريعة يدعوهم الى توحيد الله وخلع الأنداد والمساواة بينهم»(١)

إن الحق سبحانه وتعالى بين لنا في كتابه الحكيم بعثة سيدنا نوح الى قومه حيث قال سبحانه وتعالى:

«إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٢)

واضح من الآية الحكيمة السابقة ان الحق سبحانه وتعالى بعث بسيدنا نوح الى قومه لينذرهم قبل ان يقع عليهم العذاب وان يعودوا الى رشدهم ولا يناهضوا فطرتهم بانسياقهم وراء شهواتهم. وسوف نعرض الايات القرآنية الحكيمة التي تدل على الرسالة التي نقلها سيدنا نوح الى قومه، لنعرف بالتحديد الى أي شيء كان يدعوهم سيدنا نوح عليه السلام.

قال تعالى:

«قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ* أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ» (٣).

قال تعالى:

«لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (٤)

---

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، المجلد العاشر ص٢٤٨.
٢ - سورة نوح آية ١.
٣ - سورة نوح آية ٢-٤.
٤ - سورة الاعراف آية ٥٩.

قال تعالى:

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ* أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ» (١).

إن سيدنا نوح عليه السلام كما هو واضح جلي في الايأت السابقة كان يدعو قومه الى العودة الى دين التوحيد والفطرة بعد أن انتشر الفساد بينهم وأخذت عبادة الاصنام شأنها بينهم. انه ينذرهم بالعذاب في إطار المحبة لهم والخـوف عليهم منه أن لم يغيروا من حالهم. انه يهدف إلى أن يقودهم الى طريق الحق والإيمان بالله سبحانه وتعالى خالق البشرية وجامعها الى يوم الدين. وسوف نعرف بالتحديد موقف قوم نوح من سيدنا نوح عليه السلام من خلال عرض الآيات القرآنية الحكيمة التالية:

قال تعالى:

«قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (٢)

قال تعالى:

«فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ» (٣).

قال تعالى:

«قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ» (٤)

قال تعالى:

«قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (٥)

قال تعالى:

«قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ» (٦)

١- سورة هود آية ٢٥-٢٦.

٢- سورة الاعراف آية ٦٠.

٣- سورة هود آية ٢٧.

٤- سورة الشعراء آية ١١٦.

٥- سورة هود آية ٣٢.

٦- سورة الشعراء آية ١١١.

قال تعالى:

«وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وقالوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُم ولا تَذَرُنَّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسراً»(١).

في الوقت الذي كانت فيه نفس سيدنا نوح عليه السلام تتوق إلى إخراج قومه من الظلمات الى النور عن طريق توجيههم الى بارئهم والابتعاد بهم عن الاصنام الصماء التي اتخذوها آلهة لهم إذ خاطبهم بكل رفق وفصاحة موضحا لهم جميع المداخل التي تقودهم الى الايمان ذهبوا إلى توجيه التهم لشخص سيدنا نوح عليه السلام والى من اتبعه من قومه وهددوا سيدنا نوح عليه السلام بالرجم إن لم ينته عن دعوته لهم بترك الأصنام ويتجهوا الى الله سبحانه وتعالى. وقد مكروا مكراً شديداً وتواصوا على التمسك بأصنامهم كونها من آثار الآباء والأجداد، إن الخلاف بين سيدنا نوح عليه السلام من جهة وبين قومه من جهة أخرى يدور حول قضية التوحيد التي فطر عليها الناس جميعا. والشيء الغريب أن قوم نوح قد رفعوا في وجه سيدنا نوح وهم يكذبونه، ويجادلونه، ويهددونه شعار آثار الآباء والأجداد المتجسدة في الأصنام التي كانوا يعبدونها في الوقت الذي كانوا فيه يسخرون من سيدنا نوح ومن اتبعه بالرغم من ان نوح عليه السلام والذين اتبعوه من نفس القوم، وكانوا يتحدثون نفس اللغة، ويقطنون المكان نفسه. فماذا تعني البراءة من هؤلاء الذين يعيشون بين ظهرانيهم ولا يريدون لقومهم إلا كل خير وكل ما يؤدي اليه وفي نفس الوقت يتواصون فيما بينهم بالالتزام التام بالآلهة التي ورثوها عن الآباء والاجداد. وهل كان سيدنا آدم وزوجه عليهما السلام على دين التوحيد أم على دين آلهتهم واصنامهم. فهم لا يريدون دين الآباء والأجداد، ولو كانوا يريدونه لاتبعوا دين التوحيد الذي عاشه سيدنا آدم وحواء. وفي نفس الوقت لا يريدون أن يتبعوا الحق الذي صرح به سيدنا نوح بلغتهم وعلى أرضهم وكان في نفس الوقت واحداً منهم. فهذا الدليل الاول على رفع شعار القومية المتمثل فيما ورثوه عن الاباء والاجداد فقط للوصول الى شهواتهم وأغراضهم الذاتية في وجه الحق وأتباعه.

وقال تعالى:

«بَل قالوا إنَّا وَجَدنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارِهِم مُهتَدُونَ * وَكَذلِكَ ما أرسَلنا مِن قَبلِكَ في قَريَةٍ مِن نَذيرٍ إلاَّ قالَ مُترَفوها إنَّا وَجَدنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارِهِم مُقتَدونَ * قالَ أوَلَو جِئتُكُم

١ - سورة نوح آية ٢٢ - ٢٣.

بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّم عَلَيْهِ آبَاءَكُم قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ» (١).

واضح من الآيات السابقة أن هذا الشعار قد رفعه الكافرون بالحق الذي بعثه الله سبحانه وتعالى ضد رسل الحق الذين بعثهم الله سبحانه وتعالى بالهدى والنور رحمة للعالمين. وفي كل مرة يتذرعون بالفساد وعبودية الأصنام التي ورثوها عن آبائهم الذين يمثلون القسم المنحرف من الناس عن دين الفطرة. وبعد أن استنفد سيدنا نوح عليه السلام جميع وسائل الحوار مع قومه ولم يؤمن له الا من آمن من قبل فقد جاءهم الله سبحانه وتعالى بالطوفان ليهلك به الكافرين وينجي الحق سبحانه وتعالى سيدنا نوح ومن معه بالفلك الذي كان يصنعه سيدنا نوح أمام أعين الكافرين وهم يسخرون منه، وهو يقول لهم ستعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم.

إن الوشائج القومية التي تجمع سيدنا نوح عليه السلام مع قومه يجب أن تعكس ذاتها في نفوس القوم وفي جميع أنماطهم السلوكية نحو رسول القوم الذي هو منهم وجاءهم بلغتهم وعلى أرضهم يدعوهم الى سبيل الخير والرشد. يجب ان يكون هذا الرسول مصدر إعجاب واعتزاز عند القوم الذين يفخرون بأجدادهم وآبائهم حقا. ولكن محاربتهم للفكر الذي يدعو إليه سيدنا نوح جعلهم يسخرون من سيدنا نوح ومن معه ويكذبونه ويهددونه بالرجم إن لم ينته عن دعوتهم الى دين التوحيد والفطرة، وكأنهم لا تربطهم صلة قربى بنوح ومن معه. وقد وصلت درجة العناد لهذا الفكر الذي يدعو إليه سيدنا نوح ذروتها عندما انسلخ عن سيدنا نوح ابنه وزوجته ورضيا أن يكونا مع الكافرين المغرقين بالطوفان.

وهكذا انتهى الجمع الفاسد المناهض للفطرة عن الوجود المادي بهلاكهم بالطوفان، وبقي الجمع المؤمن وعلى رأسه سيدنا نوح عليه السلام. وبعد مرور السنين دب الفساد بين الناس فبعث الحق سبحانه وتعالى بسيدنا هود الى قومه عاد يدعوهم الى الابتعاد عن الفساد ودروبه والتوجه الى الحق سبحانه وتعالى. وسوف نورد الآيات التي توضح لنا دعوة سيدنا هود الى قومه لنرى الى أي شيء كان يدعوهم سيدنا هود وبماذا كانوا يواجهونه.

قال تعالى:

«وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ* قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ

---

١ - سورة الزخرف آية ٢٢-٢٤.

«وإنّا لنظنّك من الكاذبين* قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكنّي رسول من ربّ العالمين * أبلّغكم رسالات ربّي وأنا لكم ناصح أمين» (١).

قال تعالى:

«وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيرُه إن أنتم إلاّ مفترون* يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلاّ على الذي فطرني أفلا تعقلون* ويا قوم استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه يرسل السّماء عليكم مدراراً ويزدكم قوّةً إلى قوّتكم ولا تتولّوا مجرمين* قالوا يا هود ما جئتنا ببيّنةٍ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين* إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوءٍ قال إنّي أشهد الله واشهدوا أنّي بريءٌ ممّا تشركون» (٢)

تدل الآيات السابقة بوضوح على ان سيدنا هود كان يدعو قومه الى عبادة الله وحده وخلع الأنداد بالابتعاد عن الأصنام التي عادوا اليها بعدما دب الفساد بينهم ثانية، بالرغم من أن الأصنام وعبيدها قد انتهى أمرهم بالطوفان الذي بعثه الحق سبحانه وتعالى على قوم نوح. ولكن الفساد الذي دب ثانية بين الناس جعلهم يتوجهون نحو عبادة الأصنام من دون الله سبحانه وتعالى. لذلك خاطبهم سيدنا هود عليه السلام أن يستغفروا ربهم ويعودوا الى عبادته وانه الناصح الامين لهم في هذه الدعوى. فما كان جواب قومه إلا أن هاجموه بشدة واتهموه بالضلالة، والسفه، والكذب، والجنون. والشيء المذهل والعجيب أنهم سخروا منه ومن الشيء الذي يدعوهم اليه وهو عبادة الله، فقالوا كيف نعبد الله وحده ونذر جانبا ما كان يعبد الآباء والأجداد إن الآباء والأجداد بالنسبة لهم هم في الأصل سيدنا نوح ومن كان معه من الجمع المؤمن الذين نجاهم الله سبحانه وتعالى من الطوفان ولكن عندما دب الفساد بينهم بعث الله سبحانه وتعالى لهم سيدنا هود ليقودهم الى طريق الخير والرشاد. ولكنهم احتجوا عليه بآلهة الفاسدين من آبائهم وأجدادهم. وهكذا رفع شعار الآباء والأجداد ثانية بوجه سيدنا هود عليه السلام لمقاومة الحق الذي يدعو إليه.

قال تعالى:

«قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصّادقين» (٣).

ومما تجدر الإشارة إليه أن قوم عاد كانوا من العرب الذين سكنوا الجزيرة العربية.

---

١ – سورة الاعراف، آية، ٦٥–٦٨.

٢ – سورة هود آية ٥٠ – ٥٤.

٣ – سورة الاعراف آية ٧٠.

وقد بعث الله سبحانه وتعالى بسيدنا صالح عليه السلام الى قومه ليدعوهم الى عبادة الله والابتعاد عن الاصنام التي اتخذوها آلهة لهم من دون الله. وقد جاءهم بالناقة التي طلبوا من سيدنا صالح أن يخرجها لهم من الصخرة المقدسة عندهم ليؤمنوا له بما يدعوهم اليه، إذ كانوا يعظمون تلك الصخرة ويذبحون عندها القرابين في رأس كل سنة، فأخرجها الله لهم كما طلبوا، ناقة عشراء تخرج لهم من الصخرة المقدسة عندهم فكذبوا سيدنا صالحا عليه السلام وعقروا الناقة واستحقوا على ذلك غضب الله سبحانه وتعالى فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين جزاء تكذيبهم لرسولهم وعقر الناقة التي أمروا أن لا يمسوها بسوء.

قال تعالى:

«وإلى ثَمُودَ أخاهُم صالِحاً قالَ يا قَومِ اعبُدوا اللهَ ما لَكُم مِّن إلهٍ غَيرُهُ هُوَ أنشأَكُم مِّنَ الأرضِ واستَعمَرَكُم فيها فاستَغفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إليهِ إنَّ رَبِّي قَريبٌ مُّجيبٌ» (١).

وقال تعالى:

«وإلى ثَمُودَ أخاهُم صالِحاً قالَ يا قَومِ اعبُدوا اللهَ ما لَكُم مِّن إلهٍ غَيرُهُ قَد جاءَتكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُم هَذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُم آيَةً فَذَرُوها تأكُل في أرضِ اللهِ ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأخُذَكُم عَذابٌ أليمٌ* واذكُرُوا إذ جَعَلَكُم خُلَفاءَ مِن بَعدِ عادٍ وَبَوَّأَكُم في الأرضِ تَتَّخِذونَ مِن سُهُولِها قُصُوراً وَتَنحِتونَ الجِبالَ بُيوتاً فاذكُروا آلاءَ اللهِ ولا تَعثَوا في الأرضِ مُفسِدِينَ* قالَ المَلأُ الَّذِينَ استَكبَروا مِن قَومِهِ لِلَّذينَ استُضعِفوا لِمَن آمَنَ مِنهُم أتَعلَمُونَ أنَّ صالِحاً مُّرسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قالوا إنَّا بِما أُرسِلَ بِهِ مُؤمِنونَ* قالَ الَّذينَ استَكبَروا إنَّا بالَّذي آمَنتُم بِهِ كافِرونَ* فَعَقَروا النَّاقَةَ وَعَتَوا عَن أمرِ رَبِّهِم وقالوا يا صالِحُ ائتِنا بِما تَعِدُنا إن كُنتَ مِنَ المُرسَلِينَ* فأخَذَتهُمُ الرَّجفَةُ فأصبَحوا في دارِهِم جاثِمينَ* فَتَوَلَّى عَنهُم وقالَ يا قَومِ لَقَد أبلَغتُكُم رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحتُ لَكُم وَلَكِن لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ» (٢).

ومن العجيب جداً أن أساليب أقوام الرسل وشعاراتهم هي متشابهة بصورة كبيرة. فالذين كفروا برسالة سيدنا صالح وطعنوا في صدقه، ذهبوا ليعلنوا تمسكهم بعبارة –ما كان يعبد الآباء والأجداد–، بالتحديد كما فعل من قبلهم من الأقوام.

١- سورة هود آية ٦١.

٢- سورة الاعراف آية ٧٣ - ٧٩.

قال تعالى:

«قالُوا يا صالِحُ قَد كُنتَ فِينا مَرجُوّاً قَبلَ هٰذا أَتَنهانا أَن نَّعبُدَ مَا يَعبُدُ ءاباؤُنا وإنَّنا لَفي شَكٍّ مِّمَّا تَدعُونا إليهِ مُرِيبٍ» (١).

وهذا يدل بوضوح على أنهم كانوا فقط ينتمون الى الكفار والفاسدين من آبائهم وأجدادهم الذين انحرفوا عن الفطرة الإنسانية التي فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليها. لذلك فإنهم لا يعترفون بدين آدم، ونوح، وهود عليهم السلام ولا الذين اتبعوهم من أقوامهم، كما لا يعترفون بهم أنهم من الآباء والأجداد.

وقد بعث الله سبحانه وتعالى بسيدنا ابراهيم إلى قومه ليدعوهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى ويتخلوا عن عبادة الأوثان التي اتخذوها من دون الله، وقد بين لهم بشتى الطرق والوسائل عدم جدوى عبادة الاوثان وفي كل مرة لا يجد من قومه إلا العناد والابتعاد عن الحق والتمسك بأوثان الآباء والاجداد.

قال تعالى:

«واتلُ عَلَيهِم نَبَأَ إبراهِيمَ* إذ قالَ لأبيهِ وَقَومِهِ ما تَعبُدُونَ * قالوا نَعبُدُ أصناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفينَ* قالَ هَل يَسمَعُونَكُم إذ تَدعونَ * أو يَنفَعُونَكُم أو يَضُرُّونَ* قالوا بَل وَجَدنا آباءَنا كَذٰلِكَ يَفعَلُونَ» (٢)

وقال تعالى:

«وإبراهيمَ إذ قالَ لِقَومِهِ اعبُدوا اللهَ واتَّقُوهُ ذٰلِكُم خَيرٌ لَّكُم إن كُنتُم تَعلَمُونَ* إنَّما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ أوثاناً وَتَخلُقونَ إفكاً إنَّ الَّذينَ تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ لا يَملِكُونَ لَكُم رِزقاً فابتَغوا عِندَ اللهِ الرِّزقَ واعبُدُوهُ واشكُروا لَهُ إليهِ تُرجَعونَ* وإن تُكَذِّبوا فَقَد كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبلِكُم وَما على الرَّسولِ إلاَّ البَلاغُ المُبِينُ» (٣).

وقال تعالى:

«ولَقَد آتَينا إبراهيمَ رُشدَهُ مِن قَبلُ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ* إذ قالَ لأبيهِ وَقَومِهِ ما هذهِ التَّماثِيلُ الَّتي أنتُم لَها عاكِفونَ* قالوا وَجَدنا ءاباءَنا لَها عابِدِينَ* قالَ لَقَد كُنتُم أنتُم وآباؤُكُم في ضَلالٍ مُّبِينٍ» (٤).

١- سورة هود آية ٦٢.

٢- سورة الشعراء آية ٦٩ - ٧٤.

٣- سورة العلكبوت آية ١٦-١٨.

٤- سورة الانبياء آية ٥١-٥٤.

واضح من الآيات السابقة حرص سيدنا إبراهيم على هداية قومه وما كان يرجوه منهم وهو التوجه الى خالقهم سبحانه وتعالى وخلع الأنداد التي أشركوها مع الله سبحانه وتعالى. وما كان من قومه إلا ان تمسكوا بأصنام الآباء والاجداد كما يعلنون وتكاتفوا على قتل سيدنا إبراهيم أو حرقه في النار. وقد نجاه الله سبحانه وتعالى من كيدهم.

قال تعالى:

«فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (١).

واضح من سلوك الأقوام الأربعة السابقة مع رسل الحق عليهم السلام ان هناك تشابها كبيراً في شعاراتهم ومواقفهم اتجاه الحق. ففي كل مرة يظهرون لرسولهم الذي جاء لإنقاذهم من الفساد الذي استشرى بينهم، العناد، والتكذيب، وإلقاء التهم، والعزم على قتله أو طرده هو ومن اتبعه من القوم، وفي الوقت نفسه يرفعون شعار القومية المتمثل بعبادة الأوثان والأصنام التي كان يقدسها آباؤهم وأجدادهم. وبين لنا القرآن الكريم تلك المواقف والشعارات التي كان يرفعها كل قوم في وجه رسل الحق في الآيات القرآنية الحكيمة التالية:

قال تعالى:

«أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» (٢)

قال تعالى:

«وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» (٣).

١- سورة العنكبوت آية ٢٤.

٢- سورة ابراهيم، آية ٩ - ١٠.

٣- سورة الانعام، آية ١٠-١١.

قال تعالى:

«كَذٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجنُونٌ * أَتَوَاصَوا بِهِ بَل هُم قَومٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنهُم فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ» (١).

وعلى هذا النهج العقيم الذي ينم على جهل الأقوام بقيمة رسل الحق سبحانه وتعالى وما جاءوا به هداية لهم، ذهبوا لمقاومة رسل الله بشتى الطرق والوسائل التي عرفها البشر بالرغم من وضوح دعوتهم وثبوت مصداقيتهم، وقد كانت حجة كل قوم انهم لا يريدون ان يبتعدوا عن دين الآباء والاجداد المتمثل بعبادة الأصنام والاعتقاد بالأوهام التي تناسب أهواءهم وأمزجتهم. إن جميع المكائد والشرور المستطيرة كان يخططها كل قوم ضد رسولهم بالرغم من المعجزات التي كان يجريها الحق سبحانه وتعالى على أيدي رسله لتكون أدلة ساطعة مشرقة على صدق دعواهم، هذا بجانب العدد الهائل من الطلبات التي كان يشترطها كل قوم على رسولهم لكي يؤمنوا له. ومن المؤسف حقا أنه كلما تم تلبية هذه الطلبات ازداد القوم نفوراً وبعداً عن رسولهم الكريم ونهجه القويم الذي يدعو إليه. وكلما حصحص الحق أمام أعينهم ازداد القوم غيظا على رسولهم وأخذوا يقذفونه بالتهم الباطلة المغرضة، ويخططون إلى طرده من بينهم أو قتله. إن القرآن الكريم يفيض بهذه القصص المفجعة التي كان يقوم بها الإنسان عبر تاريخه ضد أصفياء البشر الذين اختارهم الحق سبحانه وتعالى ليكونوا المبشرين والمنذرين للانسان لكي يفوز بنعيم الدنيا والآخرة وقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى ان ختم المدد الرسالي بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حيث بعثه بالاسلام الى الناس كافة بالرغم من أن القرآن نزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم في اللغة العربية وانه عليه الصلاة والسلام ينحدر من أصل عربي.

قال تعالى:

«قُل يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيكُم جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرضِ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُم تَهتَدُونَ» (٢).

وعندما بعثه الحق سبحانه وتعالى في مكة كان العرب حينئذ يعيشون في عهد الجاهلية. وقد كان أسلافهم الأقدمون ومنهم عاد وثمود على دين الوثنية، وهذا مـــا

١ - سورة الذاريات، آية ٥٢-٥٤.

٢ - سورة الاعراف آيه، ١٥٨.

اخبرنا به الحق في كتابه المنير عن قوم هود وصالح وعن أهل سبأ في قصة سليمان والهدهد حتى جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة وكانت تسكنها قبيلة جرهم. وبنى سيدنا ابراهيم عليه السلام الكعبة البيت الحرام. ثم تهود بعض الأعراب لمعاشرة كانت بينهم وبين اليهود النازلين بالحجاز وتسربت النصرانية الى بعض أقطار الجزيرة، والمجوسية الى بعضها الآخر. وكان مما يقربهم إلى الوثنية أن الكعبة المشرفة كان يعظمها اليهود والنصارى والمجوس والوثنية جميعا، فكان لا يأتي مكة زائر إلا حمل معه شيئا من حجارة الحرم تبركا وتيمنا. وكان من الأصنام المعروفة بينهم هبل، وإساف، ونائلة وهي التي أتى بها عمرو بن لحي من بلاد الشام، واللات والعزى، ومناة، وود، وسواع، ويغوث، ويعوق ونسر. وقد كانت عقائدهم وعاداتهم الوثنية تنبثق من عدة مصادر، وهي وثنية الصابئة والديانة البرهمية، والدين الحنيف وهو اسلام سيدنا إبراهيم، هذا بجانب أمور اختلقوها من عند أنفسهم كالقول بالسائبة، والوصيلة، والبحيرة، والأنصاب، والأزلام، الى غيرها من الأمور.

«لم يكن العرب يجحدون الله ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه: أحد، صمد. فكانوا يشركون به ولا يقدرونه حق قدره، ولا يعبدونه حق عبادته. كانوا يشركون به هذه الاصنام التي يرمزون بها الى أسلافهم من الصالحين أو العظماء. أو يرمزون بها الى الملائكة. وكانوا يزعمون ان الملائكة بنات الله، ...ولقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا يعترفون بخلق الله للسماوات والارض، وتسخيره للشمس والقمر، وإنزاله الماء من المزن.... ولكنهم مع ايمانهم بالله كان الشرك يفسد عليهم تصورهم كما كان يفسد عليهم تقاليدهم وشعائرهم، فيجعلون للآلهة المدعاة نصيبا في زرعهم وانعامهم ونصيبا في أولادهم.... وكانوا يعتقدون انهم على دين ابراهيم، وانهم أهدى من أهل الكتاب، الذين كانوا يعيشون معهم بالجزيرة العربية، لأن اليهود كانوا يقولون: عزير ابن الله، والنصارى يقولون: عيسى ابن الله. بينما هم كانوا يعبدون الملائكة والجن على اعتبار قرابتهم من الله بزعمهم، فكانوا يعدون انفسهم أهدى. لأن نسبة الملائكة الى الله ونسبة الجن كذلك اقرب من نسبة عزير وعيسى.... وكله شرك. وليس في الشرك خيار. ولكنهم هم كانوا يحسون أنفسهم أهدى وأقوم طريقا»(١).

---

١ - سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء السادس صفحة ٣٩٩٠-٣٩٩١.

ولقد بين لنا الحق سبحانه وتعالى في كتابه المكنون جميع ما نود ان نعرفه عن بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بالرسالة وأهدافها. وجميع ذلك يبدو واضحاً في الآيات الحكيمة التالية:

قال تعالى:

«نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ* على قَلبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ* بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ» (١)

وقال تعالى:

«وَكَذٰلِكَ أَوحَينا إِلَيكَ قُرآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ القُرى وَمَن حَولَها وَتُنذِرَ يَومَ الجَمعِ لارَيبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ في السَّعِيرِ» (٢)

وقال تعالى:

«وَلَقَد ضَرَبنا لِلنّاسِ في هٰذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ* قُرآناً عَرَبِياً غَيرَ ذي عِوَجٍ لَّعَلَّهُم يَتَّقُونَ» (٣)

وقال تعالى:

«إِنّا جَعَلناهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُم تَعقِلُونَ» (٤)

وبالرغم من نبل الرسالة وطهارة حاملها وما كان صلوات الله عليه يتمتع به من مكانة عالية في أعين قومه حيث كان موضع ثقتهم ومكان أماناتهم، وعاش طيلة الفترة السابقة من عمره وهو الملقب بالأمين بينهم فإنهم كذبوه أشد تكذيب وقاوموه أشد مقاومة بشتى الطرق والوسائل التي كانت معروفة لديهم بعد أن فشلوا في احتوائه صلوات الله عليه عن طريق تقديم العروض المادية والمعنوية ليكف عن دعوتهم إلى دين الحق وطريق الخير والتقوى ويتبع دين الوثنية والأصنام (دين الآباء والأجداد). وعندما فشلوا في احتوائه إذ وقف صلوات الله عليه كالطود الشامخ أمام قريش وصلفها يدعو الناس إلى دين الحق والتوحيد بلسان عربي مبين، ذهبوا الى الانتقال للمرحلة الثانية من مقاومته حين عرضوا عليه صلوات الله وسلامه عليه الالتقاء في منتصف الطريق. وهذا يعني أن يتنازل كل طرف عن حق من حقوقه أو عن جزء مما عنده للطرف الآخر، وبهذا لا بد لكل طرف من أن يتنازل عن جزء من دينه ويقبل مكانه جزءاً من دين الطرف الآخر.

١- سورة الشعراء آيه ١٩٣- ١٩٥

٢- سورة الشورى آيه ٧

٣- سورة الزمر آيه ٢٧- ٢٨

٤- سورة الزخرف آيه ٣

«في الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف عن سعيد بن ميناء مولى أبي البختري قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد مانعبد ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً وإن كان الذي انت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً فأنزل الله

«قُل يا أيُّها الكافِرونَ* لا أَعبُدُ ما تَعبُدونَ* ولا أنتُم عابِدونَ ما أَعبُدُ* ولا أنا عابِدٌ مّا عَبَدتُّم* ولا أنتُم عابِدونَ ما أعبُدُ* لَكُم دِينُكُم وَلِيَ دِينِ» - »(١)

وعندما فشلت العرب في الالتقاء بمنتصف الطريق مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد ما نزلت سورة «الكافرون»، ذهبت قريش إلى إيذاء النبي صلوات الله عليه شخصياً ومن تبعه من القوم أشد الإيذاء، ومكروا به وباتباعه كل مكر وهو صاحب الخلق العظيم كما وصفه الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز. ويكفي ان نتذكر موقفه من أهل الطائف عندما طلب منه جبريل عليه السلام ان يطلب ما يريد انتقاماً لما فعله أهل الطائف بالنبي الكريم عندما ذهب اليهم قبل الهجرة ليدعوهم الى دين التوحيد. فما كان منه صلوات الله عليه إلا أن قال لعل الله يبعث من أصلابهم من يؤمن بهذا الدين، وكل هذا الخلق الرفيع الذي كان يتمتع به المصطفى صلوات الله عليه لم يبعد عنه وعن أتباعه شرور قريش ومكائد القوم. فقد خططوا لقتله بعد أن فشلوا في تثبيته. ومن شدة المعاناة والعذاب الذي يتعرض له من يؤمن به من القوم سمح رسول الله صلى الله عليه وسلم لقسم كبير من أتباعه بالهجرة الى بلاد الحبشة. وقد لاحقتهم قريش حتى في أرض الحبشة، هذا بالإضافة إلى توجيه التهم إلى الرسول الأمين التي تنم على حقد القوم وعداوتهم القاسية، فقد اتهموه بالجنون والشعوذة، والسحر، والكهانة وجميعهم يعلم ان هذه التهم والمفتريات اختلقتها نفوسهم الحاقدة على ما جاء به سيد البشر من هدى ونور للناس كافة. وقد كان الحق سبحانه وتعالى يتولى الرد على ترهات القوم وتخرصاتهم حول شخص الرسول الكريم، والآيات القرآنية العربية الحكيمة توضح لنا ذلك:

---

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، المجلد العشرين، ص٢٧٥.

قال تعالى:

«فَلا أُقسِمُ بالخُنَّس* الجَوارِ الكُنَّس* واللَّيلِ إذا عَسعَسَ* والصُّبحِ إذا تَنَفَّسَ* إنَّهُ لَقَولُ رَسُولٍ كَريمٍ* ذي قُوَّةٍ عِندَ ذي العَرشِ مَكِينٍ* مُّطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ* وما صاحِبُكُم بِمَجنُونٍ* وَلَقَد رَآهُ بالأُفُقِ المُبِينِ* وما هُوَ على الغَيبِ بِضَنِينٍ* وما هُوَ بِقَولِ شَيطانٍ رَّجِيمٍ* فَأَينَ تَذهَبُونَ* إن هُوَ إلاَّ ذِكرٌ لِّلعالَمِينَ» (١)

وقال تعالى:

«فَذَكِّر فَمَا أَنتَ بِنعمَتِ رَبِّكَ بكاهِنٍ وَلا مَجنونٍ* أم يَقولونَ شاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيبَ المَنُونِ* قُل تَرَبَّصوا فإنِّي مَعَكُم مِّنَ المُتَرَبِّصِينَ* أم تَأمُرُهُم أَحلامُهُم بِهذا أم هُم قَومٌ طاغونَ* أم يَقولونَ تَقَوَّلَهُ بَل لا يُؤمِنونَ* فَليَأتُوا بِحَديثٍ مِّثلِهِ إن كانوا صادِقِينَ» (٢)

وقال تعالى:

«وَيَقُولونَ أَئِنَّا لَتارِكوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَّجنُونٍ* بَل جاءَ بِالحَقِّ وَصَدَّقَ المُرسَلِينَ» (٣)

وقال تعالى:

«وَماعَلَّمناهُ الشِّعرَ وَما يَنبَغِي لَهُ إن هُوَ إلاَّ ذِكرٌ وَقُرآنٌ مُّبِينٌ» (٤)

وقال تعالى:

«أَوَلَم يَتَفَكَّروا ما بِصاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إن هُوَ إلاَّ نَذيرٌ مُّبِينٌ» (٥)

وقال تعالى:

«أم يَقولونَ بِهِ جِنَّةٌ بَل جاءَهُم بِالحَقِّ وأكثَرُهُم لِلحَقِّ كارِهونَ» (٦)

وقال تعالى:

«نٓ والقَلَمِ وما يَسطُرونَ* ما أنتَ بِنِعمَةِ رَبِّكَ بِمَجنونٍ* وإنَّ لَكَ لَأَجراً غَيرَ مَمنونٍ* وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (٧)

١- سورة التكوير، آيه ١٥- ٢٧.

٢- سورة الطور، آيه ٢٩- ٣٤.

٣- سورة الصافات، آيه ٣٦- ٣٧.

٤- سورة يس، آيه ٦٩.

٥- سورة الاعراف، آيه ١٨٤.

٦- سورة المؤمنون، آيه ٧٠.

٧- سورة القلم، آيه ١- ٤.

هذه نماذج من الآيات التي كانت ترد على مكر القوم وكيدهم لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم لينكروا الحق الذي جاء به من عند الله هداية لهم بلسانهم العربي وعن طريق رجل منهم ينتمي إلى أفضل نسب في قريس. وهجومهم على شخص الرسول لم يمنعهم من الهجوم على القرآن العربي الحكيم إذ إنهم تواصوا على ألا يسمعوا له وأن يستخدموا القصص والكتابات الأعجمية للتشويش على القرآن العربـي - تحت شعـار قومية الآباء والأجداد والأصنام التي كانوا يعبدونها-
قال تعالى:

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» (١)

«كلمة كان يوصي بها الكبراء من قريش أنفسهم ويغرون بها الجماهير، وقد عجزوا عن مغالبة أثر القرآن في أنفسهم وفي نفوس الجماهير. «لا تسمعوا لهذا القرآن» فهو كما كانوا يدعون يسحرهم، ويغلب عقولهم، ويفسد حياتهم، ويفرق بين الوالد وولده، والزوج وزوجه. ولقد كان القرآن يفرق نعم ولكن بفرقان الله بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال. كما يستخلص القلوب له فلا تحفل بوشيجة غير وشيجته. فكان هو الفرقان. «والغوا فيه لعلكم تغلبون» وهي مهاترة لا تليق. ولكنه العجز عن المواجهة بالحجة والمقارعة بالبرهان، ينتهي الى مهاترة، عند من يستكبر على الإيمان. ولقد كانوا يلغون بقصص اسفنديار ورستم كما فعل مالك بن النضر ليصرف الناس عن القرآن. ويلغون بالصياح والهرج. ويلغون بالسجع والرجز. ولكن هذا كله ذهب ادراج الرياح، وغلب القرآن لأنه يحمل سر الغلب» (٢)

ومن المذهل حقاً انهم بعد إخفاقهم في السيطرة على القرآن وحامل لوائه صلوات الله عليه عن طريق بث القصص والملاحم الأعجمية، ذهبوا إلى اتهام الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه يتعلم على أيد أعجمية مع علمهم التام بأنه صلوات الله عليه أمي لا يجيد القراءة والكتابة بالاضافة الى كون القرآن يتلى عليهم في اللغة العربية.
وقد تولى الحق سبحانه وتعالى الرد عليهم حيث يقول في كتابه المكنون:
قال تعالى:

«وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ» (٣)

١- سورة فصلت، آية ٢٦.

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٣١٢٠.

٣- سورة النحل، آيه ١٠٣.

قال تعالى:

«وَلَو جَعَلناهُ قُرآناً أعجَمِيّاً لَّقَالوا لَولا فُصِّلَت آياتُهُ إعجَمِيٌّ وَعَرَبيٌّ قُل هُوَ لِلّذينَ آمَنوا هُدىً وَشِفاءٌ والّذينَ لا يُؤمِنونَ في آذانِهِم وَقرٌ وهو عَلَيهِم عَمىً أُولئِكَ يُنادَونَ مِن مَّكانٍ بَعيدٍ» (١)

وعندما أخفق اهل مكة في الفوز على الرسول صلى الله عليه وسلم ومنع الناس من السماع للقرآن، ذهبوا الى التخطيط لقتله والتخلص منه. وقد بين لنا الحق سبحانه وتعالى في كتابه العربي الحكيم موقف قوم الرسول صلى الله عليه وسلم من رسولهم ومن رسالته في الآيات الحكيمة التالية:

قال تعالى:

«كِتابٌ فُصِّلت آياتُهُ قُرآناً عَرَبيّاً لِقَومٍ يَعلَمُونَ* بَشيراً وَنَذيراً فأعرَضَ أكثَرُهُم فَهُم لا يَسمَعُونَ» (٢)

وقال تعالى:

«يَس* والقُرآنِ الحَكيمِ* إنَّكَ لَمِنَ المُرسَلينَ* على صِراطٍ مُّستَقيمٍ* تَنزيلَ العَزيزِ الرَّحيمِ* لِتُنذِرَ قَوماً ما أُنذِرَ آباؤُهُم فَهُم غافِلونَ* لَقَدْ حَقَّ القَولُ على أكثَرِهِم فَهُم لا يُؤمِنونَ* إنّا جَعَلنا في أعناقِهِم أغلالاً فَهيَ إلى الأذقانِ فَهُم مُّقمَحونَ* وَجَعَلنا مِن بَينِ أيديهِم سَدّاً وَمِن خَلفِهِم سَدّاً فأغشَيناهُم فَهُم لا يُبصِرونَ* وسواءٌ عَلَيهِم ءأنذَرتَهُم أم لَم تُنذِرهُم لا يُؤمِنُونَ» (٣)

توضح الآيات السابقة أن أكثر قومه لن يؤمن له مهما وضح لهم السبيل وأنار لهم الطريق بمختلف الحجج والبراهين التي يأمل ان تقودهم الى سبيل الحق والرشاد. وهذا ما أطلعنا عليه الحق سبحانه وتعالى بأنهم لن يؤمنوا لعلمه سبحانه وتعالى بحقيقتهم وطبيعة مشاعرهم نحو الحق الذي جاءهم به ليقودهم الى سبيل الفوز والايمان. كما وضح لنا الحق سبحانه وتعالى ان موقف قوم الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون موقف المعاند والمنازع، والمكذب، والمحارب، كما فعل جميع الأقوام مع رسل الله سبحانه وتعالى.

---

١ - سورة فصلت، آيه ٤٤.

٢ - سورة فصلت، آيه ٣.

٣ - سورة يس، آيه ١ - ١٠.

قال تعالى:

«ما يُقالُ لَكَ إلاَّ ما قَد قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبلِكَ إنَّ رَبَّكَ لَذو مَغفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَليمٍ» (١)

وقد مكر القوم برسولهم الذي بعثه الحق سبحانه وتعالى لهدايتهم الى سبيل الخير والايمان وهموا بقتله. وشاء الحق ان يجعل كيدهم في نحورهم وينجي رسوله الكريم ويسهل هجرته من موطنه مكة الى المدينة المنورة ليقيم مدينته الفاضلة هو ومن معه من المسلمين العرب منهم وغير العرب يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، وقد استحقوا بذلك وصف الباري سبحانه وتعالى لهم عندما وصفهم بخير أمة اخرجت للناس. فالأمة المشار اليها هنا ليست أمة العرب كما يفهمها بعض البسطاء من الناس، ولكنها تمثل العرب الذين آمنوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع المسلمين غير العرب الذين آمنوا برسالته صلوات الله وسلامه عليه. أما الجزء الأكبر من قومه العرب فهم الذين هموا بقتله وخاضوا ضده أشد الحروب وأشرسها.

قال تعالى:

«وإذ يَمكُرُ بكَ الَّذينَ كَفَروا لِيُثبِتُوكَ أو يَقتُلُوكَ أو يُخرِجُوكَ وَيَمكُرُونَ وَيَمكُرُ اللهُ واللهُ خَيرُ الماكِرينَ» (٢)

ومن الجدير ذكره ان جميع الغزوات والحروب التي خاضها المسلمون والرسول بينهم كانت مع العرب لهدايتهم الى النور المبين الذي يصرح به رسولهم الكريم سوى غزوة تبوك. وقد دفعتهم قوميتهم وشعار الآباء والاجداد ان يعقدوا حلفاً مع اليهود في المدينة ضد ابن قريش، ضد ابن بني هاشم، ضد الأمين، في غزوة الأحزاب ليستأصلوا شأفة الإسلام من جذورها. ولكن الحق سبحانه وتعالى نصر رسوله الكريم وهزم جمع الأحزاب شر هزيمة. ويبدو ذلك جلياً واضحاً في الآيات التالية:

قال تعالى:

«يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اذكُروا نِعمَةَ اللهِ عَلَيكُم إذ جاءَتكُم جُنودٌ فأرسَلنا عَلَيهِم ريحاً وَجُنوداً لَّم تَرَوها وَكانَ اللهُ بِما تَعمَلُونَ بَصيراً* إذ جاءُوكُم مِّن فَوقِكُم وَمِن أَسفَلَ مِنكُم وإذ زاغَتِ الأبصارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونا* هُنالِكَ ابتُلِيَ المُؤمِنونَ وَزُلزِلوا زِلزالاً

١ - سورة فصلت، آيه ٤٣.

٢ - سورة الانفال، آيه ٣٠.

شَدِيداً» (١)

وقال تعالى:

«وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً* وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً* وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً» (٢)

وقد انتهت المواجهة بين قريش «قوم الرسول» وبين الرسول وصحبه صلوات الله عليه بفتح مكة، عندما اعلن الرسول صلى الله عليه وسلم قراره بخصوص أهل مكة بأنهم طلقاء الحرية والاختيار. وقد كتم قسم من هؤلاء الطلقاء وغيرهم من المنافقين العداوة لرسالة الاسلام من جهة والى الرسول وآل بيته من جهة اخرى. وهذا ما تدل عليه الأحداث المفجعة التي حدثت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. فبدأت الاحداث بحروب الردة، واغتيال عمر بن الخطاب (رض)، والفتنة التي قتل على إثرها عثمان بن عفان (رض) فحرب الجمل، وحرب الصفين، وحرب النهروان، واغتيال علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) ومن المؤسف جداً ذكره ان جميع الاحداث السابقة حصلت في الثلاثة العقود الأولى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذه هي فترة الخلافة الراشدة التي تحدث عنها الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً» (٣) وكان معاوية نفسه يفهم هذه الحقيقة ايضاً فقال ذات مرة «انا أول الملوك» (٤)

ولكي يكون طرحنا للاحداث التي حدثت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم موضوعياً ودقيقاً من جهة وتحرير القارئ العزيز من العواطف والسياسات التوفيقية بين الحق والباطل التي لجأ اليها الكثيرون عبر التاريخ إما جهلا منهم وإما للافتتان على الحق وأهله، فلا مندوحة لنا من إلقاء النظرة الفاحصة الدقيقة للوقوف على طبيعة وسمات الناس او الفئات في المجتمع الذي كان يقوده صلوات الله عليه وسلامه لنعرف معاً أهداف كل فئة من تلك الفئات وأسرارها ومواصفاتها سواء في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أم بعد وفاته.

١ - سورة الاحزاب، آيه ٩ - ١١.

٢ - سورة الاحزاب، آيه ٢٥ - ٢٧.

٣ - البداية والنهاية، جزء ٨ ص ١٦.

٤ - الاستيعاب جزء ١ ص٢٥٤، البداية والنهاية جزء ٨ ص١٣٥.

لقد وصف لنا الباري عز وجل الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين بأنهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، كما وصف لنا بقية الاطراف او الفئات التي كانت تعيش مع هذا الجمع الطاهر إذ كانت الآيات القرآنية الكريمة تصفهم لرسول الله ومن معه من المؤمنين. وسوف نعرض وصف القرآن الكريم لهم على شكل نقاط لنوضح ما هو مطلوب بطريقة دقيقة ومختصرة.

أولا: بين لنا الحق سبحانه وتعالى حقيقة أهل مكة بخصوص الإيمان بالله ورسوله عندما أخبر رسوله في آخر العهد المكي بالقرار القطعي الثابت وهو ان اكثرهم لا يؤمنون ويبدو ذلك بوضوح في قوله تعالى:

«لِتُنذِرَ قَوماً ما أُنذِرَ آباؤُهُم فَهُم غافِلونَ* لَقَد حَقَّ القَولُ على أكثَرِهِم فَهُم لا يُؤمِنونَ* إنّا جَعَلنا في أعناقِهِم أغلالاً فَهِيَ إلى الأذقانِ فَهُم مُقمَحونَ* وَجَعَلنا مِن بَينِ أيديهِم سَدّاً وَمِن خَلفِهِم سَدّاً فَأَغشَيناهُم فَهُم لا يُبصِرونَ* وَسَواءٌ عَلَيهِم ءأنذرتَهُم أم لَم تُنذِرهُم لا يُؤمِنونَ» (١)

وبعد أن فتحت مكة واصبح اهلها طلقاء ليختاروا بين الحق والباطل، فانه لا يخفى على أحد الى اين سيتجه اكثر اهل مكة في اختيارهم. ولكنهم أسروا ما في انفسهم للوقت المناسب الذي يسمح لهم بإعلانه وهذا ما سنوضحه في الصفحات القادمة من خلال عرضنا لبعض الاحداث المخجلة التي حدثت في المجتمع الإسلامي.

ثانيا: الفئة التي كانت تظهر إيمانها وتخفي حقدها وكرهها للحق وأهله، فقد كشف الحق سبحانه وتعالى هذه الفئة المبطنة في مواقع شتى في كتابه العزيز ولكننا سوف نختار نماذج من هذه الآيات لكثرتها لتوضح حقيقة هذه الفئة.

قال تعالى:

«لَقَدِ ابتَغَوُا الفِتنَةَ مِن قَبلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمورَ حَتّى جاءَ الحَقُّ وَظَهَرَ أمرُ اللهِ وَهُم كارِهونَ» (٢)

واضح أنهم أهل فتنة وكارهون للحق.

---

١ - سورة يس، آيه ٦ - ١٠.

٢ - سورة التوبة، آيه ٤٨.

قال تعالى:

«إِن تُصِبكَ حَسَنَةٌ تَسُؤهُم وَإِن تُصِبكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَد أَخَذنا أَمرَنا مِن قَبلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُم فَرِحُونَ» (١)

واضح من مضمون الآية انهم لا يحبون الخير للفئة المؤمنة.

قال تعالى:

«وَمِنهُمُ الَّذِينَ يُؤذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُل أُذُنُ خَيرٍ لَّكُم يُؤمِنُ بِاللهِ وَيُؤمِنُ لِلمُؤمِنِينَ وَرَحمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَالَّذِينَ يُؤذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُم عَذابٌ أَلِيمٌ» (٢)

واضح أنهم كانوا يقومون بأعمال وأنماط سلوكية كانت تؤذي النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعيش بينهم.

قال تعالى:

«قُل أَنفِقُوا طَوعاً أَو كَرهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُم إِنَّكُم كُنتُم قَوماً فاسِقِينَ* وما مَنَعَهُم أَن تُقبَلَ مِنهُم نَفَقاتُهُم إِلاَّ أَنَّهُم كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ ولا يأتُونَ الصَّلوٰةَ إِلاَّ وَهُم كُسالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُم كارِهُونَ» (٣)

انهم يصلون وينفقون من اموالهم في الوقت الذي يكفرون فيه بالله ورسوله.

قال تعالى:

«يَحلِفُونَ بِاللهِ ما قالُوا وَلَقَد قالُوا كَلِمَةَ الكُفرِ وَكَفَرُوا بَعدَ إِسلامِهِم وَهَمُّوا بِما لَم يَنالُوا وَما نَقَمُوا إِلاَّ أَن أَغناهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيراً لَهُم وإِن يَتَوَلَّوا يُعَذِّبهُمُ عَذاباً أَلِيماً في الدُّنيا والآخِرَةِ وَما لَهُم في الأرضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ» (٤)

انهم ارداوا قتل الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك حين خرج قسم منهم ليتولوا تنفيذ تلك المهمة وقد حال الحق سبحانة وتعالى بينهم وبين ما كانوا يهدفون اليه.

قال تعالى:

«والَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسجِداً ضِراراً وَكُفراً وَتَفرِيقاً بَينَ المُؤمِنِينَ وَإِرصاداً لِّمَن حارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبلُ وَلَيَحلِفُنَّ إِن أَرَدنا إِلاَّ الحُسنَىٰ

١- سورة التوبة، آيه ٥٠.

٢- سورة التوبة، آيه ٦١.

٣- سورة التوبة، آيه ٥٣- ٥٤.

٤- سورة التوبة، آية ٧٤.

«والله يشهد إنهم لكاذبون» (١)

قال تعالى:

«ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون» (٢)

إنهم يحلفون بالله كذباً.

قال تعالى:

«وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون» (٣)

قال تعالى:

«وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا» (٤)

ترى هل هذه الفئة المنافقة التي وصفتها الآيات السابقة والتي اخترنا نماذج منها قد انتهى أمرها بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أو أشتد شأنها؟

ثالثاً:- وضح لنا الحق سبحانه وتعالى نوعين من الناس الذين كانوا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، النوع الأول من الناس الذين يحبون الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله سبحانه وتعالى، والنوع الثاني من الناس الذين يكرهون الحق ولا يحبونه.

قال تعالى:

«ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام* وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد* وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد* ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد» (٥)

---

١ - سورة التوبة، آية ١٠٧.

٢ - سورة التوبة ، آيه ٥٦.

٣ - سورة المنافقون، آيه ٤.

٤ - سورة النساء، آيه ٦١.

٥ - سورة البقرة، آية ٢٠٤ - ٢٠٧.

قال تعالى:

«يا أيُّها الرَّسُولُ بَلِّغ ما أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ وإن لَّم تَفعَل فَما بَلَّغتَ رِسالَتَهُ واللهُ يَعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إنَّ اللهَ لا يَهدي القَومَ الكافِرينَ» (١)

واضح من الآيات السابقة أنه في الوقت الذي يوجد فيه أناس يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله هناك أناس آخرون يكنون الخصام والعداء في قلوبهم للحق وأهله، إذ إن الحق سبحانه وتعالى بلغ رسوله الأمين أن يقوم بتبليغ ما أنزل اليه ولا يخشى هؤلاء الناس كما وعده بأن يعصمه منهم ومن شرورهم. ترى هل أصبح الناس كافة من جند الحق بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أو ماذا حصل؟

رابعاً:- إن الحق سبحانه وتعالى خاطب المؤمنين الذين تسرب إلى أذهانهم بعض الأمور التي لا تنسجم مع مبادئ الحق السامية في أكثر من موقع في كتابه العزيز موضحاً لهم أسس العقيدة الإسلامية وماتعكسه من أمور اعتقادية وسلوكية ليقودهم إلى سبيل الإيمان والفوز المبين.

قال تعالى:

«يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا ما لَكُم إذا قيلَ لَكُمُ انفِروا في سَبيلِ اللهِ اثّاقَلتُم إلى الأرضِ أَرَضيتُم بالحياةِ الدُّنيا مِنَ الآخِرَةِ فَما مَتاعُ الحياةِ الدُّنيا في الآخِرَةِ إلاَّ قليلٌ* إلاَّ تَنفِروا يُعَذِّبكُم عَذاباً أليماً وَيَستَبدِل قَوماً غَيرَكُم وَلا تَضُرُّوهُ شَيئاً واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ» (٢)

قال تعالى:

«يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَتَّخِذوا آباءَكُم وإخوانَكُم أولياءَ إنِ استَحَبُّوا الكُفرَ على الإيمانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُم فَأولئِكَ هُمُ الظّالِمونَ* قُل إن كانَ آباؤُكُم وَأَبناؤُكُم وإخوانُكُم وأزواجُكُم وَعَشيرَتُكُم وأموالٌ اقتَرَفتُموها وَتِجارَةٌ تَخشَونَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرضَونَها أَحَبَّ إلَيكُم مِّنَ اللهِ وَرَسولِهِ وَجِهادٍ في سَبيلِهِ فَتَرَبَّصوا حَتّى يأتِيَ اللهُ بأمرِهِ واللهُ لا يَهدي القَومَ الفاسِقينَ» (٣)

قال تعالى:

«يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَخونوا اللهَ والرَّسولَ وَتَخونوا أماناتِكُم وَأَنتُم تَعلَمونَ* واعلَموا أنَّما أموالُكُم وأولادُكُم فِتنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أجرٌ عَظيمٌ» (٤)

١- سورة المائدة، آيه ٦٧.

٢- سورة التوبة، آيه ٣٨- ٣٩.

٣- سورة التوبة، آيه ٢٣- ٢٤.

٤- سورة الانفال، آيه ٢٧- ٢٨.

قال تعالى:

«يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا مَن يَرتَدَّ مِنكُم عَن دِينِهِ فَسَوفَ يأتي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ أذِلَّةٍ عَلى المُؤمِنينَ أعِزَّةٍ عَلى الكافِرينَ يُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ ولا يَخافُونَ لَومَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يَشاءُ واللهُ واسِعٌ عَليمٌ» (١)

هذه نماذج من الآيات القرآنية الحكيمة التي خاطب بها الحق سبحانه وتعالى المؤمنين ليعدل من بعض الأنماط السلوكية المجافية للحق والإيمان، ويعدل أيضاً ما تسرب إلى أذهان بعض المؤمنين عن بعض القضايا المتصلة بالحق الذي وضحه رسول الله أجمل توضيح. كما حذرهم الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز من مغبة الأفتتـــات على الدين الإسلامي والتنكر له وألا ينقلبوا على أعقابهم. ترى هل تمسك المؤمنون بإيمانهم واستقامت عقيدتهم، ولم يرتد منهم أحد بعد وفاته صلوات الله عليه أو ماذا حصل لهم؟

خامساً:- ورد في القرآن العربي الحكيم لفظ (عربي) ثلاث مرات وجميعها تدل وتشير إلى أن القرآن الحكيم عربي. وقد ورد لفظ (عربياً) ثماني مرات وجميعها تشير إلى أن القرآن الحكيم قرآن عربي. وقد وردت كلمة (الأعراب) عشر مرات وجميعها تدل على الإنسان العربي. وقد اختلف الباحثون حول هذه الكلمة ومدلولها. بمعنى هل الأعراب تعني العرب الذين لا يسكنون المدن ويعيشون حياة البداوة أو أن الأعراب تعني جمع فئات من العرب. فإذا أردنا أن نجمع بكلمة واحدة عرب الحجاز، وعرب نجد، وعرب العراق، وعرب الشام فماذا نقول الأعراب أما ماذا؟ فلا بد لنا من أن نعي بدقة الآيات الكريمة التي تحدثت عن هذا المصطلح لنقف على المعنى الدقيق له. فالأعـــراب إما أن يكونوا جزءاً من قوم الرسول وهم العرب وإما أن يكونوا جميع العرب كافة وكلا المفهومين لن يؤثر على ما نود الوصول إليه من عرض لحالة المجتمع الذي كان يقوده صلوات الله عليه وسلامه.

قال تعالى:

«الأعرابُ أشَدُّ كُفراً وَنِفاقاً وَأجدَرُ ألاَّ يَعلَموا حُدودَ ما أنزَلَ اللهُ على رَسولِهِ واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ» (٢)

١- سورة المائدة، آيه ٥٤.

٢- سورة التوبة، آية ٩٧.

واضح وجلي من الآية الحكيمة السابقة أن الحق سبحانه وتعالى أخبرنا بحكم عام عن الأعراب بأنهم أشد كفراً ونفاقاً وأنهم جديرون ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله بحكم كفرهم ونفاقهم ولكن أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلموا ذلك لعلم عنده وحكمة شاء لها أن تنفذ. وبعد هذا الحكم العام على الأعراب بدأت الآيات التالية لتقسم الأعراب إلى فئات ولكل فئة وضعها الخاص بها كما سنرى.

قال تعالى:

«وَمِنَ الأعرابِ مَن يَتَّخِذُ ما يُنفِقُ مَغرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيهِم دائِرَةُ السَّوءِ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (١)

هذه الفئة الأولى التي تتربص الدوائر بالمؤمنين وتعد كل ما تنفقه مغرماً والفئة الثانية من الأعراب هي التي تؤمن بالله واليوم الآخر وينفقون من أموالهم لتقربهم إلى الله.

قال تعالى:

«وَمِنَ الأعرابِ مَن يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ ما يُنفِقُ قُرُباتٍ عِندَ اللهِ وَصَلَواتِ الرَّسولِ ألا إنَّها قُربَةٌ لَهُم سَيُدخِلُهُمُ اللهُ في رَحمَتِهِ إنَّ اللهَ غَفورٌ رَّحِيمٌ» (٢)

والفئة الثالثة هي الفئة الصادقة المنيبة والسابقة إلى الإيمان وهي تشكل جمع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بأحسان.

قال تعالى:

«والسَّابِقونَ الأوَّلُونَ مِنَ المُهاجِرينَ والأنصارِ والَّذينَ اتَّبَعُوهُم بإحسانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنهُ وأعَدَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجري تَحتَها الأنهارُ خالِدينَ فيها أبَداً ذلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ» (٣)

أما الفئة الرابعة فهي الفئة المنافقة حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

«وَمِمَّن حَولَكُم مِّنَ الأعرابِ مُنافِقونَ وَمِن أهلِ المَدينَةِ مَرَدُوا على النِّفاقِ لا تَعلَمُهُم نَحنُ نَعلَمُهُم سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَينِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذابٍ عَظِيمٍ» (٤)

١- سورة التوبة، آيه ٩٨.
٢- سورة التوبة، آيه ٩٩.
٣- سورة التوبة، آيه ١٠٠.
٤- سورة التوبة، آيه ١٠١.

والفئة الخامسة التي خلطت أعمالا صالحة مع أعمال سيئة.

قال تعالى:

«وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (١)

أما الفئة الأخيرة فهي الفئة التي أشار إليها الحق سبحانه وتعالى بالآية الكريمة التالية:

قال تعالى:

«وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (٢)

ترى هل هذه الفئات الستة بمواصفاتها المختلفة والمتغايرة ماذا كانت أهدافها وأدوارها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؟

يبدو بوضوح وجلاء من خلال ما عرضناه في البنود الخمسة السابقة أن المجتمع الإسلامي الذي تركه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته يتكون من عدة شرائح إنسانية، لكل شريحة منها مآربها وأهدافها واعتقاداتها الخاصة بها. فهناك الطلقاء في مكة الذين منهم أئمة الكفر، وفيهم قرار قطعي بأن أكثرهم لن يؤمنوا وهذا ما وضحه لنا القرآن الكريم. وهناك الفئة المؤمنة بمختلف درجات الإيمان عند أفرادها. وبالإضافة إلى طبيعة هذا المجتمع وما يحتوي عليه من فئات متفاوته في الاعتقاد والأهداف فإن تاريخ الأقوام والبشر يشهد لهم أنهم كان الفساد يدب بينهم بعد رحيل رسل الحق من بينهم. لذلك نجد البلاغ الواضح الدقيق الذي أرسله لنا الحق سبحانه وتعالى لنعي بصورة دقيقة ماذا يكون عقاب من ينقلب على عقبيه بعد رحيل المصطفى صلوات الله عليه من وسط جمعه المؤمن ومدينته الفاضلة.

قال تعالى:

«وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» (٣)

---

١ - سورة التوبة آيه ١٠٢

٢ - سورة التوبة آيه ١٠٦

٣ - سورة آل عمران، آيه ١٤٤

كما وضح لنا الباري عز وجل في كتابه الحكيم مصير الذين يكتمون البينات التي بينها الحق سبحانه للناس ويحرفون الكلم عن مواضعه لتلبية أهوائهم الذاتية على حساب الحق المبين أو نزولا عند رغبة سادتهم طلباً للدنيا ومفاتنها. ويبدو ذلك بوضوح في قوله عز من قائل:

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ» (١)

قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» (٢)

وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ما سيحدث بعده من اختلاف وتأويل وأختلاق وتفكك في جسد أمته من بعده. فقد خاطب أصحابه قائلا «ستتبعون سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: أتراهم اليهود والنصارى؟ قال: فمن إذن؟» (٣)

كما قال صلوات الله عليه وسلامه «ستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة» (٤)

أضف إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم مخبراً ماذا سيفعل أصحابه من بعده حيث قال «يؤتى بأصحابي يوم القيامة إلى ذات الشمال فأقول: إلى أين ؟ فيقال إلى النار والله فأقول: يارب هؤلاء أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا من بعدك فأقول: سحقاً لمن بدل بعدي» (٥)

---

١ - سورة البقرة، آيه ١٥٩

٢ - سورة البقرة، آيه ١٧٤ - ١٧٦.

٣ - البخاري، الجزء الرابع ص١٤٤، والجزء الثامن ص ١٥١.

٤ - مسند أحمد، الجزء الثالث ص١٢٠، سنن ابن ماجه، كتاب الفتن الجزء الثاني، رقم الحديث ٣٩٩٣.

٥ - البخاري، الجزء السابع ص٢٠٩، صحيح مسلم باب الحوض.

وفي ضوء ما تقدم من آيات قرآنية حكيمة وسنة نبوية طاهرة فأن المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يكون أفضل حالا مما كان عليه والرسول بين ظهرانيهم، لأن وفاته تعني بالنسبة للفئات الحاقدة على الحق وأهله أن الحاجز الأكبر الذي كان يحول بينها وبين تحقيق أهدافها المناهضة للإسلام قد تداعى، ذلك لأن الوحي الذي كان يكشف لرسول الله مكائدهم وأحابيلهم قد انقطع بوفاته صلوات الله وسلامه عليه لذلك وجدت كل فئة مناهضة للحق واتباعه فرصتها الذهبية في تحقيق أهدافها عن طريق اختيار شتى السبل والطرائق الموصلة إلى أهدافها الخبيثة بغض النظر عن طهر الوسيلة، أو خبثها طالما قد توصل إلى ما ترنو له النفوس التي تتربص الدوائر بالإسلام وأهله. فسواء كانت الوسيلة التأويل للنصوص القرآنية أم سياسة الدس والوضع في السنة النبوية فأهم من هذا وذاك الوصول إلى النيل من الإسلام وأهله. لذلك ليس غريباً ان تكون حروب الردة وما دار حولها، واغتيال عمر بن الخطاب(رض) والفتن التي حصلت في عهد عثمان بن عفان (رض) وأدت بالنهاية إلى اغتياله. والحروب الثلاث الضروس التي حصلت في عهد الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. إن هذه الأمور كافة ليست غريبة على الانسان لأن سنة الأقوام مع رسلهم تدل على نفس الأفعال والأمور التي حدثت بعد انتقال رسل الحق من بينهم، وهناك العشرات من الأيات القرآنية الحكيمة التي تشير إلى تلك الأعمال والأفعال. هذا بجانب ما ذكرنا من آيات قرآنية وسنة نبوية طاهرة تدل على ماذا سيحدث بعد وفاته صلوات الله وسلامه عليه. ولكن الشيء الذي تشيب له النواصي ويندى له جبين البشريه أسفاً وندماً أن يتم رفع مستوى الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مستوى أرفع واعلى من كتاب الله الحكيم الذي ينطق بالحق، إذ أشير الى جميع أعمالهم المناهضة للحق على أنها تأويل للنصوص القرآنية حتى بلغ الأمر إلى الإشارة للمعارك الضروس، وجز الرؤوس، وسمل العيون واستباحة حرمات آل بيت الرسول، وانتهاك حرمة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقصف الكعبة وانتهاك حرمتها على انها جميعاً تدخل تحت التأويل والاجتهاد. وقد أبيحت شتى المحرمات تحت هذا الشعار بالإضافة إلى سياسة الدس والوضع في السنة النبوية.

وجميعنا يعلم علم اليقين أن هذه الرتبة، أي المنزلة فوق الكتاب المنير لم تعط حتى للرسول صلى الله عليه وسلم ودليل ذلك يكمن في الآيات التالية:

قال تعالى:

«يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبتَغِي مَرضَاتَ أزواجِكَ واللهُ غفورٌ رَّحِيمٌ» (١)

قال تعالى:

«وَلَو تَقَوَّلَ علَينا بَعضَ الأقاويلِ* لأَخَذنا مِنهُ بِاليَمينِ* ثُمَّ لَقَطَعنا مِنهُ الوَتِينَ* فَما مِنكُم مِّن أَحَدٍ عَنهُ حاجِزِينَ» (٢)

أن هذه الحروب الثلاث التي حصلت في فترة الخلافة الرابعة كانت السبب المباشر وراء حدوث الانقسامات الفكرية والمذهبية بين المسلمين منذ تلك اللحظات حتى هذه الأيام. والذي يود أن يجتلي حقيقة تلك المدارس والمذاهب لا بد له من الوقوف على حقيقة تلك الحروب وأي الأطراف منها على حق وأي منها على باطل والقرآن الحكيم فيه قول الفصل في ذلك. كيف لا وهو يمثل الحق الذي شاءت حكمته أن يكون للناس جميعاً وكاملا غير منقوص. كما أن الحق سبحانه وتعالى لا يستحي من الحق سواء أكان الذي أخطأ إنساناً عادياً أم رسولا مقرباً. فإذا كان القرآن الحكيم لا يوجد فيه ما يبين لنا إذا ما أردنا الحق دون تحكيم الهوى والمزاج في تلك الحروب وغيرها، فأين المصدر الذي يمكن أن نركن اليه؟ قول الطلقاء وأكاذيبهم؟ أم الذين يتربصون الدوائر؟ أم الذين مردوا على النفاق؟ أم الذين هم أشد كفراً ونفاقاً؟ أم الذين ارتضوا بالحياة الدنيا وما فيها من أموال ومالهم في الآخرة من خلاق؟ أم حكام الهوى والمزاج وما يدور في فلكهم من فقهاء سلاطين؟ إن التعرف إلى الحق وأهله يوضح لنا مجال الاختيار الحقيقي للجانب الجاثم على الحق في هذه الأيام، ونحرر أنفسنا من أحابيل أعداء الحق عندما يثيرون النعرات الطائفية والمذهبية بين الفرق الإسلامية بهدف إضعافها جميعاً. كما يساعدنا على إخراج أنفسنا من المهاترات الهابطة في توجيه بعضنا الكفر والزندقة الى بعض. إن الذي يريد الحق يوضحه أولا لنفسه ويسير في ضوئه، ومن ثم يوضحه للناس دون أن يشتم أحداً من الناس الذين يود أن يبين الحق لهم. إن سنة الشتم واللعن بدأها أقوام الرسل الذين مكروا برسل الله لضعف حججهم ومجافاتهم للحق وأتباعه. إن صاحب الحق دائماً وأبداً هدفه الأسمى توضيح الحق للذين يعرفونه والذين لا يعرفونه سواء، لأن هذه هي مهمته ولا يجوز له أن يخرج عن محاور المناقشة الأساسية التي تخاطب العقل الإنساني مـــن

١ - سورة التحريم، آيه ١

٢ - سورة الحاقة، آيه ٤٤- ٤٧

خلالها للوصول إلى جانب الخير فيه إلى إلقاء التهم والمهاترات الفارغة. وهناك من الناس من يقول إن هذه الأحداث والفتن قد مضت وعفانا الله شرها فلماذا نود أن نخوض فيها؟ وللإجابة عن هذا القول فإننا نقول إن الذي يرفع هذا الشعار لا يتجاوز نوعين من البشر، فالنوع الأول يخشى في حالة البحث الدقيق والوصول إلى الحق من كشف سوأتهم وبطلان تجارتهم التي يتقربون من خلالها إلى أصحاب النفوذ فلذلك نجدهم يرفعون هذا الشعار عبر التاريخ وما زالوا يرفعونه وسيمضون على ذلك لأن رأسمالهم هو السيطرة على عقول عامة الناس والتجارة بذلك للوصول إلى اهدافهم الذاتية على حساب الإسلام ومعالمه، وهذا ما وشجت عليه عروق الأولين من فقهاء السلاطين وتآزرت عليه فروعهم في كل عصر. أما النوع الثاني فيمثل الفئة الصادقة التي تشرئب نفوسها لرؤية المسلمين تحت راية واحدة، فلذلك لا تريد أن تبحث في أي قضية يمكن أن تثير أي نوع من الخلاف بين المسلمين، وللحق أن هذه الفئة الصادقة هي الهدف الأسنى لكل داعية يريد تحريرها من مخالب فقهاء السلاطين والوصول بها إلى مورد الحق ليسيروا على صراطهم المستقيم الذين أمروا باتباعه فكيف يمكن لأي إنسان مخلص أن يحرر تلك الفئة الصادقة من تأويلات فقهاء السلاطين الجائرة وفتاواهم الكاذبة إذا لم يقدمهم إلى الحق والسبل المؤدية إليها إن هذه الفئة الصادقة إذا لم تعرف حقيقة ما جرى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فلن تستطيع أن تميز بين الحق والباطل وستبقى العوبة سهلة في أيدي تجار الدين ومن نهج نهجهم وليس حرب الخليج سواء الأولى أو الثانية عنا ببعيد، وكيف كان استغلال تجار الدين لهما، ولأهمية هذا الموضوع من جهة وكبر حجمه من ناحية أخرى، وخوفاً من الخروج عن وحدة الموضوع لما نحن فيه، فإننا لا نستطيع أن نبحث تلك الأمور في هذا المقام لذلك يحبذ الرجوع إلى الكتب الصادقة الدقيقة التي بحثت هذا الموضوع في طياتها. أما نحن فهدفنا توضيح علاقة القومية بالإسلام، ولقد أشرنا إلى هذه القضايا بصورة مقتضبة هنا لنبين كيف تحول المجتمع الإسلامي إلى مجتمع أقليمي عنصري شعوبي، قومي، ولقد رافق هذا التحول تأويل القرآن بما يتناسب مع السياسة الحاكمة والتقليل من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم والنيل من أهل بيته الأطهار والافتئات على حقوق المسلمين.

لقد أدت التأويلات الجائرة للنصوص القرآنية والدس في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ابتعاد المجتمع الإسلامي عن المبادئ الإسلامية السامية، حتى

وصل الأمر إلى استباحة دماء آل الرسول صلى الله عليه وسلم في فاجعة كربلاء سنة ٦١هـ وما رافق تلك الكارثة من انعكاسات حادة في أذهان الناس حول الوضع السائد في ذلك الوقت. وفي سنة ٦٣هـ استبيحت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام لجيش الشام الذي بعثه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان(١) وبعد تلك الأحداث المفجعة التي حدثت في كربلاء وموقعة الحرة تم استباحة حرمة البيت الحرام مرتين، الأولى سنة ٦٤هـ بقيادة الحصين بن نمير السكوني، والثانية سنة ٧٢هـ بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي. وفي كلتا المرتين تم محاصرة الكعبة وقصفها بالحجارة والنار- وقد احترقت الكعبة في المرة الثانية وتصدع منها ثلاثة مواضع واحترق ما كان عليها من كسوة وما فيها من خشب.(٢)

وهكذا بدأت المخالفات الصريحة للإسلام ومبادئه تظهر جلياً على السطح وفي كل مرة يطالب فيها المخلصون لدينهم بتطبيق مبادئ الإسلام يجدون جيش الحاكم جاهزاً لقمعهم واستباحة حرماتهم كما حدث في موقعة كربلاء، وموقعة الحرة، وحصار مكة وغيرها من الثورات المتتالية التيكانت تقمع بطريقة لا إنسانية.

وهناك بعض المخالفات التي كانت لها آثار سلبية في أوساط المجتمع ومنها تثبيت دعائم العنصرية والعرقية بين العرب من جهة وبين الأقوام الأخرين الذين آمنوا بالإسلام من جهة أخرى عن طريق فرض دفع الجزية على المسلمين الجدد من غير العرب وحرمانهم من المساواة في الحقوق سواء أكان في الجوانب المالية أم القضائية أم العبادية(٣)

وهناك نيران العصبيات المشتعلة بين اليمانية والمضرية وقد أشار إلى ذلك ابن كثير في البداية والنهاية نقلا عن ابن عساكر إن نيران النزعات القبلية كانت تستعر في قلب العاصمة الأموية فكنت ترى في كل مسجد محرابين وكان في المسجد الجامع منبران يرتقيهما إمامان كل منهما يناصر شيعته لأن كلا الفريقين لم يكن على استعداد للصلاة خلف إمام ليس من رهطه(٤)

١- انظر التفاصيل في تاريخ الطبري الجزء الخامس ص٤٨٠- ٤٩١.

٢- انظر تفاصيل القصة في تاريخ الخلفاء صفحة ٩٠

٣- انظر التفاصيل في تاريخ الطبري جزء ٥ص ٣٢١، ابن الاثير ج٤ ص ١٦٣ العقد الفريد ج٢ ص ٢٣٣، ابن خلكان وفيات الاعيان ج٢ ص١١٥، ابن قتيبة عيون الاخبار ج٢ص٦١

٤- انظر التفاصيل في البداية والنهاية ج١٠ ص٤٥.

والشيء المذهل الذي تشيب له الولدان أن جميع المخالفات الصريحة لمبادئ القرآن والسنة النبوية الطاهرة كانت ومازالت تحدث تحت وابل من الفتاوى الجائرة التي يحررها فقهاء السلاطين تقرباً لسادتهم وإشباعاً لشهواتهم وغرائزهم على حساب الإسلام ومبادئه النبيلة. وما زلنا نشاهد في هذه الأيام المجتمعات التي تعلن عن نفسها امام المجتمع الدولي على أساس أنها اسلامية وفي حقيقتها أنها لا تطبق المبادئ الاساسية للإسلام بصورتها الصحيحة. وهذه الحقيقة ليست بحاجة إلى فراسة شخصية أو سطوة علمية للوقوف على حقيقتها فأي إنسان يقرأ القرآن ويرى ويحس ويسمع ما يحدث في هذه المجتمعات يجد التناقض الحاد بين الإسلام ومبادئه من جهة وبين الواقع الهابط لتلك المجتمعات وأنماطها السلوكية من جهة أخرى. واختصاراً لفتاوى أصحاب الهوى الذين مازالوا يتاجرون بالدين ومبادئه في شتى أمور الحياة فإننا نوضح للقارئ العزيز قول الحق سبحانه وتعالى على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم عندما يشهد على قومه وهم العرب يوم المثول أمام الحق سبحانه وتعالى أنهم اتخذوا القرآن مهجوراً.

قال تعالى:

«وَيَومَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بالغَمَامِ وَنُزِّلَ الملائِكَةُ تَنزيلاً* المُلكُ يَومَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحمٰنِ وَكانَ يَوماً على الكافِرينَ عَسِيراً* وَيَومَ يَعَضُّ الظَّالِمُ على يَدَيهِ يَقولُ يا لَيتَني اتَّخَذتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبيلاً* يا وَيلَتى لَيتَني لَم أتَّخِذ فُلاناً خَليلاً* لَقَد أضَلَّني عَنِ الذِّكرِ بَعدَ إذ جاءَني وَكانَ الشَّيطانُ للإنسانِ خَذولاً* وَقالَ الرَّسُولُ يارَبِّ إنَّ قَومي اتَّخَذوا هٰذا القُرآنَ مَهجُوراً» (١)

إن قول الحق هذا يبين لنا بوضوح وجلاء أن العرب قوم الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذوا القرآن الكريم مهجوراً وسوف يشهد عليهم يوم المثول أمام الحق سبحانه وتعالى. ولن تنفع في ذلك اليوم مختلف التأويلات الجائرة والفتاوى الهابطة التي تم نسجها من مخيلاتهم تزلفاً للساسة وموائدهم على حساب الهدى الإلهي ومبادئه.

لقد أدت هذه المخالفات الصريحة للإسلام ومبادئه عبر القرون السابقة إلى ظهور أوضاع شاذة في المجتمعات الإسلامية نستطيع أن نوجزها بالنقاط التالية:

---

١ - سورة الفرقان، آيه ٢٥ - ٣٠

١- تمزق وتفكك القيادة الإسلامية الواحدة إلى عدة قيادات متفاوتة في الأهداف والسلوك.
٢- الابتعاد عن مرجعية القضاء المتمثل بالقرآن الكريم والسنة النبوية إلى مرجعية القيادة ورأيها الشخصي.
٣- ممارسة أوجه الظلم والدكتاتورية بأبشع أنماطها التي عرفت لدى البشر.
٤- ممارسة النعرات القومية والنزعات الإقليمية بين الأقوام التي دخلت في الإسلام وتربص بعض الدوائر ببعض.
٥- ظهور العداوة وعدم الثقة بين الشعب وبين الجيش لأنه يدين بالولاء للسياسة الحاكمة وليس لمبادئ الإسلام وأهله. لذلك فالجيش على أتم الاستعداد لتدمير المدن أسوة بالجيوش التي داست المقدسات الإسلامية واستباحت حرمتها وهتكت أعراض المسلمين بطريقة همجية.
٦- استبدال بالنظم القانونية والقضائية والاجتماعية والسياسية انظمة وعادات تخالف الإسلام ومبادئه مخالفة جوهرية.
٧- إيقاع الأذى بأساليبه كلها وطرقه على الذي ينادي بصوت صادق لتطبيق الإسلام ومبادئه في المجتمعات الإسلامية.
٨- ظهور المذاهب المتعددة والجماعات الإسلامية المتناحرة التي يكيل بعضها التهم والترهات لبعض واستغلال ذلك من قبل الأعداء سواء من الداخل أم من الخارج.
٩- ظهور فئة فقهاء السلاطين التي اتخذت على عاتقها تغطية شتى المخالفات الصريحة للإسلام ومبادئه بفتاوى جائرة على الإسلام وأهله.

لقد تكشفت سوءات هذه المجتمعات بصورة دقيقة عندما تسارع التقدم الحضاري والتفجر التكنولوجي في المجتمعات الغربية حديثاً وما قابله من تخلف وانحطاط في المجتمعات الإسلامية. فذهب قسم كبير من الكتاب والمؤلفين الذين لم يصلوا بعد إلى حقيقة التطور الحضاري وأسراره ولا إلى حقيقة الإسلام ومبادئه إلى إعلان الثورة على الإسلام وأهله لكي يتسنى لهم التقدم في موكب الحضارة العالمية الحديثة ظناً منهم أن الإسلام هو الذي يقف حاجزاً أمام تقدمهم العلمي والحضاري. وقسم آخر ذهب إلى الحديث والمطالبة بتطوير الإسلام وتحديثه لكي ينسجم مع المتطلبات العصرية الحديثة لفهمهم السقيم للإسلام ومصدره.

وفي ضوء هذين المطلبين تم تخطيط وتوجيه الحركة الفكرية ومايلزمها من

متطلبات في المجتمعات الإسلامية في هذا القرن. فإذا ما أراد الإنسان المخلص لدينه أولا والغيور على مصلحة مجتمعه ثانياً أن يوضح أسباب التخلف والفساد التي تعيشها المجتمعات يجد نفسه أمام عدو أشر يملك مختلف الوسائل والطرق للنيل من هذا الفرد للحيلولة بينه وبين ما يود توضيحه إلى أبناء مجتمعه.

ومن القضايا التي تبعث الاسى والذهول أن تهب في هذه الأيام بعض الآراء التي تنادي إلى الالتقاء بين الاتجاهين، الاتجاه الديني والاتجاه القومي على جميع المستويات والوسائل الصحفية ليزيد من اوضاعنا الاجتماعية غموضاً وتناقضاً. إننا في الوقت الذي نعرف فيه حقيقة الهدى الذي بعثه الحق سبحانه وتعالى هدى ورحمة للعالمين وهو الإسلام فإننا ما زلنا نحن واقطاب القومية العربية سواء لا نعرف بالتحديد ما هو الفكر الأيدولوجي للقومية الذي سيتم وضعه بجانب الإسلام للالتقاء عليهما معاً. إن قريش عندما كانت تطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم الالتقاء والاتفاق كانوا يدافعون عن دين الوثنية الذي سلب عقولهم عن الحق المبين الذي جاء به رسولهم الأمين. هذا بجانب كونهم غير مسلمين لذلك وضعوا أنفسهم في الجانب المقابل للإسلام. فالمطلوب من أصحاب الاتجاه القومي أولا أن يعلنوا بصراحة هل هم من المسلمين أو لا؟ هذا بالإضافة إلى توضيح مدرستهم الفكرية المتفقة كاملا مع شعارهم القومي.

إن أصحاب التيار القومي لو أرادوا حقاً أن ينسجم فكرهم الأيدولوجي مع شعارهم المرفوع لكانوا أشد الناس تمسكاً بالكتاب العربي الحكيم الذي لا يضاهيه كتاب آخر عبر تاريخ البشرية باعتراف الناس جميعاً. هذا بجانب التمسك والامتثال لجميع ما نادى به النبي العربي الحكيم. هل يعني الشعار القومي العربي ان نتخلى عن بعض ما في القرآن العربي الحكيم وسنة الرسول العربي الأمين لندخل مكانها مقتطفات من الأفكار والمبادئ الافلاطونية، والأرسطية، والديوية، والماركسية، واللينينية؟ إن هذا الشعار يعني لكل إنسان يدرك معاني الألفاظ والكلمات بطريقة سليمة التمسك القوي بكل ما هو عربي. إن العلاقة الوحيدة التي تجمع بين الإنسان العربي أو غيره من الأقوام الأخرى مع الإسلام هي أن يكون الفرد أو الإنسان مسلماً في الاعتقاد والفكر والسلوك وكل ما يمليه عليه النهج المنير في شتى أمور الحياة بغض النظر عن جذوره العرقية. فعندها يسمى الإنسان مسلماً عربياً أو مسلماً كردياً أو مسلماً فارسياً أو مسلماً تركياً. فهذه هي العلاقة الوحيدة التي يسمح بها الإسلام.

فالانسان القومي الذي يطالب بتطبيق أي فكر بدل الاسلام يسلخ نفسه عن الاسلام ومبادئه بصورة صارخه.

وخلاصة القول في هذا الموضوع إن الإسلام يمثل الهدى الذي بعثه الله سبحانه وتعالى، وهتف به سائر الأنبياء والمرسلون ليكون مصدراً للاعتقاد والتشريع وسن القوانين وكل ما يلزم الإنسان من سبل هداية ليقوده إلى نعيم الدنيا والآخرة. أما القومية فهي نظرة عنصرية ضيقة أسست على الكبر والاستعلاء على الآخرين من الناس وكانت وراء هلاك إبليس عندما رفض أوامر السجود لآدم بحجة انه خلق من مادة أفضل من الذي خلق منها آدم عليه السلام. لذلك فمن المحال أن تلتقي القومية بأساسياتها ومرتكزاتها التي بنيت على خيوط واهية أضعف من خيوط العنكبوت مع دين التوحيد، دين الهدى والرحمة الذي أراده الحق أن يكون للبشر كافة إذ لا توجد أية فروق بينهم إلا بتقوى الله ومخافته، والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه.

«إن المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهري الكامل، الذي يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق. الاختلاف في جوهر الاعتقاد، وأصل التصور، وحقيقة المنهج، وطبيعة الطريق. إن التوحيد منهج والشرك منهج آخر ولا يلتقيان، التوحيد منهج يتجه بالإنسان مع الوجود كله- إلى الله وحده لا شريك له. ويحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان، عقيدته وشريعته، وقيمه وموازينه، وآدابه وأخلاقه، وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود. هذه الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله، الله وحده بلا شريك. ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس. غير متلبسه بالشرك في أية صورة من صوره الظاهرة والخفية.... وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية وضرورية للمدعوين. إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الايمان، وبخاصة في الجماعات التي عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها، وهذه الجماعات هي أعصى الجماعات على الإيمان في صورته المجردة من الغبش والالتواء والانحراف. أعصى من الجماعات التي لا تعرف العقيدة أصلا. ذلك أنها تظن بنفسها الهدى في الوقت الذي تتعقد انحرافاتها وتتلوى واختلاط عقائدها وأعمالها وخلط الصالح بالفاسد فيها، قد يغري الداعية نفسه بالأمل في اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد... وهذا الإغراء في منتهي الخطورة. إن الجاهلية جاهلية، والإسلام إسلام. والفارق بينهما بعيد.

والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته. هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه.

وأول خطوة في الطريق تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية: تصوراً ومنهجاً وعملا. الانعزال الذي لا يسمح بالإلتقاء في منتصف الطريق. والانفصال الذي يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام. لا ترقيع ولا أنصاف حلول. ولا التقاء في منتصف الطريق مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام، أو ادعت هذا العنوان. وتميز هذه الصورة في شعور الداعية هو حجر الأساس. شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء. لهم دينهم وله دينه، لهم طريقهم وله طريقه. لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم. ووظيفته أن يسيرهم في طريقه هو، بلا مداهنة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير.

وإلا فهي البراءة الكاملة، والمفاصلة التامة، والحسم الصريح....«لكم دينكم ولي دين» وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحسم.... ما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد في بيئة جاهلية منحرفة، وفي أناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة، ثم طال عليهم الأمد «فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون» وإنه ليس هناك أنصاف حلول، ولا التقاء في منتصف الطريق، ولا إصلاح عيوب، ولا ترقيع مناهج، إنما هي الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليه أول ما كان» (١)

واخيراً فالمجتمع القومي أو العربي قد يكون إسلامياً، وشيوعياً، ورأسمالياً وإقطاعياً، ودكتاتورياً، وهذا يعود إلى نوع المدرسة الفكرية المتبعة في ذلك المجتمع. أما المجتمع المسلم، فهو فقط إسلامي لانه يتبع النهج الإلهي في شتى مناحي الحياة. وعلى هذا الأساس وصف بأنه مجتمع إسلامي. هذا الى جانب أن المجتمع القومي يعد محصوراً في الإنسان الذي ينحدر من أصل قومي واحد دون الأفراد الذين ينحدرون من عرق إنساني آخر بينما المجتمع المسلم هو لكل إنسان يود أن ينيب أو يستقيم على نهج الله القويم دون الالتفات إلى عرقه أو لونه أو جنسه.

---

١ - في ظلال القرآن، الجزء السادس صفحة ٣٩٩٢ - ٣٩٩٣.

المراجـــع

١ - القرآن الكريم.
٢ - ابراهيم دسوقي، تاريخ الفكر السياسي.
٣ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الميزية مصر، ١٢٥٦هـ.
٤ - ابن خلكان، وفيات الاعيان، النهضة المصرية، مصر، ١٩٤٨.
٥ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧.
٦ - ابن عبد البر، الاستيعاب، دائرة المعارف، حيدر أباد، الهند، ١٣٣٦هـ.
٧ - ابن عبد ربه، العقد الفريد، مصر ١٩٤٠.
٨ - ابن كثير، البداية والنهاية، دار السعادة، جمهورية مصر العربية.
٩ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٦.
١٠ - ابو الأعلى المودودي، الامة الاسلامية وقضية القومية، دار الانصار، القاهرة، ١٩٨١.
١١ - ابو الأعلى المودودي، الخلافة والملك، تعريب احمد ادريس، دار القلم، الكويت، ١٩٧٨.
١٢ - ابو الأعلى المودودي، نظرية الاسلام والسياسة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٥.
١٣ - ابو الفتوح رضوان، القومية العربية، القاهرة، ١٩٦٨.
١٤ - السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، دار الكتاب الاسلامي، قم، ايران ١٩٧٢.
١٥ - السيد محمد حسين الطباطبائي، نظرية السياسة والحكم في الاسلام، الدار الاسلامية، بيروت، ١٩٨٢.
١٦ - الياس مرقص، القومية العربية والاسلام.
١٧ - البيهقي، السنن الكبرى، دائرة المعارف، حيدر أباد، الهند، ١٣٥٥هـ.
١٨ - الترمذي، كتاب الفتن.
١٩ - الزمخشري، الكشاف، البهية، مصر، ١٣٤٣هـ.
٢٠ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار الحكومية لاهور، باكستان، ١٢٧٠هـ.
٢١ - الطبري، تاريخ الامم والملوك، دار الاستقامة، مصر، ١٩٣٩م.

٢٢- بويد شيفر، القومية عرض وتحليل، ترجمة جعفر خصباك وعدنان الحميدي، دار مكتبة الحياة بيروت، ١٩٦٦ مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بغداد، نيويورك.
٢٣- حسن شحاته سعفان، الادب اليوناني القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعي.
٢٤- حسين السيد عباس، القومية العربية بين الفكر والواقع ١٩٧٢.
٢٥- ساطع الحصري، اللغة والادب وعلاقتهما بالقومية.
٢٦- ساطع الحصري، ما هي القومية، دار الملايين، بيروت، ١٩٥٩.
٢٧- سنن ابن ماجه، كتاب الفتن.
٢٨- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٠.
٢٩- سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣.
٣٠- صالح العبود، فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، الرياض، دار طيبة للنشر وللتوزيع ١٩٨٢.
٣١- صحيح البخاري.
٣٢- صحيح الترمذي.
٣٣- صحيح مسلم.
٣٤- عبد الستار فتح الله، الغزو الفكري والتيارات المعادية للاسلام، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، جمهورية مصر العربية.
٣٥- عبد الله سلوم السامرائي، الاسلام والقومية الاسلام والامية، بغداد، ١٩٨٥.
٣٦- عبد المؤمن يوسف، المسألة القومية بين الجاهلية والإسلام، دار الدعوة، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٢.
٣٧- مسند احمد، دار المعارف، مصر، ١٩٥٢.
٣٨- منيف الرزاز، معالم الحياة العربية الجديدة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٠.
٣٩- نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
٤٠- يوسف خليل، القومية العربية ودور التربية في تحقيقها، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

الفصل السابع

الأبعاد الفكرية والفلسفية للتربية

الأبعاد الفكرية والفلسفية للتربية

هدفت الدراسة الى توضيح ماهية التربية والغرض منها كما فهم الانسان عبر تاريخه ماهية التربية وغرضها في ضوء معتقداته العامة للوجود، وللانسان، والحياة الدنيا. كذلك بينت الدراسة ان التربية لا بد لها من إطار فكري عام تصاغ برامجها المتعددة في ضوئه. وتبين ان المبادئ الاساسية للتربية تختلف من تربية الى أخرى حسب نوع الفكر العام الذي صيغت التربية في ظلاله. فقد بينت الدراسة ان المبادئ الاساسية للتربية واهدافها العامة في ضوء النهج الاسلامي تختلف عنها في ضوء المدارس الفكرية والفلسفية الاخرى. هذا بجانب الاختلافات الجوهرية بين المدارس الفكرية والفلسفية فيما بينها حول مبادئ التربية واهدافها.

الأبعاد الفكرية والفلسفية للتربية

مقدمـة:

تعد التربية من أهم الموضوعات وأقدمها التي عرفها الانسان منذ تلك اللحظة التي لمست فيها قدماه سطح الكرة الأرضية، بعد أن أمر الحق سبحانه وتعالى بهبوطه إلى هذا الكوكب. وقد مارس الانسان التربية بوسائلها وانماطها المتعددة منذ فجر تاريخه حتى هذه الأيام. وسيبقى بحاجة ماسة إلى التربية وموضوعاتها المتعددة في تحقيق أهدافه الفردية والجماعية حتى يرث الحق سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها.

فالتربية ليست كما يفهمها السواد الأعظم من الناس أنها تعني القراءة والكتابة فقط. لقد عرف الانسان التربية واستخدمها في تحقيق أهدافه وغاياته قبل أن تعرف القراءة والكتابة. كانت التربية في العصور الأولى من تاريخ الانسان تأخذ طابع التقليد، والمحاكاة، والممارسة عن طريق الصواب والخطأ لجميع ابناء المجتمع من أجل تأهيلهم بالمهارات، والخبرات، والمعلومات المتعددة التي تساعدهم على تحقيق أهدافهم سواء الفردية أو الجماعية. على هذا النهج التربوي كانت جميع أهدافهم الاجتماعية، والاقتصادية، والزراعية، والسياسية والعسكرية يتم تحقيقها عن طريق الجهد المبذول من قبل ابناء المجتمع الذين تم تأهيلهم وتربيتهم بالطرق المألوفة لهم في تلك الحقبة من الزمن. هذا بجانب تلبية حاجاتهم الفكرية، والعقدية، والتقاليد، والعادات التي كانت جميعها تشكل مركز اهتمام الانسان منذ فجر تاريخه.

وقد تطورت وسائل التربية من عهد إلى آخر لتناسب التقدم الحضاري الذي نسجه الانسان عبر تاريخه الحضاري عن طريق التربية لتفي بتحقيق الاهداف المتجددة التي ينشدها الانسان في شتى الجوانب الحياتية. لذلك كانت التربية عبر تاريخها المديد عملية متجددة من حيث المحتوى، والوسائل، والأساليب، وطرق القياس والتقويم، وثابتة من حيث الغرض الذي ينشده الإنسان منها، فهو يحتاجها كوسيلة في تحقيق أهدافه المتطورة حسب التقدم العلمي والحضاري. وستبقى التربية تلعب هذا الدور بالنسبة للإنسان في المستقبل.

ماهية التربية وغرضها:-

اختلفت الآراء والأفكار حول ماهية التربية وغرضها من جيل إلى آخر، ومن

مدرسة فكرية إلى أخرى، لتعكس مدى الاختلاف الفلسفي والفكري عند الانسان حول القضايا الأساسية التي تهمه في شتى أموره الحياتيه. فقد اختلفت آراء الانسان حول أهم القضايا وأقدسها على الإطلاق، وهي: الذات الإلهية، وطبيعة الكون، وعلاقة الفرد بالمجتمع، وطبيعة الانسان. التي تعكس جميعها آثاراً واسعة النطاق على مجريات الحياة الانسانية في الحياة الدنيا وفي الآخرة. فقد كان لهذا الاختلاف حول القضايا الوجودية أثر مباشر وقوي في الاختلاف حول ماهية التربية وغرضها، وهذا ما سنوضحه بالتفصيل عندما نتحدث عن فلسفة التربية في الصفحات القادمة.

أما بالنسبة إلى مفهوم التربية فهي تعني في اللغة «تغذية الجسم وتربيته بما يحتاج إليه من مأكل ومشرب ليشب قوياً معافى قادراً على مواجهة تكاليف الحياة ومشقاتها، فتغذية الانسان والوصول به إلى حد الكمال هو معنى التربية، ويقصد بهذا المفهوم كل ما يغذى في الانسان جسماً وعقلاً وروحاً وإحساساً ووجداناً وعاطفة»(١)

«إن التربية عملية مقصودة هادفة موجهة يقوم المربون من خلالها بخلق مواقف تربوية يكون من حصيلة تفاعل الفرد معها تغيرات في السلوك الانساني، ويخلط البعض بين التربية وبين التعليم. فالتربية ليست مرادفة للتعليم، فهي تتناول شخصية الفرد كلها فهي أعم وأشمل»(٢).

«إن التربية هي تلك العملية الموجهة نحو تغيير السلوك الانساني على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي بهدف أن يكون الغد دائماً أحسن حالا من اليوم متوسلين في ذلك. بمختلف الوسائط المعينة على تحقيق هذه المهمة»(٣)

يرى الدكتور اسحاق الفرحان أن التربية لا توجد في فراغ، بل هي وعاء وأساليب وإجراءات ينقل بها تراث الأمة من الأجداد إلى الأحفاد، ومن الآباء إلى الأبناء. وبوساطتها تتطور الحضارة عن طريق العلوم المتفجرة والمعارف المتزايدة

١ - عباس محجوب، أصول الفكر التربوي في الإسلام، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٧، ص١٥.

٢ - صلاح العرب عبد الجواد، اتجاهات جديدة في التربية الصناعية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢، ص٣٤.

٣- سعيد اسماعيل علي، الفكر التربوي العربي الحديث، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٧، ص ٣٧٠.

على نسق ينسجم مع نظرة الأمة ورسالتها في الحياة، كما تسهم التربية في تحليل المشكلات الاجتماعية المعاصرة، وتبلور لأجيال الشباب الحلول الفكرية السليمة بأساليب علمية مرضية لتكون انطلاقات الشباب في المجتمع أصيلة غير مستوردة ولا عرضية، بل نابعة من التراث ومتكيفة مع الأحداث على نسق يرضي طموح الشباب ويضمن لهم هويتهم ولأمتهم شخصيتها (١).

ويرى «الجمالي» أن التربية تعني كل المؤثرات الموجهة التي يراد منها أن تصوغ كيان الانسان وتهدي سلوكه في كل نواحي الحياة جسدية كانت أم عاطفية، أم اجتماعية، أم فكرية، أم فنية، أم أخلاقية، أم روحية. فالتربية تشمل كل المنظمات، والعوامل، والأساليب، والطرق التي تدخل في نطاق الفعاليات التهذيبية (٢).

فالتربية كما يراها «فينكس» عملية قصدية يتم عن طريقها توجيه الافراد الانسانيين لنمو الأفراد الانسانيين(٣).

بينما يرى «جراتان» التربية على أنها من أوسع الميادين التي لا يمكن أن يحيط بها البحث، فهي لا تقتصر على ما نفعله من أجل أنفسنا، وما يفعله غيرنا من أجلنا، لتحقيق غرض محدد، وهو أن نقترب على نحو ما من اكتمال طبيعتنا. بل هي تضع أكثر من هذا، فهي بمعناها الواسع تشمل أيضاً العوامل غير المباشرة التي تؤثر في الاخلاق، وفي الملكات البشرية، عن طريق وسائل يختلف غرضها المباشر عن نتيجتها المقصودة كل الاختلاف(٤).

يرى الباحث أن التربية تعد وسيلة المجتمع الفعالة التي يستطيع عن طريقها تحقيق أهدافه الوجودية، والفكرية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية بما يتفق مع تصور أبناء المجتمع للوجود، وما ينبثق عن هذا التصور من مفاهيم، وعقائد، وأفكار. وذلك عن طريق استخدام المعلومات كافة، ومجموعة المعارف العلمية، والوسائل التربوية التي توصل إليها الانسان فـي تأهيـــل أفـــراد

١ - اسحاق الفرحان، التربية الاسلامية بين الأصالة والمعاصرة، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٣، ص١٤.

٢ - محمد الجمالي، آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية، ص ١٢٧.

٣ - فينكس هـ. فلسفة التربية، ترجمة محمد لبيب. دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٦٥.

٤ - جراتان كلنتون، البحث عن المعرفة، ترجمة عثمان نويه، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٢.

المجتمع كل حسب ميوله وقدراته الذاتية ليكونوا على أفضل مستوى فني في تقديم الخدمات المتعددة لمجتمعهم؛ لذلك فإن التربية تختلف من مجتمع إلى آخر، وذلك يعود إلى تصور أبناء المجتمع للوجود وما يعكسه هذا التصور من مفاهيم خاصة بالقضايا الوجودية الاساسية التي تشكل اهتمامات وطموحات الانسان بعد تعرفه على حقيقة وجوده وطبيعة كيانه في ضوء ذلك التصور للوجود.

فلسفة التربية :

إن التربية ترتكز على القضايا التي تعالجها والتي تدور حول طبيعة الانسان، والمجتمع، والحياة، والعلاقة بينها. والمربون في عملهم يثيرون كثيراً من القضايا التي تعالجها الفلسفة وذلك مثل ما يلي :

أ- طبيعة الانسان الذي نقوم بتربيته

ب- طبيعة الحياة التي تود أن تقودنا التربية إليها

جـ- طبيعة المجتمع البشري

د- طبيعة المفاهيم والقيم التي نتطلع إليها

إن مثل هذه العلاقة الوثيقة بين الفلسفة والتربية جعلت بعضهم يعرف الفلسفة بأنها «النظرية العامة للتربية»(١).

إن الفلسفة التربوية هي فهم التربية في كليتها الاجمالية، وتفسيرها بواسطة مفهومات عامة تتولى قيادة اختيارنا للغايات والسياسات التربوية... فهي تتضمن إذن تطبيق الفلسفة الصورية على ميدان التربية(٢).

كما عرف آخرون فلسفة التربية بأنها عبارة عن الإطار العام من الآراء والمعتقدات الفلسفية التي تدور حول الانسان وحول العالم الذي يعيش فيه والتي توجه عملية تربية هذا الانسان وتوحدها وتحدد أهدافها ومناشطها(٣).

١- صادق سمعان. الفلسفة والتربية. محاولة لتحديد ميدان فلسفة التربية. القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٢، ص ٨٨.

٢- جورج ف. نيلو. مقدمة إلى فلسفة التربية (ترجمة نظمي لوقا)، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٧، ص ٨-٩.

٣- ابراهيم الشافعي. الاشتراكية العربية كفلسفة للتربية. القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٧١، ص ٢٦.

فالتربية لا يمكن لها أن تنمو وتكتمل وتتواءم في ميدان التطور ما لم تستند إلى فكر فلسفي يغذيها بالجدة والابتكار والإبداع في عالم يسابق العلم ومنجزاته للفكر وتطلعاته. وما دمنا نسأل: لماذا نعلم؟ وكيف نعلم؟ فستبقى حاجة التربية إلى الفلسفة ملحة وضرورية (١).

إن الأهداف التربوية والغايات العامة التي يود الانسان أن يحققها من خلال العملية التربوية تنبثق من فهم الانسان للوجود وأسراره. وقد اختلفت آراء الانسان واعتقاداته حول الوجود وأسراره، مما أدى إلى انعكاس ذلك على اختلاف أهداف الناس وغاياتهم. فالإنسان الذي فهم الوجود من خلال النهج الإسلامي فإنه كون مفهوماً خاصاً للوجود بشكل عام وللحياة الدنيا وقدرها في الوجود بشكل خاص. مما أدى إلى تشكيل مفاهيم، وأهداف، وغايات، وطموحات خاصة بهذا الانسان تختلف عن تلك التي كونها الانسان الذي اتبع نهجاً فلسفياً بشرياً في فهم الوجود وأسراره.

وفي ضوء ذلك فالمجتمع الذي لا يؤمن أفراده إلا بالمعطيات المادية دون الاعتقاد بالذات الإلهية وما يتصل بالقضايا الميتافيزيقية تكون تربية أبناء هذا المجتمع قد أسست على قواعد واسس تربوية تسعى إلى تحقيق أهداف هذا المجتمع التي لا تتعدى الجوانب المادية في ضوء الفهم الخاص لهذا المجتمع للحياة الدنيا. وعندها يكون المجتمع قد اتخذ من التربية وسيلة لتحقيق أهدافه في ضوء مفهوم أبنائه للوجود وأسراره، والحياة الدنيا وحقيقتها في ضوء فهمهم لها. وهذا هو النمط التربوي الذي نشاهده في هذه الأيام في الدول المادية المتقدمة.

إن من أهم وأخطر المشكلات التي تواجه ميدان التربية في أي بلد هو فقدان هذا الميدان للقاعدة الاساسية التي تتمثل بالأسس الفكرية والأطر الفلسفية المنبثقة من فلسفة المجتمع. هذا مع العلم بأن هذه الأسس والأطر يجب أن تكون واضحة المعالم والاتجاهات لجميع فئات الشعب بشكل عام ولرجال التربية بشكل خاص حتى يتسنى لهم صياغة الأهداف التربوية العليا التي تعد بمثابة الطموحات والأهداف لجميع معتنقي تلك الفلسفة أو الفكر. وفي هذا الوضع تكون الأهداف التربوية العليا تشكل الهدف الشعبي العلمي التربوي العام الذي تسعى جميع الفئات المشتركة في العملية التربوية لتحقيقه بشتى الوسائل والأساليب. وبهذا المفهوم تصبح المؤسسات

١ - النجار، فلسفة التعليم في دولة عصرية، مجلة الفكر المعاصر، العدد ٧٢، ١٩٧١، ص٢٤.

العلمية والتربوية المكان الخصب لبذل الجهود المشتركة لتحقيق الأهداف التي تمثل جميع قطاعات الشعب. بينما في حالة غياب الأسس والأطر الفلسفية في مجال التربية أو في حالة وجود أسس وأطر غير واضحة المعالم والاتجاهات حيث التناقض والتضارب الواضح بين تلك الأسس، فإن هذا الخلل الجسيم قد يؤدي إلى وجود مؤسسات علمية تربوية يكون طابعها العام الظاهري الصالح العام أما واقعها فيكون منتدى للصراع الشخصي إذ يسعى كل فرد أو ثلة إلى تحقيق مآرب وأهداف وشهوات شخصية بحتة على حساب الاهداف والأمنيات العليا لأبناء الشعب. وعندها تصبح الجهود المبذولة من قبل الأطراف المشتركة في العملية التربوية تتصادم بعضها ببعض بسبب سياسة الخندقة والتصادم التي لا تخدم إلا الأهداف والأهواء الشخصية. وبهذه المعطيات يصبح مستقبل الأمة وأهدافها رهينة لنزوات وأطماع وأهداف شخصية لمجموعة من الأفراد تتصف بالأنانية المفرطة وفقدان الإحساس نحو القضايا الوطنية. إذ ينظر كل فرد من هذه الجماعة إلى كل شيء من منظاره الشخصي دون الالتفات إلى المبادىء العامة والمصالح الوطنية.

أضف إلى ذلك بأن وضوح الأسس والأطر التربوية يمكن رجال التربية من صياغة المناهج التربوية للفروع كافة من أجل تحقيق الأهداف التربوية العليا المنبثقة من فلسفة المجتمع دون وجود أي تعارض في المناهج الدراسية مع تعدد فروعها ومواضيعها وعندها يمكن تأهيل الأفراد على أسس تربوية علمية سليمة تؤدي إلى وجود فئة متميزة تربوياً واجتماعياً وسياسياً وعقائدياً بما يتناسب مع فلسفة المجتمع المعني. وفي ظل هذه المعطيات فإن الأهداف والمناهج التربوية تواجه بحرارة وحماسة منقطعة النظير من جميع الأطراف المشتركة في العملية التربوية بسبب الشعور والاتجاه العام عند جميع الأفراد بأن هذه المناهج التربوية هي من أهم وأفضل الوسائل التي تمكنهم من تحقيق أهدافهم التربوية العليا التي تتفق بصورة كاملة مع معتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأحاسيسهم وشعورهم. وإذا لم تصمم المناهج التربوية على هذا الأساس الفكري التربوي السليم فإنه من الاستحالة على المناهج التربوية إن تؤدي إلى تحقيق الأهداف المنشودة التي تم تصميمها من أجل تحقيقها. هذا بالإضافة إلى وجود التعارض والتضارب بين المناهج الدراسية للمواضيع المختلفة.

المدارس الفكرية والفلسفية للتربية:

لقد استخدم الانسان عبر تاريخه المديد التربية كوسيلة لتحقيق الأهداف المتعددة التي كان يرى فيها الانسان تحقيق سعادته وطموحاته. ولكن هذه الأهداف كانت وما زالت وستبقى متجددة ومتنوعة من عهد إلى آخر. ومن قرن إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر. ومع هذه الاختلافات كلها في الأهداف بين القرون، والعهود، والمجتمعات، إلا أن التربية ما زالت وستبقى الوسيلة الوحيدة التي يتسنى للإنسان عن طريقها تحقيق ما تشرئب له النفس البشرية من أهداف تربوية عامة. كنا قد أوضحنا في الفصل الأول مفهوم الحياة الدنيا، وكيف اختلفت الآراء حول المفهوم الحقيقي للحياة الدنيا. وقد بينا في تلك الدراسة وجهة نظر الدين الإسلامي الحنيف للحياة الدنيا على أنها تعد المقدمة التي ينطلق من خلالها الانسان لنيل رضا الحق سبحانه وتعالى والفوز بجنات النعيم في دار الخلود والسلام. وقد بينا وجهة نظر المدارس الفلسفية حول مفهوم الحياة الدنيا وكيف تمثل مركز اهتماماتهم ونهاية طموحاتهم، والسعي فقط لتحقيق ما تتوق له النفس البشرية داخل إطار الحياة الدنيا فقط. ففي الوقت الذي تشابهت فيه اهتمامات المدارس الفكرية حول هذه الأساسية. فقد اختلفت آراؤهم حول القضايا الوجودية الأخرى مما أدى إلى وجود الاختلاف في أهدافهم التي لا تتعدى إطار الحياة الدنيا. إن هذا الاختلاف الفكري حول القضايا الوجودية أدى إلى انعكاسات كبيرة في ماهية التربية ومحتواها التي يجب أن تطبق في مجتمع دون الآخر. وفي ضوء هذا الفهم للتربية فإن المجتمع الذي لا يؤمن إلا بالمعطيات المادية دون الاعتقاد والتسليم بالأمور الميتافيزيقية، تكون تربية أبناء هذا المجتمع قد أسست على قواعد واسس تربوية وعلمية تحقق لهذا المجتمع أهدافه التي لا تتعدى الجوانب المادية من هذه الحياة وما يهم الانسان فقط في حياته المادية بنسبة ما يسعى هذا الانسان إلى تحقيقها عن طريق إعداد شتى الجوانب المتصلة بالبرامج التربوية من وسائل متعددة وإمكانات بشرية ومادية. وبهذا يكون المجتمع قد اتخذ من التربية وسيلة لتحقيق أهدافه في ضوء نظرة أبناء هذا المجتمع للوجود ولحقيقة الحياة الدنيا. وهذا هو النمط التربوي الذي نلاحظه في هذه الأيام في معظم الدول المادية المتقدمة.

أما بالنسبة إلى المجتمع الذي يعتقد أفراده بالنهج الإسلامي كإطار فكري لهم

في الدنيا. فإن نظرة هذا المجتمع للوجود بما فيه الحياة الدنيا سوف تختلف عن نظرة أبناء المجتمعات الأخرى التي لا تؤمن بالنهج الإسلامي. ويكمن سر هذا الاختلاف بما يعكسه النهج الإسلامي من أفكار ومعتقدات وأنماط سلوكية في نفوس اتباعه. لذلك فإن اهداف هذا المجتمع الإسلامي تكون أشمل وأكبر من أهداف المجتمعات الأخرى، لذلك فإن التربية التي يمكن بواسطتها تحقيق أهداف هذا المجتمع سوف تختلف عن التربية في المجتمعات الأخرى بمقدار الاختلاف بين أهداف المجتمع المسلم التي تقودنا إلى غايات متصلة بحاضرنا ومستقبلنا في هذه الدنيا، وأهداف أخرى تقودنا إلى تحقيق غايات وجودنا في هذا الكون، وهي الفوز بجنات النعيم في الآخرة. هذا بجانب الاختلاف الشامخ بين النهج الإسلامي المتبع في المجتمع الإسلامي والأطر الفكرية الأخرى المتبعة في المجتمعات غير الإسلامية التي تؤثر بشكل قوي على برامج التربية وانعكاساتها الفكرية والسلوكية في شتى الميادين الحياتية. وسوف نورد المبادىء الأساسية للتربية في ضوء النهج الإسلامي بعد الإشارة إلى المبادىء الأساسية للتربية في ضوء المدارس الفلسفية المتعددة. لنرى معاً أوجه التشابه والاختلاف بين الطرفين.

(١) التربية في ضوء الفلسفة الطبيعية :

كنا قد أشرنا في الفصل الاول الى المبادىء الأساسية للمدارس الفلسفية المختلفة. بما فيها المبادىء الخاصة بالفلسفة الطبيعية التي تشكل في أذهان معتنقيها مفهوماً خاصاً للحياة الدنيا، والكون وطبيعته، والانسان وخصائصه ومكانته في الكون. هذا بجانب انعكاسات تلك المبادىء في التربية التي ينشدها الانسان للوصول إلى آماله وطموحاته وأهدافه بمختلف مستوياتها. لذلك فإن هناك مبادىء أساسية للتربية في ضوء الفلسفة الطبيعية تختلف عن غيرها من المبادىء والاساسيات التربوية في ضوء الفلسفات الأخرى. ومن أهم الاساسيات التربوية ما يلي :

١ - «العملية التربوية يجب أن تتعدى المجال الفكري لتشمل تربية العقل والجسم، دون التركيز على احدهما على أساس الأفضلية.

٢ - العملية التربوية يجب أن يتم طرحها بالوسائل الطبيعية للتلاميذ.

٣ - التقدم بمستوى العملية التربوية يجب أن يتناسب مع مقدار التقدم عند التلاميذ في المستوى العقلي والجسمي.

٤- يجب إعطاء المعلومات التربوية للتلاميذ عندما يكونون جاهزين للتعلم. وعندها تكون العملية التربوية طبيعية.

٥- التربية يجب أن تشبع حاجات التلاميذ ورغباتهم.

٦- طالما أن الفرد أهم من الجماعة في ضوء الفلسفة الطبيعية، فيجب التركيز في العملية التربوية على أهداف وحاجات الفرد أولا.

٧- تعد التربية عملية ديناميكية تفاعلية يجب أن يكون للطالب فيها دور بارز في السيطرة على مجرياتها وأحداثها. وعلى هذا الأساس تكون التربية قد اشبعت الحاجات الطبيعية عند الطلبة.

٨- يكون دور المدرس في العملية التربوية موجهاً لمجرياتها ومساعداً للتلاميذ كيف يتعلمون المواد التعليمية.

٩- الثواب والعقاب يعدا جزءاً لا يتجزأ من العملية التعليمية شريطة أن تتم عملية الثواب والعقاب بشكل طبيعي منظم»(١).

(٢) التربية في ضوء الفلسفة المثالية:

يعد افلاطون، زعيم الفلسفة المثالية أول الذين تحدثوا في النظريات التربوية، فهو يعتقد أن الهدف الاسمى من التربية هو خدمة الدولة. لذلك فإنه يدعو إلى سيطرة الدولة التامة على العملية التربوية حتى يتم اعداد الاشخاص وتربيتهم بصورة تتناسب مع قدراتهم الفردية. هذا بجانب تأهيلهم للمستويات التي تسمح بها قدراتهم الذاتية. فالدولة يجب أن تستفيد من كل فرد من أبناء المجتمع حسب قدراته وامكاناته الذاتيه بعد أن يتم توزيعهم على مجالات الحياة التي تناسب تلك الامكانات والقدرات. ومن أهم الأسس التربوية التي تعكس المفاهيم التربوية العامة للمبادىء الأساسية للفلسفة المثالية ما يلي:

١- «يعد المعلم المثل الاعلى بالنسبة للتلاميذ كما أنه المسؤول الأول عن خلق الأجواء والظروف التعليمية المناسبة.

1- Butler, J. Donald. Four philosophies and their practice in Education and Religion, 3ded Harper and Row, New York, 1969.

٢- إثارة الدوافع والحوافز نحو التعلم في نفوس التلاميذ تعد من المهام الاساسية للمعلم.

٣- العملية التربوية تبدأ من رغبة المتعلم في التعلم والاعتماد على النفس على حين يقوم المعلم بدور الموجه والمساعد في إعطاء التوجيهات.

٤- يجب التركيز على النمو العقلي واشباعه بالمعلومات التي تساعد على تقوية القوى السببية أو الطرق المنطقية في التفكير.

٥- يجب أن يكون للعملية التربوية أهداف يسعى الى تحقيقها عن طريق المحتوى المقدم للتلاميذ.

٦- تنمية وتطوير شخصية الفرد في شتى الجوانب المعرفية، والخلقية، والروحية عن طريق العملية التربوية.

٧- استخدام جميع الوسائل والأساليب التعليمية التي تساعد الطالب على مواصلة التعليم واكتساب المعرفة.

٨- العملية التربوية تفاعل ديناميكي لا يوجد مكان فيها للفرد السلبي أو الاتكالي.

٩- يقسم أفراد المجتمع إلى ثلاث طبقات حسب مؤهلاتهم التربوية التي أسست حسب قدراتهم الذاتية. أقلها تأهيلا طبقة التجار، وأكثرها تأهيلا وقدرة الطبقة التي تستلم زمام الأمور في الدولة، وتتوسط هاتين الطبقتين طبقة الجند»(١)

(٣) التربية في ضوء الفلسفة الواقعية:

يعتقد ارسطو، زعيم الفلسفة الواقعية أن للتربية في ضوء الفلسفة الواقعية مبادىء أساسية تميزها عن غيرها من الأنماط التربوية الأخرى التي انبثقت من المدارس الفكرية الأخرى. يرى أن الهدف الاساسي الكبير للتربية يكمن في اعداد الفرد ليصل به إلى درجة الكمال الانساني، ولكي نستطيع أن نصل إلى هذا الهدف السابق فإنه يعتقد أن الدولة هي التي تكون بيدها جميع الأمور التربوية. فهي التي تقرر من من أبنائها الذين يجب أن ترعاهم برعايتها لما يتمتعون به من قوى ذاتية عالية. كما تقرر الموت على الذين يعانون من عيوب أو قصور خلقية.

١ - المصدر السابق.

هذا بالإضافة إلى أعتقاده بحق الدولة في اختيار الزوجات لأبناء المجتمع. ويرى أن الغاية العليا من التربية تكمن في إعداد الأفراد من أجل خدمة المجتمع.

«ويرى فريمان (Freeman) أن أهم المبادىء الأساسية للتربية في ضوء الفلسفة الواقعية هي:

١ - التربية من أجل الحياة. لذلك يجب أن تكون لها غايات وأهداف ذات فائدة عالية.

٢ - التربية بحد ذاتها تعد هدفاً.

٣ - التربية يجب أن تكون منظمة وتتبع قوانين وإجراءات عملية، ولا يجوز أن تكون عرضة لتنظيم وتخطيط المعلم بأية حال من الأحوال.

٤ - استخدام المقاييس والمعايير الموضوعية في شتى مجالات التربية.

٥ - التركيز على البحث والأسلوب العلمي في العملية التربوية.

٦ - تصميم المناهج على أسس وقواعد علمية.

٧ - تنمية وتطوير قوة الفرد على التحليل، والتعليل، وإعطاء المسببات والأسباب لكافة الإشياء.

٨ - أن تتم عمليتا القياس والتقويم على أسس عملية ثابتة.

٩ - الدولة تسيطر على جميع مجريات العملية التربوية.

١٠ - إعداد وتأهيل أبناء المجتمع للدفاع عن كيان الدولة.(١)

(٤) التربية في ضوء الفلسفة الوجودية:

قبل أن نشير إلى المبادىء الأساسية للتربية في ضوء الفلسفة الوجودية، فلا مندوحة لنا من إبراز الحقيقة التالية للقارىء العزيز، وهي أن التربية في ضوء الفلسفة الوجودية لم تتعد الجهد النظري الخالص، أي أنها لم تطبق حتى هذه اللحظة في أي مكان على سطح الكرة الأرضية. ولكن فان (Van) اقترح عدة أساسيات للتربية في ضوء الفلسفة الوجودية حسب فهمه للأساسيات الكبرى التـــي

1- Freeman, Physical Education in achanging Society, Houghton mifflin Company. U.S.A. 1977. pp.135.

تنطوي عليها الفلسفة الوجودية وهي:

١- يجب أن ينصب إهتمام العملية التربوية على حاجات الفرد وأهدافه.

٢- تهيئة الأجواء العملية والتربوية المناسبة للفرد يعد الدور الأساسي والأخير للمدرسة.

٣- تعطي الحرية التامة للفرد في اختيار المادة التعليمية وأسلوب التدريس لتلك المادة.

٤- دور المعلم في العملية التربوية يشمل إثارة حوافز التلاميذ نحو التعليم وتشجيعهم على الابداع والابتكار.

٥- يجب أن يتعلم الفرد عن طريق التربية جميع مسؤولياته اتجاه نفسه وتنمية قدرته على اتخاذ القرارات الضروية المناسبة في الظروف المختلفة.

٦- يجب أن تنعكس المعلومات والمهارات والخبرات التي تحتوي عليها البرامج التربوية في سلوكات الفرد واتجاهاته(١).

(٥) التربية في ضوء الفلسفة البراجماتية:

يعتقد جون ديوي أن التربية يجب أن تركز على الفرد كعضو مشارك فعال في مجتمعه وليس كعضو له اهتمامات متباينة مع أهداف مجتمعه. لذلك فإنه يرى أن التربية يجب أن تنظر إلى اهتمامات المجتمع واهتمامات الفرد وتركز عليها جميعها دون الاهتمام بطرف على حساب الجانب الآخر. فالفرد لا يمكن أن ينمو تربوياً إلا من خلال جماعة. لذلك فالواجب على الفرد أن يخدم مجتمعه عن طريق إعداد وتطوير كافة قدراته ومواهبه الفردية.

يرى فريمان (Freeman) ان التربية في ضوء الفلسفة البراجماتية تنفرد ببعض المبادىء والاساسيات التي تميزها عن غيرها من الانماط التربوية الاخرى. وهذه المبادىء هي:

١- الفرد يتعلم من خلال العمل والتجربة.

1- Van Cleve Morris, Existentialism in Education: What it Means, Harper and Row, New york, 1966.

٢- التربية من اجل تنمية وتطوير الكفاية الاجتماعية.

٣- الدور الريادي للتربية يتجسد في اعداد الافراد وتأهيلهم لأخذ اماكنهم المناسبة في مجتمعهم.

٤- تلبية حاجات الافراد كل حسب قدراته ومواهبه الذاتيه.

٥- يجب ان يتم جزء من العملية التربوية عن طريق حل المشكلات التي تقدم للافراد بهدف تنمية القدرة الابتكارية عندهم.

٦- يجب ان تنمي التربية عند الفرد النواحي الفكرية والجسمية.

٧- طالما ان الاهداف الاساسية للتربية في ضوء الفلسفة البراجماتية تكمن في اعداد الافراد المنتجين في مجتمعهم، فان التقويم يجب ان يركز على مدى انسجام وانتاجية الفرد في مجتمعه(١).

(٦) التربية في ضوء الفلسفة الشيوعية:

للتربية في ظلال الفلسفة الشيوعية مزايا ومبادئ تجعلها تختلف عن غيرها من الافكار التربوية الاخرى التي تنبثق عن المدارس الفكرية. فيرى لينين ان التربية للحياة الدنيا فقط ولا تتعدى اطرها السياسية والاجتماعية والثقافية. وهناك عدة مبادي ء اساسية للتربية في ظل الفلسفة الشيوعية هي:

١- تهدف التربية الى تكوين العقلية الشيوعية عند ابناء المجتمع المعادية للرأسمالية. والملكية الفردية، والدين.

٢- تنمية الروح الجماعية وتشجيع الخدمة الاجتماعية في نفوس ابناء المجتمع واخضاع اهداف الفرد ومصالحه الى اهداف مجتمعه

٣- انكار الطبقية وازالة الفوارق بين الطبقات عن طريق توحيد التعليم لجميع ابناء الشعب.

٤- سيطرة الدولة على جميع القضايا المرتبطة بالعملية التربوية.

٥- اعداد الافراد للدفاع عن الدولة وتحقيق غاياتها.

1- Freeman, pp. 137- 138

٦- المساواة بين القوميات والاجناس ودفن النزعات العرقية ومكافحة العقائد الدينية، والاخلاص للفكر الشيوعي وحزبه.

(٧) التربية في ضوء النهج الاسلامي:

يعد الحديث عن التربية في ضوء النهج الالهي من أصعب المواضيع التي يمكن ان يتولى القيام بها انسان، لما لهذا الموضوع من جوانب متعددة متداخلة ترافقها مدركات خاطئة استقرت في أذهان الناس عبر القرون الماضية، هذا بجانب الغياب الفعلي والواقعي للاسلام ومبادئه من ساحة التطبيق السليم لمدة طويلة من الزمن وما صاحب هذه المدة من بث المفتريات وتفشي الممارسات المناهضة لمبادىء الاسلام في شتى ميادين الحياة تحت ستار الفتاوى الجائرة التي كان ينسجها فقهاء السلاطين من مخيلاتهم لتحقيق اهداف دنيوية للحصول على هبات اسيادهم والجلوس إلى فتات موائدهم وتولي مراكز قيادية في مجتمع شعاره المحاباة والمحسوبية وتحركه قوى المزاج والشهوة والانانية على حساب المبادئ الاسلامية الغراء التي تنادي بتطبيق القوانين العادلة بين الناس في شتى امورهم الحياتية.

فالتربية في المجتمع المسلم تعد الوسيلة المثلى في توضيح وارساء دعائم العقيدة والمثل والقيم في نفوس ابناء المجتمع وفق الإطار الفكري العام للنهج الاسلامي، وما يرافق ذلك من اعداد جميع ابناء المجتمع افراداً وجماعات لحشد شتى طاقاتهم التربوية والعلمية وفق قدراتهم الفردية والجماعية بما يتناسب مع معطيات العصر الحضارية الذي يعيشونه لتحقيق الاهداف الفردية والجماعية التي ينشدها افراد المجتمع المسلم وفق تعاليم الاسلام الغراء. فهذا النوع من التربية لن يكتب له النجاح أو التقدم إلا في مجتمع اسلامي يعيش مبادئ الاسلام اعتقاداً وسلوكاً في شتى جوانب الحياة ومظاهرها. فالذي يود ان يقحم نظاماً تربوياً اسلامياً في مجتمع لا يطبق تعاليم الاسلام في شتى اموره الحياتية مثله كالذي يود أن يجمع بين الاضداد التي لا يجمع بينها جامع، ويدل ذلك على الجهل الصارخ بخصائص الاسلام وطبيعته وماهية التربية ودورها في المجتمعات.

وفي ضوء هذا الفهم للتربية ودورها فلا يجوز بأية حال من الاحوال المقارنة بين التربية المبرمجة لتحقيق اهداف تربوية في المجتمع المسلم والتربية المبرمجة لتحقيق اهداف تربوية في المجتمعات المادية للتفاوت الكبير بين هذه المجتمعات

والمجتمع الاسلامي في الفهم الدقيق للحياة الدنيا وما يعكسه هذا الفهم من مفاهيم وتصورات في اذهان ابناء المجتمع تؤدي الى ولادة وصياغة اهدافهم الفردية والجماعية، هذا بجانب الإطار الفكري والاجتماعي العام للنهج الالهي وما يعكسه من انماط سلوكية وفكرية عند ابناء المجتمع المسلم. فالاهداف التربوية التي يسعى المجتمع المسلم لتحقيقها تتصل بدرجة عالية بالفهم الاسلامي الدقيق للحياة الدنيا وقدرها المحدد من الوجود بشكله العام. لذلك فان الاهداف التربوية لهذا المجتمع الرسالي لا تنحصر فقط في الحياة الدنيا وما يجري داخل إطارها كما يحدث في ضوء الاطر الفكرية الاخرى، بل تشمل طموحات وغايات ابناء المجتمع المتصلة بدار السلام والخلود التي وعد الله بها عباده المتقين. وانطلاقاً من التخطيط السليم في صياغة الاهداف التربوية العامة بطريقة علمية منطقية، لا بد من ان تكون المعادلة التي يتم من خلالها صياغة الاهداف المتعلقة بالحياة الدنيا تتفق مع قيمة هذه الحياة في ضوء الفهم الاسلامي السليم، وكذلك الحال بالنسبة للاهداف المتصلة باليوم الآخر. وطالما ان الفهم الاسلامي السديد للحياة الدنيا والآخرة يبين لنا بوضوح وجلاء ان الحياة الدنيا وما فيها من متاع وآمال تعد بمثابة دار الابتلاء والاختبار للفوز في اليوم الآخر، فان هذا الفهم الصائب الدقيق يجب ان ينعكس في مضمون الاهداف التربوية ونوعيتها للمجتمع المسلم، حيث تكون نهاية الاهداف وغاياتها تصب في تحقيق اهداف عامة سامية متصلة بالآخرة. اما بالنسبة للاهداف التربوية المتعلقة بالحياة الدنيا فيجب ان تكون جميعها بمثابة الاهداف القريبة الاجل التي تقودنا الى الاهداف السامقة التي توصلنا الى دار الخلود والسلام في جنات عدن التي اعدها الحق سبحانه وتعالى لعباده المخلصين.

ان الذين يريدون ان يقارنوا بين التربية في ضوء النهج الاسلامي وبين التربية في ظلال الأطر الفكرية الاخرى يجب عليهم ان ينطلقوا من معاقل الاختلاف الرئيسة ليصلوا الى سدرة الصواب في عملية المقارنة. إن الفرق الشاسع بين النهج الاسلامي والأطر الفكرية البشرية ينعكس تلقائياً وبصورة كاملة في مختلف الجوانب والاسس الاساسية للتربية. لذلك فان الذين يريدون تطبيق مبادئ وانظمة تربوية وما يتبعها من اهداف، ومناهج، واساليب، وطرق قياس وتقويم، وفلسفات تعليمية متبعة في الدول الغربية في مجتمع اسلامي، انما يريدون سلخ ابناء هذا المجتمع الاسلامي عن هويتهم الفكرية التي ينظرون من خلالها الى حقائق

الكون والوجود ليغدوا تبعاً للأطر الفكرية البشرية التي لا تتعدى مبادئها الحياة الدنيا وما جسد فيها من مفاتن وزخارف تشد الانسان بشهواته اليها. وبهذا يكونون كقوم موسى عندما طلبوا من نبيهم موسى عليه السلام ان يجعل لهم آلهة من المخلوقات المحسوسة وهو يدعوهم الى الانابة للواحد الأحد سبحانه وتعالى. نعم انهم يريدون ان يعبدوا عجلا أصم من دون الحق سبحانه وتعالى لأنهم لا ينطلقون إلا من قناعاتهم بالامور المحسوسة الملموسة فقط وما تعود عليهم هذه القناعات من اهداف مادية. ان مجاراتنا للغرب أو للشرق في ميدان العلوم والمعارف الحضارية لن تكون أبداً عن طريق تطبيق انظمتهم وقوانينهم ونظرياتهم الاجتماعية والتربوية في مجتمعاتنا كما يفهمه دعاة هذا التوجه، والسبب وراء ذلك يعود الى ان هذه الانظمة والقوانين والنظريات الاجتماعية والتربوية أسست وبنيت في ضوء نظرتهم للوجود بشكله العام والحياة الدنيا بشكلها الخاص، ودور الانسان وطبيعته في هذا الوجود. فاذا اردنا ان يكون مفهومنا الفكري للوجود كمفهومهم الذي يقتصر على الامور المادية فقط. فعندها يمكن ان تكون هذه الانظمة والقوانين والنظريات صالحة للتطبيق بين ظهرانينا. وفي تلك الحالة يكون الاستعمار والغزو الفكري الثقافي لنا قد حقق جميع مقاصده واهدافه.

اما اذا اردنا ان نحقق قفزات علمية تربوية باهرة تجعلنا نتقدم نحو الصفوف الاولى مع الامم والقوميات الاخرى، بل نكون افضلها على الاطلاق كما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته في صدر التاريخ. فيتوجب علينا ان نمارس جميع معتقداتنا الفكرية في مختلف جوانب الحياة ونأخذ جميع ما توصل اليه الغرب والشرق بما ينسجم مع نهجنا الاسلامي مع بذل الجهد الحثيث المتواصل لسد الفجوة العلمية بيننا وبينهم والتزاحم معهم على الاكتشافات والاختراعات العلمية المتعلقة بشتى شؤون الحياة. واننا سنجد عند تلك المرحلة ان القرآن الكريم سيكون بمثابة الموجه والمرشد العام لمسيرتنا العلمية لما يحتوي بين ثنايا آياته الشريفة من علوم دفينة.

لقد سبقنا الغرب في الاكتشافات المتصلة بعلم الأجنة على الرغم من مراحل تكوين الجنين موجودة في الآيات القرآنية الكريمة منذ مرحلة تنزيل القرآن على قلب محمد صلى الله عليه وسلم وكنا نتلوها ليلا نهاراً في مختلف الامصار وشتى بقاع الارض دون ان تثير فينا روح البحث العلمي والفضول المعرفي. وهناك الشيء

الكثير من العلوم والمعارف التي نمر عليها مروراً سريعاً دون الوقوف عندها والتأمل في ابعادها، والقيام بالبحوث العلمية حولها للوصول الى ابعادها وغاياتها. وهذا يعود بالطبع الى خصائص التاريخ الاسلامي وما صنعه المسلمون في العهود السابقة من امور كثيرة هي في حقيقتها مخالفة للاسلام وروحه وللقرآن الكريم وآياته وللسنة النبوية الطاهرة ومدلولاتها مما جعل التخبط واضحاً جلياً في المجتمعات الاسلامية عبر التاريخ بين الشعار الاسلامي المرفوع، والممارسات اليومية في شتى ميادين الحياة لمختلف فئات المجتمع. ولكي نصل الى جذور مشكلاتنا الرئيسية والتعرف الى الحلول المنهجية الاسلامية الصحيحة لها لا بد من الاشارة بصورة سريعة الى الامور والاحداث التي أدت الى ظهور الخلل والفساد في المجتمع الاسلامي وما أسس على هذه الاحداث من مدارس فكرية مذهبية زادت بشكل مباشر من إثارة الخلافات والفتن هذا بجانب الافتئات على الآيات القرآنية عن طريق اخراجها عن مداراتها السليمة لتسويغ انحرافات معينة من جانب، ومهاجمة المذاهب الاخرى من جانب آخر، وما صاحب ذلك من الدس والوضع في سيرة نبينا الطاهرة، واخراج الأحاديث النبوية عن معانيها النبيلة للوصول الى اهداف شهوية، حتى الف المسلون على مر الأيام اموراً في شتى امورهم الحياتية تخالف النهج الاسلامي المنير. فوجدوا انفسهم في وضع لا يحسدون عليه من التخلف، والتبعية، والانقسام، والفوضى الفكرية التي تعج وتموج في اذهانهم. ليشكلوا بذلك اسوأ نموذج انساني عن الاسلام الذي مسخ في اذهان غير المسلمين بسبب الانحرافات الحادة والتناقضات العجيبة، والشهوات المفرطة، والدكتاتورية المطلقة التي تفوح بنسائمها المجتمعات الاسلامية. هذا بجانب الاحداث المفجعة المخجلة التي تحدث بين الفينة والاخرى بين المسلمين، مثل القتل، والتعذيب، والتشريد، والظلم، والاستبداد، واطلاق الشهوات، واعطاء الولاية للغرب والشرق ضد الاسلام وأهله. ان جميع هذه الامور تحدث مع الاسف الشديد تحت شعار الاسلام المعتدل تارة والاسلام الحديث تارة أخرى. حتى أصبحنا نعيش في مجتمعات اسلامية لا تطبق شيئاً واحداً نقياً من القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة. ان الذي نراه اليوم من الجمود، والتخاذل، والوقوف مع المشركين، والانحراف الحاد عن تعليمات النهج الإلهي هو نتيجة الانحراف المتراكم عبر العصور الماضية في المجتمعات الاسلامية.

ان هذه المجتمعات التي انحرفت عن النهج الاسلامي في مختلف الجوانب

السياسية، والفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والقضائية، والتربوية. هي بحاجة الى هوية فكرية تسير في ضوئها ويتم الاحتكام اليها في شتى القضايا الحياتية. اما ان نبحث عن الحلول الاقتصادية او التربوية في مجتمع ليس له هوية سوى اشباع الشهوات بطريقة مفرطة عن طريق الظلم والاستبداد، والمحاباة، والازدواجية في اتخاذ القرارات. اننا بهذا العمل نظلم الاسلام الذي نبحث فيه عن حلول جزئية لمجتمعات تسودها الشهوة واللذة، والعداوة للاسلام. ان هذه العداوة سواء التي تحصل داخل المساجد واروقة المجتمع الاخرى حتى تصل الى اعلى مراتب الدولة في التعامل مع اعداء الاسلام ضد ابناء المجتمع المسلم تمثل العدو الاول لأي تجمع اسلامي يريد ان يشق طريقه بين صفوف المسلمين بهدف تنقية المفاهيم الاسلامية الهابطة التي استقرت في أذهان الناس عبر العصور السابقة والعودة بهم الى منابع النهج الاسلامي الحقيقية.

ان الذين يبحثون وراء نظرية تربوية اسلامية أو نظرية اقتصادية اسلامية أو نظرية اجتماعية اسلامية أو الى غيرها من النظريات. عليهم أولا أن يعوا الحقيقة التالية وهي ان الاسلام يمثل نظاماً حياتياً شاملا للانسان في مجتمع مسلم. وان هذه النظريات والافكار الاسلامية تمثل التكامل والتناسق بعضها مع بعض ولا يجوز عليها التجزئة لأنها جميعاً تنبثق من مصدر واحد أو تتفق معه وهو النهج الالهي المنير. لذلك لا بد من وجود المجتمع المسلم الذي يطبق النهج الاسلامي في مختلف جوانبه المتعددة اولا ثم يتم بعد ذلك البحث والتنقيب لايجاد الحلول لأي مشكلة قد تنشأ في المجتمع المسلم الفاضل. اما ان نقضي الوقت الطويل في البحث عن الحلول الاسلامية الجزئية لمجتمعات لا تطبق النهج الاسلامي في سائر امورها الحياتية. فهذا يمثل التخبط وعدم وضوح الرؤية بجانب تضييع الوقت الذي أمرنا باستخدامه بما يرضي الله سبحانه وتعالى.

ان رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم وصحبه الابرار استطاعوا بالفكر الاسلامي ان يكونوا خير امة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وذلك يعود الى مسيرتهم الصادقة السليمة في ضوء الاسلام. ففي الوقت الذي كانوا فيه يرسون دعائم الاسلام في الارض، كانوا يطلبون تحقيق اهدافهم الدنيوية بشتى الوسائل المعروفة لديهم في ذلك الزمن بما ينسجم مع الفكر الاسلامي. وقد ظهر ذلك في مختلف امورهم المدنية والعسكرية والاجتماعية

بصورة منقطعة النظير في الانسجام بين طلبات الدنيا واهداف الآخرة، وما رافقه من فهم سديد للفكر الاسلامي وما يعكسه هذا الفكر على الامور المتعلقة بالحياة الدنيا والامور المتعلقة بالآخرة. وقد مضت الصورة المشرقة في المجتمع الاسلامي بمجملها العام حتى مقتل سيدنا عثمان وما سبقها من بعض الاحداث المؤسفة التي أدت الى ظهور الخلافات الحادة في المجتمع المسلم، وقد وصف لنا الامام علي كرم الله وجهه حالة المسلمين عندما انثالوا عليه ليقبل منهم البيعة عليه السلام.

«دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول. وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت. واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ الى قول القائل وعتب العاتب. وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم. وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً»(١).

واضح من قوله عليه السلام ان المجتمع المسلم مقبل على عدة سبل بعدما كان هذا المجتمع الرسالي جاثماً على الطريق المستقيم. ولكن لابتعاد قسم من الناس عن هذا الطريق القويم مع استخدام الوسائل المتعددة للالتفاف على الحقائق الناصعة، جعل هذا الطريق نكراً لبعض الناس في المجتمع الاسلامي إما جهلا به واما قصداً لتلبية أهواء ومقاصد ذاتية. وقد أدى هذا الوضع الفوضوي للمجتمع المسلم الى ولادة عدة مدارس مذهبية زادت من مظاهر الانقسام والخلافات. وكلما تقدم الزمن بالمجتمع المسلم أدى ذلك الى نشوء مدارس مذهبية متعددة تنخر المجتمع الاسلامي وتفت عضده سواء على المستوى الفكري العام، ام المستوى التربوي والاجتماعي. ومضت الامور بين مد وجزر من حيث القوة العسكرية للمجتمع المسلم حتى هزمت الامبراطورية العثمانية امام الحلفاء وتم تقسيم المجتمع الاسلامي الى عدة مجتمعات اقليمية وقومية مع ارساء دعائم الخلافات والبغضاء وتثبيتها بين تلك المجتمعات، هذا بجانب بث الافكار القومية والاقليمية بين اوساطها لإثارة الفتن والاحداث الدائمة والمستمرة داخل المجتمع الاسلامي. كل هذه المؤامرات والاحداث تجري في المجتمع الاسلامي المقسم في الوقت الذي يسعى فيه الغرب والشرق للوصول الى ذروة المجد في التقدم العلمي والتكنولوجي والحضاري. اما المجتمعات الاسلامية المفتتة فما زال الخلاف يستشري في شرايينها الرئيسة حول الشعارات الفكرية

١- نهج البلاغة، الجزء الأول، صفحة ١٨١ - ١٨٢.

المرفوعة.

وبعد هذا الغياب الطويل للاسلام ومبادئه عن التطبيق الشامل لجميع افكاره وقيمه داخل المجتمع الاسلامي وما يعكسه هذا التطبيق على التربية واسسها داخل المجتمع الاسلامي، لا بد لنا من التعرف إلى التربية ومبادئها الهامة في ضوء النهج الاسلامي معتمدين بذلك على القرآن الكريم وسنة نبينا الامين بجانب ما توصل اليه الانسان من معلومات ومعارف تربوية تنسجم مع الاطار الفكري العام للمجتمع الاسلامي.

ان اهم الفروقات التي تميز المجتمع الاسلامي عن غيره من المجتمعات ان المجتمع الاسلامي تسري بين جنباته وداخل مؤسساته أنماطاً تربوية مميزة وشجت وأسست على مفاهيم خاصة للانسان والكون الفيزيقي والميتافيزيقي، والفهم الدقيق الساطع للحياة الدنيا شكلت هذه المفاهيم الحقيقية انماطاً سلوكية خاصة يتميز بها افراد المجتمع الاسلامي عن غيرهم من البشر. فالقرآن الحكيم وسنة نبينا الكريم يمثلان المصدر الوحيد للتربية العامة في المجتمع الاسلامي وكل ما يتصل بهذه التربية من اهداف عامة، ومناهج أسست على علم شامل ودقيق غير قابلة للشك والفساد، والتجديد، لانها صالحة لكل زمان ومكان، وللبشر كافة بمختلف الوانهم وجنسياتهم. هذا بجانب نظام القياس والتقويم الفريد الذي يحتوي عليه الدين الاسلامي. ان جميع هذه الحلقات الاساسية التي تكون العملية التربوية العامة في المجتمع المسلم هي ثابتة، وشاملة، وصالحة لكل زمان ومكان، ولجميع انواع البشر على اختلاف اجناسهم والوانهم. وأما الجانب التعليمي المتصل بهذه العملية التربوية فهو العنصر المتغير في العملية التربوية ليناسب الانسان عبر تاريخه وتقدمه الحضاري وما توصل اليه من معلومات ومعارف عن طريق جهده المتواصل في البحث والتنقيب عن كافة الامور المحيطة به في وقتنا الحاضر وما سيصل اليه في المستقبل من معلومات ومعارف، ووسائل تعليمية.

ان العملية التعليمية في المجتمع الاسلامي تحتاج الى انشاء مؤسسات علمية تربوية لتولي المهام العلمية التربوية في اعداد وتعليم ابناء المجتمع المسلم بما ينسجم مع الاطار الفكري العام للمجتمع لكي يكون العلم في خدمة المجتمع وابنائه، وتكون التربية في حلقاتها الثلاث: الاسرة، والمجتمع، والمؤسسة العلمية، تسير جميعها وفق إطار فكري واحد بعيداً عن التناقض والازدواجية، ويكون بعضها

مكملا للآخر دون ظهور أي تعارض. إن المشكلة الاساسية التي تنخر المجتمعات الاسلامية جاءت من التناقض الموجود بين الشعار الاسلامي المرفوع وبين الانماط الاجتماعية والسلوكية الممارسة في تلك المجتمعات، والافكار التربوية المناهضة للاسلام وتعليماته التي تعج بها المؤسسات التربوية، والتربية الاسرية المغايرة في أغلب الظروف للانماط الاجتماعية السائدة في المجتمع والبرامج التربوية المطبقة في المؤسسات العلمية. لذلك فان المؤسسات العلمية التربوية في المجتمع الاسلامي يجب ان تكون هويتها الفكرية اسلامية، وجميع ما يجري في اروقتها من ابحاث علمية سواء أكانت في الجوانب الانسانية أم في الجوانب العلمية التطبيقية تسير وفق الفكر الاسلامي. وما يرافق تلك البحوث العلمية من ممارسات، وانماط سلوكية، واساليب ادارية يجب ان تنسجم مع روح الاسلام وجوهره.

ان التعليم في ضوء التربية الاسلامية للمجتمع المسلم يعتمد على مبادىء اساسية سامية وهي:-

١- الاعتقاد التام بجميع ما جاء في القرآن الكريم وما ثبت من سنة نبينا الكريم مع وضع جميع ما جاء فيهما حيز التطبيق في مختلف شؤون الحياة ومتطلباتها بما ينسجم مع المراحل التي يمر بها المجتمع الاسلامي.

٢- التعامل مع الذات الانسانية وحدة واحدة دون التركيز على جانب دون آخر.

٣- العقل الانساني مقيد ذو قوة متناهية فلا يجوز اقحامه في الامور التي لا يقوى عليها، هذا بجانب استخدامه الى اقصى الغايات في الامور التي تقع ضمن قدراته وطوق وسائله.

٤- الايمان بالغيب كما جاء من عند الله سبحانه وتعالى دون محاولة التحذلق في مكنوناته لان علمه خارج عن قدرات الانسان، وخص الحق سبحانه وتعالى علم الغيب بذاته.

٥- تكافؤ الفرص امام افراد المجتمع المسلم في شتى الامور المتعلقة بالعملية التربوية وعلى امتداد مراحلها.

٦- يقوم كل فرد من افراد المجتمع ببذل قصاري جهده حسب ما وهبه الحق سبحانه وتعالى من قدرات وطاقات خاصة به لتحقيق الاهداف الفردية والجماعية للعملية

التربوية بما ينسجم مع تعليمات الدين الاسلامي.

٧- الاعتماد على مبدأ الشورى في اتخاذ القرارات في مختلف الامور التربوية التي لم يرد فيها نص قرآني حكيم، أو حديث نبوي شريف.

٨- المشرف الاول على اعمال الفرد المتعددة وفي جميع الجوانب والمراحل تقوى الله الذي استقر في قلب الفرد المؤمن انعكاساً لاعتقاده السليم بالذات الإلهية وما يدور حولها من قضايا وجودية متصلة بالكون الفيزيقي والميتافيزيقي.

٩- استخدام مختلف النظريات والاساليب المتبعة في المناهج الدراسية، واساليب التعليم، والقياس والتقويم بما ينسجم مع النهج الالهي وتعليماته.

١٠- العلم واجب على كل مسلم قادر على القيام به ويجب على الدولة الاسلامية بذل جميع الجهود لتوفير المؤسسات العلمية لكافة ابناء المجتمع وتسهيل ذلك حسب ظروف الدولة وامكاناتها.

١١- تعليم الافراد وتفجير طاقاتهم الكامنة حسب قدراتهم الذاتية التي وهبها الحق سبحانه وتعالى بقدر للافراد.

١٢- تلبية ميول ورغبات الافراد في انتقاء المجالات التخصصية التي يريدونها.

١٣- إثارة الدوافع وتشكيل الحوافز عند ابناء المجتمع على طلب العلم دون اللجوء الى اجبارهم او توجيه العقوبة لهم لأن الاندفاع نحو العلم يجب ان يكون ذاتياً ينبع من داخل الفرد.

١٤- التعامل مع مختلف الافراد الانسانيين داخل المؤسسات التربوية وخارجها في ضوء نظرة الاسلام للانسان وما تفيده البحوث الانسانية التي تجرى على الافراد المسلمين في مجتمع مسلم يطبق جميع تعليمات الاسلام في شتى امور الحياة.

١٥- يطلب العلم النافع الذي يعود بالخير على الانسان في ضوء النهج الاسلامي للخير والشر.

١٦- يتم التركيز على انواع العلوم والمعارف التي تساعد بقدر اكبر على تحقيق الاهداف التربوية العامة للمجتمع المسلم.

أهداف التربية

تسعى التربية في المجتمع الاسلامي الى تحقيق الاهداف التربوية التالية:

١- تمكين الانسان من تحقيق الغاية الوجودية التي خلق من اجلها وهي عبادة الله سبحانه وتعالى والفوز برضاه.

٢- تأهيل الانسان وفق المعتقدات الفكرية، والانماط السلوكية، والقوانين والانظمة الانسانية في شتى امور الحياة ليفوز في الامتحان الشامل الذي أقره الحق سبحانه وتعالى على الانسان في الحياة الدنيا.

٣- تقود الانسان وتوجهه نحو مصدر الخير والهدى سواء في وجوده المؤقت في الحياة الدنيا أم في وجوده الخالد في اليوم الآخر.

٤- تساعد الانسان وتقوي من شكيمته في مقاومة عدوه اللدود ابليس والتخلص من احابيله وتسويلاته.

٥- تساعد الانسان على إرساء قواعد العدل وتثبيت دعائم المساواة بين الناس في مختلف قضاياهم الحياتية.

٦- تساعد الانسان في الوصول الى أعلى منزلة بين سائر المخلوقات.

٧- تحرير العقل الانساني من ضغوط الشهوات والمحافظة على مكانته القيادية في ذات الانسان.

٨- تحرير العقل الانساني من مختلف الخرافات والاساطير التي تدور حول الكون الميتافيزيقي والكون الفيزيقي.

٩- تساعد الانسان على التركيز على جانب الخير في ذاته والابتعاد عن جانب الشر وما يعكسه من اعتقادات فاسدة وانماط سلوكية هابطة تؤدي الى اثارة الفحشاء والبغضاء والعداوة بين الانسان وأخيه.

١٠- تسعى إلى بث التعاون والإخاء بين الناس ونبذ شتى الافكار والاساليب التي تؤدي الى الاستكبار، والاستعلاء، والتفوق العرقي.

١١- تعميق جذور الايمان ورفع مستوى التقوى في نفوس التلاميذ لتكوين واعداد الانسان الصالح.

١٢- تنمية روح الجهاد والتضحية بالنفس من أجل المبادئ السامية التي ينادى بها النهج الالهي.

١٣- تأهيل أفراد المجتمع بمختلف العلوم والمعارف التي تساهم في تحقيق اهداف

المجتمع المسلم بما يتفق مع النهج الالهي وما ينسجم مع التطور الحضاري الانساني عبر العصور والقرون.

١٤- اعداد افراد المجتمع بشكل علمي تربوي سليم يسمح لهم بدرء الشبهات عن الاسلام ومجتمعه، والمساهمة الفاعلة في عملية الغزو الفكري والصراع الايدولوجي على المستوى العالمي في شتى المجالات والمحافل العلمية والسياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والرياضية.

١٥- اعداد الدعاة وتأهيلهم بمختلف العلوم والمعارف التي تسمح لهم بتوصيل رسالة الحق سبحانه وتعالى للانسان وتوضيح معالم الحق والهدى للناس كافة بما ينسجم مع تعليمات النهج الإلهي وما يتفق مع المفاهيم العلمية الحديثة والاساليب الحضارية المتقدمة التي يشهدها العصر الحديث.

وخلاصة القول ان التربية تختلف من مجتمع الى آخر حسب الاطار الفكري او الفلسفي العام للمجتمع الذي تطبق فيه التربية. وينعكس الاختلاف على المبادئ التربوية العامة والاهداف العامة للتربية، مما يؤدي تلقائياً الى الاختلافات في المناهج الدراسية، والاساليب التربوية، والانماط السلوكية داخل المؤسسات العلمية وخارجها.

المراجع العربية

١- ابراهيم الشافعي، الاشتراكية العربية كفلسفة للتربية. القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٧١.

٢- اسحاق الفرحان، التربية الاسلامية بين الاصالة والمعاصرة، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٣.

٣- الشيخ الركابي، خطاب الحرية في النظام الايبسيتمولوجي، دار النهضة الاسلامي، بيروت، ١٩٩٠.

٤- جراتان كلنتون، البحث عن المعرفة، ترجمة عثمان نويه، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٢.

٥- جورج ف. نيلو، مقدمة الى فلسفة التربية (ترجمة نظمي لوقا)، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٧.

٦- حسن ابراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٥.

٧- سعيد اسماعيل علي، الفكر التربوي العربي الحديث، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٧.

٨- صادق سمعان، الفلسفة والتربية، محاولة لتحديد ميدان فلسفة التربية، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٢.

٩- صلاح العرب عبد الجواد، اتجاهات جديدة في التربية الصناعية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢.

١٠- عباس محجوب، اصول الفكر التربوي في الاسلام، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٧.

١١- عبد الحميد احمد ابو سليمان، ازمة العقل المسلم، مكتبة المنار، الزرقاء، الاردن، ١٩٩٢.

١٢- عبد الله دخيل الفياض، تاريخ التربية عند الامامية، الدار المتحدة للنشر، العراق، الطبعة الثانية، ١٩٨٣.

١٣- علي خليل ابو العينين، فلسفة التربية الاسلامية في القرآن الكريم، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

١٤- فينكس هـ، فلسفة التربية، ترجمة محمد لبيب، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥.

١٥- محمد الجمالي، آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية.

١٦- محمد حسين فضل الله، اسلوب الدعوة في القرآن، دار الزهراء، بيروت، ١٩٨٢.

١٧- محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٩.

١٨- النجار، فلسفة التعليم في دولة عصرية، مجلة الفكر المعاصر، العدد ٧٢، ١٩٧١.

١٩- نهج البلاغة، الجزء الاول، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

المراجع الأجنبية

1_ Butler, J. Donald. Four philosophies and their practice in Education and Religion , 3 ded. Harper and Row, New york, 1969.

2_ Freeman , Physical Education in achanging society , Houghton mifflin Company. U.S.A. 1977.

3_ Van Cleve Morris , Existentialism in Education : what it Means, Harper and Row, New york , 1966.

الفصل الثامن

الأبعاد الفكرية والفلسفية للإدارة

الأبعاد الفكرية والفلسفية للإدارة

هدفت الدراسة الى توضيح الأبعاد الفكرية والفلسفية للإدارة وكيف انعكست على أهداف الإدارة وأنماطها الادارية. وقد اشار الباحث الى اغلب النظريات الادارية والاساليب الادارية المتعددة التي ابتدعها الانسان لتحقيق اهدافه وطموحاته، كذلك بين الباحث مبادئ الادارة واسلوبها في ضوء الفكر الاسلامي. وقد تبين ان هناك فروقات واضحة بين النظريات الادارية وانماطها الادارية التي ابتكرها الانسان وبين المباديء الادارية واسلوبها الاداري في ضوء الفكر الاسلامي حول فهم طبيعة الانسان واهدافه في هذا الوجود، وكيفية التعامل معه.

الأبعاد الفكرية والفلسفية للادارة

مقدمة:

يعود تاريخ الادارة الى فجر تاريخ الانسان حين مارس الادارة على ابناء جنسه على امتداد الحقب التاريخية. لقد مارسها وهو في العصور الحجرية عندما كانت التجمعات البشرية قليلة العدد ومحدودة الغايات والاهداف. وقد رافقت الادارة الانسان في تقدمه الحضاري، وكانت من الاسباب المباشرة في هذا التقدم الحضاري للانسان حتى يومنا هذا. وسوف تبقى الادارة تلعب الدور البارز في تقدم الانسان نحو تحقيق اهدافه وغاياته.

تعد الادارة من الضروريات الاولى للانسان إذ يستطيع الانسان من خلالها وعن طريقها الوصول الى غاياته واهدافه المنشودة وفق دائرة معلوماته عن نفسه، وعلاقة الانسان مع أخيه الانسان، وعلاقة الانسان بالوجود، ومكانته في العالم، وفهم الانسان للحياة الدنيا، وما تعكسه هذه المعلومات عن تلك القضايا الحساسة على تصرف الانسان في الظروف المختلفة. لذلك تعددت الانماط الادارية ومفاهيمها بسبب تعدد مفاهيم الانسان ومنطلقاته حول القضايا السابقة. فإذا عطفنا بنظرنا الى صفحات التاريخ الانسانية فإننا نجد التفاوت الكبير في السلوك الاداري عند الانسان، حيث نجد النمط الاداري الفرعوني، كما نجد شريعة حمورابي وطريقته في الادارة، كما نلاحظ المفاهيم العشائرية، والقبلية للادارة، هذا بجانب رؤية المفاهيم المنظمة للادارة في نظام الامبراطوريات السابقة. ويضاف الى هذه الانماط الادارية الطريقة الرسالية في الادارة التي كان يتحلى بها انبياء الله ورسله عليهم صلوات الله وسلامه جميعاً.

الإنسان والإدارة:

يعد الانسان العامل الاول والأخير بالنسبة للادارة. ولولا الانسان وغاياته واهدافه لما عرفت الادارة وما تم اكتشافها. ولكن الانسان تعامل مع الادارة على اساس انها السبيل الوحيدة الذي يوصله الى ما تشرئب له النفوس والى ما ترنو له الطموحات والآمال. فالانسان يعد مخلوقاً غائياً خلقه الباري عز وجل بهذه الصورة البديعة والقدرات المتميزة. فهو يسعى باستمرار الى تحقيق غاياته، كما انه لا يقوم بأي عمل إلا من اجل غاية معينة. لذلك فإن المحرك الاول بالنسبة للانسان هي غاياته

التي يسعى الى تحقيقها. وقد تختلف بعض هذه الغايات عن بعض. فمنها ما يستطيع الانسان الفرد ان يحققها عن طريق جهوده الفردية، ومنها ما يريد العون والمساعدة من اناس آخرين ليقوى على تحقيقها. لذلك توجه الانسان بكل ما أعطي من قوة الى الادارة منذ فجر تاريخه. وسوف يبقى هذا الرباط القوي، والاعتماد المباشر من الانسان على الادارة لتحقيق غاياته واهدافه حتى نهاية الحياة الدنيا.

اننا في الوقت الذي نقر ونعترف فيه بأن الانسان كائن غائي في جميع تصرفاته وأفعاله، فإننا نعترف في الوقت نفسه ايضاً بأن الغايات الانسانية يختلف بعضها عن بعض. كما ان غايات الانسان الواحد تختلف من ظرف الى آخر. فهذا الاختلاف في الغايات عند الانسان أدى الى تجذير الخلافات بين الناس، كما أدى الى اختلاف الانسان حول مفهوم الادارة وماهيتها. إن السبب الرئيسي في اختلاف غايات الانسان يعود الى مفاهيم الانسان المتباينة حول أهم القضايا التي تشكل المعتقدات، والغايات، والطموحات، والآمال عند الانسان. لقد اختلف الانسان مع أخيه الانسان حول حقيقة النفس الانسانية، وطبيعة النفس الانسانية، ومكانة الانسان في الكون، والانسان والخلود، وعلاقة الانسان مع الجماعة، ومصادر المعرفة عند الانسان، وحقيقة الذات الالهية، وحقيقة البعث والحساب، وحقيقة الحياة الدنيا. ان غايات الانسان واهدافه تتشكل وفق مفهومه للقضايا أو الموضوعات السابقة، فيسعى الى تحقيق هذه الاهداف والغايات تحت المظلة الفكرية التي كونها عن تلك الموضوعات، لذلك اختلفت المفاهيم الادارية وأنماطها عند الانسان لاختلاف المظلة الفكرية التي انبثقت عنها غايات الانسان وأهدافه.

هدف الدراسة:

تهدف الدراسة الى توضيح أساسية هامة مفادها أن الادارة بشتى أنواعها وعلى اختلاف مستوياتها تختلف بعضها عن بعض باختلاف المدرسة الفكرية التي يعيش في ظلالها افراد مجتمع معين عن مجتمع آخر.

اسلوب الدراسة:

سوف نكتفي بعرض موجز لأهم النظريات الادارية التي ابتكرها الانسان وهو يسعى الى تطوير النظم الادارية، وتوضيح الابعاد الفكرية لهذه النظريات لنرى نوعية الفكر الذي تنطلق منه هذه النظريات. ثم نعرض بعضاً من الانماط

الادارية مع الاشارة الى منطلقاتها الفكرية. وبهذا نكون قد بينا الادارة ومنطلقاتها الفكرية في ضوء الفكر الانساني. ثم نبين الابعاد الفكرية للادارة في ضوء النهج الالهي مع توضيح النمط الاداري في الاسلام.

الادارة في ضوء الفكر الانساني:

لقد حاول الانسان عبر تاريخه المديد ان يعي عدة امور هامة تؤثر بشكل قوي على معتقداته وانماطه السلوكية اتجاه الآخرين، فقد حاول الوصول الى حقيقة وجوده على هذا الكوكب، كما حاول التوصل الى كنهه وحقائق القضايا الفيزيقية والميتافيزيقية التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة على تشكيل أفكاره ومعتقداته. فقد اعتمد الانسان في بحثه ودراسته لتلك القضايا على اسلوبين اساسيين. أما الاسلوب الاول فيمثل الانسان الذي اعتمد على قدراته فقط دون الاستعانة بما جاء من عند الخالق عز وجل هدى ورحمة للعالمين. وأما الاسلوب الثاني فيمثل الانسان الذي اعتمد على النهج الالهي بالاضافة الى قدراته الذاتية في الوصول الى الحقائق المتصلة بالقضايا سواء التي لها علاقة بعالم الغيب أم بعالم الشهادة. لذلك ظهر الخلاف الحاد بين الناس الذين اتبعوا الاسلوب الاول حول أبرز وأهم القضايا التي تهم الانسان مما ادى الى اختلاف اعتقاداتهم، وانماطهم السلوكية، وغاياتهم الوجودية. كما ظهر خلاف جوهري بين الذين اتبعوا النهج الالهي وبين الذين اتبعوا الاسلوب الاول، مما ادى الى ظهور الاختلافات الحادة بين الانسان وأخيه حول أبرز القضايا وأهمها. ان جميع هذه الاختلافات كان لها الأثر المباشر القوي على تشكيل غايات الانسان وأهدافه في هذا الوجود. ففي الوقت الذي يعتقد فيه اتباع الاسلوب الاول ان جميع الآمال، والطموحات، والغايات تبدأ وتنتهي داخل أطر الحياة الدنيا، فإن اتباع الاسلوب الثاني يعتقدون ان الحياة الدنيا وما جسد فيها من آمال، وطموحات، وغايات تعد اختباراً وامتحاناً للانسان يؤهله الى الخلود في دار الأمن والسلام في اليوم الآخر.

إن الذين نظروا الى الحياة الدنيا على أساس انها مبلغ اهتماماتهم ونهاية طموحاتهم انعكس ذلك الاعتقاد على المفهوم الاداري في سعيهم نحو تحقيق غاياتهم واهدافهم في هذا الوجود. لذلك نجدهم يفهمون كل شيء منطلقين من قاعدة الحياة الدنيا فقط، وما يسعى اليه الانسان داخل هذه الحدود. فعلى هذا الاساس نجد ان علم الادارة بجيمع موضوعاته الاساسية والفرعية لا يتعدى تحقيق الأهداف السياسية،

والاقتصادية، والفكرية، والاجتماعية المتصلة جميعها في الحياة الدنيا فقط.

إن موضوع القيادة يعد من أقدم الموضوعات التي لازمت الانسان منذ فجر تاريخه، وقد سعى الانسان لاختيار القائد الذي يتصف بالقوة البدنية والمادية. وفي بعض الاحيان توفر احداهما كافياً لاختيار رجل العشيرة أو القبيلة، أو رجل القبائل ليسعى بالتالي الى تحقيق الاهداف المادية المتعددة لجميع الناس المرتبطين به إدارياً. اننا سوف نغض النظر عن تاريخ الانسان الاداري القديم ونركز في هذه الدراسة على النظريات الادارية واساليبها التي تعد من نتاج الانسان في العصر الحديث لنرى المنطلقات الفكرية لها والاهداف التي ينشدها الانسان من خلالها.

منذ الوقت الذي أخذت فيه الثورة الصناعية في اوروبا تشق طريقها بدأ التفكير حول الادارة وموضوعاتها يأخذ الصورة الجدية والابداعية عند الانسان. فقد ظهرت المدرسة الادارية الكلاسيكية والتي تضم عدة نظريات في الادارة، اهمها: نظرية الادارة العلمية، والنظرية البيروقراطية، ونظرية المبادئ الادارية. ان جميع هذه النظريات تنظر الى الانسان من منطلق فكري واحد، وهو ان الانسان كائن اقتصادي يمكن ضبطه واثارته نحو العمل والانتاج الفعال عن طريق التعامل معه بسياسة رفع الاجور أو خفضها.

إن الجوانب الضعيفة للمدرسة الكلاسيكية كما وضحها الدكتور مهدي حسن وزميله في كتابهما «مبادىء الادارة نظريات ووظائف» تكمن في الامور التالية:

١- لقد عكس دعاة هذه النظرية فهماً محدوداً لطبيعة الانسان. فقد رأوا فيه كائناً جامداً كالآلة اذ يجب اعادة قولبته بشكل يتناسب والعمل المطلوب منه(١).

٢- ان بعض المبادىء التي جاءت بها هذه المدرسة لم تكن قائمة على التجربة ولم تكن عالمية التطبيق. بل انها تتناقض مع بعضها البعض كما هو الأمر بالنسبة لمبدأ وحدة الأمر ومبدأ التنسيق(٢).

1- James G. March and Herbert A. Simon, Organizations (New york : John Wiley and Sons, Inc, 1958) P29.

٢- د. مهدي حسن، د. محمد قاسم، مبادي الادارة نظريات ووظائف، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، الاردن، ١٩٨٤، ص٣٨.

لقد جاءت المدرسة السلوكية كرد فعل على المدرسة الكلاسيكية بتفرعاتها متهمة اياها بأنها أهملت العنصر الانساني ولم توليه الأهمية اللازمة. ورغم أنه يؤرخ لبداية حركة العلاقات الانسانية بالعشرينات والثلاثينات من هذا القرن، فإن بدايتها كانت اثر الحرب العالمية الاولى مباشرة التي اثارت اهتماماً بالعلاقات الانسانية (١).

لقد احتوت المدرسة السلوكية على عدة مدارس ونظريات، ابرزها مدرسة العلاقات الانسانية، ومدرسة تنمية التنظيمات، ونظرية X ونظرية Y، ونظرية سلم الحاجات، ونظرية العوامل الوقائية والعوامل الدافعية، ونظرية النموذج المختلط، ونظرية الشبكة الادارية، ونظرية اللامركزية.

لقد جاءت المدرسة السلوكية بتفرعاتها المختلفة لتعوض عن نقص في صحة افتراضات سابقتها المدرسة الكلاسيكية. وفي محاولة عمل ذلك فقد اتخذت تماماً الصورة المغايرة فركزت على الانسان وحاجاته المختلفة. إذ افترضت ان الانسان كائن عاطفي، وانه مجموعة من المشاعر والعواطف والانفعالات يجب فهمها والعمل على ارضائها. وقد استمرت هذه المدرسة في الضرب على هذا الوتر الى درجة لم تفرق معها بين كون الوظيفة عملا رسمياً يقوم به الموظف لقاء أجر وبالتالي عليه ان يقدم تنازلات، وانها ليست مكاناً وجد من أجل اسعاد العامل على حساب الأهداف التنظيمية. لذلك فانصار هذه المدرسة يخلطون بين دور الانسان كموظف أو عامل وبين دوره الآخر كانسان له محيطه الشخصي وبالتالي فقد خلطوا بين حاجات الانسان العليا مثل تحقيق الذات، وافترضوا ان المكان الطبيعي لتحقيقها هو التنظيم ولا مكان غيره وهو أمر مشكوك في صحته» (٢).

لقد كان للعيوب التي تجسدت في المدرسة الكلاسيكية ونظرياتها وفي المدرسة السلوكية ونظرياتها أثر مباشر في بروز اتجاهات حديثة نحو الادارة تمثلت في مدرسة النظم والنظرية الموقفية والادارة بالاهداف.

لقد ركزت مدرسة النظم في الادارة على نظرية النظام العام «ويعرف النظام بشكل عام، بانه الكيان المنظم والمركب الذي يجمع ويربط بين اشياء واجزاء تؤلف

1- Keith Davis, Human Behavior at work . 4th Ed. San Francisco: Mc Graw-Hill Book Company . 1972. P8.

٢ - مصدر سابق، مبادىء الادارة نظريات ووظائف، ص٦٥.

في مجموعها تركيباً كلياً موحداً»(١).

إن المكونات الاساسية التي تميز النظام المفتوح هي: المدخلات (In puts)، والانشطة (Activities)، والمخرجات (Out puts).

ان الاتجاه الجديد الذي انطلقت منه النظرية الموقفية «Contingency Theory» يؤكد على تعدد المواقف الادارية والتغيرات التنظيمية المتعددة والعلاقات المتشابكة مع بعضها البعض من جهة ومع البيئة الداخلية والخارجية من جهة اخرى وتودي الى عدم التسليم بنمط اداري واحد يصلح لكافة الظروف والمناسبات. وكذلك الامر فليس هناك هيكل تنظيمي يمكن ان يحتذى به كنموذج في كافة المؤسسات الادارية. وذلك يعود الى اختلافات في شخصية القائد، والتابعين، وطبيعة المهمة، والمدة الزمنية والبيئة المحيطة.

اما بالنسبة الى الادارة بالاهداف «Management by objectives» فهي نظرية بسيطة تقوم على فرضيات بديهية تعتمد على الادارة المشتركة، اي اشراك جميع العاملين ما أمكن في وضع القرارت وتحديد الاهداف والنتائج المتوقعة في العمل سوية وبالتعاون، ومن ثم تحقيق تلك الأهداف»(٢).

كما عرفت الادارة بالاهداف بأنها وضع اهداف التنظيم أو جزء منه كأساس لتحقيق كفاءة أكثر، ولتهيئة دوافع وحوافز للمديرين، الى جانب ذلك تشخيص العوامل التي تعوق التنفيذ دون تحقيق الاهداف بغية التغلب عليها. ومراجعة النتائج دورياً، ووضع اهداف جديدة ان استدعت الضرورة»(٣).

تمثل مدرسة النظم والنظرية الموقفية والادارة بالاهداف مداخل مختلفة للتحليل التنظيمي، إذ أن هذه المدارس توفر أساساً جديداً لفهم ديناميكية التنظيمات الادارية والمتغيرات التي تؤثر عليها. فهي تقر بأنه على الرغم من قيمة النظريات الكلاسيكية والسلوكية فإنها لا تفسر كافة جوانب التنظيم. ذلك ان النظريات الكلاسيكية لا تأخذ المتغيرات البيئية الخارجية بعين الاعتبار اذ ينحسر تصورها

1- Richard A. Johnson, The Theory and Management of System N. Y.:Mc Graw-Hill Inc, 1973. P31.

٢- عثمان خيري، الادارة بالاهداف، القاهرة، المنظمة العربية للعلوم الادارية، منشور رقم ١٧٣ سنة ١٩٧٥، ص ١٦.

٣- محمد علي حلاوي، مصطلحات ادارية مختارة، بغداد: مطبعة العاني ١٩٧٦، ص٧٤.

للبيئة بما يحصل داخل التنظيم وحسب. وهذا ما تحاول مدرسة النظم ان تضيف اليه ابعاداً جديدة بتعريفها الأوسع لمعنى التنظيم. وكذلك فان النظريات الكلاسيكية والسلوكية تشنجت في مناداتها بأن هناك طريقة تنظيمية افضل في كل الظروف... ان الاتجاهات الادارية السابقة لم تأخذ بعين الاعتبار صعوبة تحديد النمط الاداري الافضل بمعزل عن الظروف المحيطة. وهذا ما أكدت عليه النظرية الموقفية التي رأى انصارها ان طبيعة الموقف والظروف في وقت ما، والتكنولوجية، والانسانية هي التي تحدد النمط الاداري الافضل. فالاسلوب الاداري المناسب في ظروف معينة هو غير ذلك في ظروف مختلفة»(١).

ولكي نجتلي حقائق النظريات الادارية والمنطلقات الفكرية التي اعتمدتها في فهمها للانسان، فلا مندوحة لنا من ان نعرض بعضاً منها، ونرى معاً كيف حاول الانسان ان يفهم أخاه الانسان من أجل ضبطه وتسخيره لزيادة الانتاج والكسب المادي.

نظرية الادارة العلمية (Scientific Management)

يعد العالم الامريكي فردريك تيلر المفكر الرئيسي في تطوير انتاج المؤسسات عن طريق الادارة العلمية للمؤسسات وانه اعتمد فكرته الادارية في ضوء الافتراضات التالية(٢):

١ – ان من طبيعة الافراد ان لا يبذلوا قصارى جهدهم في العمل.
٢ – يجب ان يتقاضى العمال من الاجور كل حسب عطائه وانتاجه.
٣ – ان السبب في قلة الانتاج يعود الى الضعف الاداري وليس من العمال.
٤ – ان من مسؤولية الادارة ان تعين الافراد حسب كفاياتهم ومناسبتهم للعمل وطبيعته.
٥ – تدريب العمال على أحدث الوسائل والطرق التي تزيد من الانتاج.
٦ – ازالة الخطأ الشائع من أذهان العمال ومفاده عدم انجاز العمل بسرعة لغرس صورة طيبة في ذهن المسؤول عن العامل الذي يتأنى بانجاز عمله.

١ – مصدر سابق، مبادىء الادارة نظريات ووظائف، ص ٩٦.

2- Frederik W. Taylor, Scientific Management : New york, Harper and Row,1911.

نظرية X ونظرية Y (Douglas Mc Gregor)

تعد هاتان النظريتان من انتاج العالم الامريكي دوقلاس مقريقر حيث انطلق من فهمه الخاص لطبيعة الانسان ليقرر بعض الافتراضات التي تكون نظرية X، وافتراضات أخرى حول طبيعة الانسان تكون القاعدة الاساسية لنظرية Y (١).

افتراضات نظرية X:

١ – ان الانسان بصورة عامة لا يحب العمل.

٢ – يحاول الانسان باستمرار تجنب العمل بقدر استطاعته لذلك.

٣ – طالما الانسان يكره العمل فيجب ضبطه وتخويفه بانزال العقوبة من اجل اجباره على بذل الجهد لتحقيق اهداف المؤسسة.

٤ – الانسان العادي بصورة عامة يفضل الابتعاد عن المسؤولية. لذلك يجب ان يوجه لتأدية عمله.

افتراضات نظرية Y:

١ – ان بذل الجهد الفكري والجسمي للانسان يعد حاجة طبيعية مثل حاجته الى اللعب والراحة.

٢ – ان عملية الضبط والتهديد ليست هي العملية المثلى لتوجيه وحشد جهود الافراد لتحقيق اهداف المؤسسة ولكن يستطيع الافراد ان يتعهدوا بادارة وضبط انفسهم من اجل حشد الجهود المتاحة لتحقيق اهداف المؤسسة.

٣ – ان تعهد الافراد بتحقيق الاهداف يمكن ربطه بمنح الجوائز في حال تحقيق تلك الاهداف المرسومة.

٤ – ان الانسان العادي بصورة عامة تحت الظروف الجيدة يرغب في تولي المسؤولية.

٥ – توفر امكانية وقدرة الافراد بنسبة عالية في التفكير لوضع الحلول لمشكلات المؤسسة والمشاركة في حلها.

٦ – تحت الظروف الصناعية الحديثة يمكن الاستفادة من الامكانات والكفايات العقلية للافراد، إذ ان هذه القدرات ما زالت كامنه في النفوس.

1- Douglas Mc Gregor, The Human side of Enterprise: New york, Mc Graw-Hill, 1960.

نظرية الحاجات الانسانية : (Abraham H, Maslow)

يقترن اسم هذه النظرية باسم العالم الامريكي ابراهام ماسلو الذي اعتمد في وضع هذه النظرية على ثلاثة افتراضات هي :(١)

١ - الانسان عبارة عن كائن حي ذي رغبات وحاجات حيث ان الرغبة أو الحاجة غير المشبعة تؤثر في سلوك الفرد إلى أن يتم اشباعها.

٢ - ان حاجات الانسان ورغباته قد تختلف حسب اهميتها فمنها ما هو اساسي مثل الطعام ومنها ما هو ثانوي مثل احترام الذات والاعتبار من قبل الآخرين.

٣ - ينتقل اهتمام الانسان من الحاجة المهمة الى الحاجة الأقل اهمية في حالة اشباع تلك الحاجة المهمة.

تحتوي هذه النظرية على خمسة عناصر اساسية يمثل كل عنصر فيها نوعاً معيناً من الحاجات الانسانية وقد رتبت حسب اهميتها وهي :

أ - الحاجات الجسمية (طعام ، شراب، ملجأ) (Physiological Needs)

ب - حاجة الامان والابتعاد عن الخوف (Safty and Security)

جـ - الولاء الاجتماعي (Social and Belonging)

د - احترام النفس والاعتبار من الآخرين (Status and Esteem)

هـ - تحقيق الذات (Self_ Actualization)

نظرية هيرزبرج (Herzberg)

ترتكز هذه النظرية على عنصرين اساسيين، فالعنصر الاول يحتوي على ثمانية بنود تدور حول نوعية العمل وظروفه. وتوفر هذه العناصر قد يؤدي الى الرضى الوظيفي عند العاملين، ولكن ليس من الضروري ان تؤدي الى اثارة الحوافز في نفوس العاملين نحو العمل وهذه البنود هي :(٢)

١ - ضمان استمرارية العمل.

1- Abraham H, maslow, Motivation and personality: New york, Harper and Row, 1954.

2- Herzberg, B. Mausner, and Snyderman , The Motivation to work : 2nd ed. Mew york: John wiley 1959.

٢ – المرتب الشهري.
٣ – الجو المحيط بالعمل.
٤ – المكانة الاجتماعية الجيدة بين العاملين.
٥ – سياسة المؤسسة.
٦ – الكفاية الفنية للمشرفين على العمل.
٧ – نوعية العلاقات الاجتماعية بين العاملين، المشرفين، الفنيين.
٨ – مقدار الربح الاضافي أو العلاوات.

أما بالنسبة الى العنصر الثاني من النظرية فيحتوي على ستة بنود يؤدي توفرها الى اثارة الحوافز لدى العاملين في المؤسسة للمضي قدماً نحو تحقيق اهداف المؤسسة. وهذه البنود هي:

١ – مقدار التحصيل او الانجاز في العمل.
٢ – اعتبار الجهد المبذول وتقديره للفرد من قبل المسؤولين.
٣ – نوعية العمل ومدى مناسبته للفرد.
٤ – مسؤولية الفرد داخل المؤسسة.
٥ – النمو الوظيفي (نظام الترفيع).
٦ – النمو والتطور الشخصي للفرد.

نظرية ERG

تعد هذه النظرية من أهم الاعمال التي قام بها العالم الامريكي (Alderfer) من أجل وضع أسس ومفاهيم معينة للانطلاق نحو إثارة الحوافز لدى العاملين داخل المؤسسة بهدف زيادة الانتاج. وقد ارتكزت النظرية على معرفة الحاجات الانسانية داخل حدود المؤسسة. وتتكون هذه النظرية من ثلاثة عناصر رئيسة هي:(١)

١ – حاجات الوجود (Existence Need)، الجوع، العطش، الملجأ، ظروف العمل المحيطة، الربح.
٢ – الحاجات الاجتماعية (Relatedness Needs) نوعية العلاقات بين افراد المؤسسة.

1- Clayton P.Alderfer: Existence Relatedness and Growth: New york: Free press, 1972.

٣- حاجات النمو (Growth Needs) التقدم الوظيفي في المؤسسة.

نظرية المساواة Equity Theory

يعود ظهور هذه النظرية الى جهود العالم الامريكي آدمز (Adams). وتعتمد هذه النظرية على فكرة واحدة مفادها وجود التناقض بين الجهود المبذولة من قبل الفرد داخل المؤسسة ومقدار المكافأة التي يحصل عليها الفرد سواء أكانت مادية أم معنوية. فاذا ما شعر الفرد ان جهوده المبذولة تفوق قيمة المكافأة فإنه يسعى الى تقليل جهده المبذول. وكلما زاد التناقض زاد التقليل من الجهد(١).

أن النظريات الادارية السالفة الذكر تشكل بعضاً من الجهود التي قام بها الانسان بهدف تحقيق المكاسب المادية للمؤسسات عن طريق فهم طبيعة الانسان ودوافعه نحو العمل. لذلك اقتصرت دراسة الانسان على الجوانب المادية الخالصة. كيف لا؟ وهذه الجوانب المادية هي التي كانت وراء دراسة الانسان لأخية الانسان بهذه الصورة المبتورة التي جعلت من الانسان كائناً يستجيب فقط للمؤثرات المادية.

وعلى هذا الاساس المادي للانسان، ذهب الانسان الى التوسع في دراسة أخيه الانسان لاثارته نحو العمل تارة، واثارته نحو التعلم تارة اخرى، فإذا ما أمعنا النظر في نظريات التعلم فإننا نجدها تنطلق من المنطلق المادي للانسان. فهذا التصور المادي للانسان ودوره المادي في الوجود ينبثق أصلا من المدارس الفكرية المادية التي ترى ان الانسان تكمن تطلعاته واهدافه، وغاياته، ومستقبله في الحياة الدنيا فقط. فلا يوجد شيء ينتظر الانسان بعد خروجه من الحياة الدنيا. لذلك اسقطت جميع الحقائق الوجودية المتصلة بالعالم الميتافيزيقي والتي لها علاقة قوية ومباشرة في حاضر الانسان ومستقبله.

وعلى الطريق نفسه سلك الانسان في فهم أخيه الانسان وهو يسعى الى التوصل الى افضل الانماط والاساليب الادارية. وسوف نعرض نماذج منها لنرى معاً المنطلق الايدولوجي والفكري لها.

1- Stacy Adams, Toward an Understanding of Inequity: Journal of Abnormal and Social psychology, November, 1963, pp 422.

١ - الاسلوب العلمي في الادارة

Scientific Management Movement

يعتبر فردريك تيلر (Frederick W. Taylor ـ 1856 ـ 1915) اول من ادخل هذا الاسلوب الاداري للمؤسسات في الولايات المتحدة بشكله المنظم، بالرغم من ان الافكار الرئيسية لهذا النهج الاداري عبارة عن تجمع افكار لعبض المفكرين الانجليز، والفرنسيين، والامريكيين، ولكن دور تيلر البارز يرجع الى ترتيب هذه الافكار بصورة منسقة ومنظمة مما سهل عملية قبول هذا الاسلوب في المؤسسات الامريكية.

اعتمد هذا الاسلوب على الفكرة التالية: وهي ان فعالية الانتاج تعتمد على اختيار العامل المناسب للعمل المناط به، لذلك يجب تطوير هذا العامل للمستوى الذي يمكنه من انجاز عمله بكفاية عالية وذلك بما يتناسب مع قدراته الفردية.

لذلك اهتم هذا الاسلوب الاداري بالتكنولوجيا الحديثة وجميع الوسائل والطرق التي يتم من خلالها جمع المعلومات العلمية الدقيقة التي تؤدي الى تحسين وتطوير سبل العمل وطرائقه بهدف زيادة الانتاج. ويمكن القول ان هذا النهج الاداري يهدف الى ضبط المتغيرات المتعددة التي تؤثر على سير وانجاز العمل داخل المؤسسة لتحقيق اهداف المؤسسة دون الالتفات الى حاجات واهداف الافراد الفردية.

ويعتبر تيلر ان الثورة الفكرية التي سادت المؤسسات الصناعية في الولايات المتحدة في هذا القرن هي بمثابة الانعكاسات الجوهرية لهذا النهج الاداري الجديد.

وهناك عدة خبراء من مختلف الجنسيات ساهموا بقدر كبير في نشر هذا الاسلوب الاداري. في الوقت الذي كان فيه تيلر ينشر هذا الاسلوب في الولايات المتحدة، فإن هنري فايول (Henri Fayol, 1841 ـ 1925) ساهم في نشره في فرنسا. في الوقت الذي ركز فيه تيلر على الطبقة الدنيا في المؤسسة، فإن فايول ركز على الطبقة العليا في المؤسسة إذ اعتمد في نشر فكره الاداري على اساسيتين هما:

١ - ان الاساسيات العامة في الادارة يمكن تطبيقها في المهام الادارية لجميع المؤسسات المختلفة.

٢- ان المعلومات الادارية التي يجب تعريف المسؤولين بها تنبثق من النظرية الادارية لتلك المؤسسة.

كما ان هناك عدة خبراء ساهموا بشكل فاعل في نشر هذا النهج نذكر منهم كارل بارث (١٨٦٠- ١٩٣٩)، هنري كانت (١٨٦١- ١٩١٩)، وفرانك قلبرت (١٨٦٨- ١٩٢٤).

لقد طور تيلر الواجبات الادارية للمسؤول العام عن المؤسسة على ضوء هذا النهج عند تطبيق هذا الاسلوب الجديد لتشمل الآتي:

١- ملاحظة وجمع شتى المعلومات المتعلقة بالافراد داخل المؤسسة، والاقسام المختلفة، والمؤسسات المشابهة، والظروف المحيطة والداخلية للمؤسسة بشتى انواعها المادية، والبشرية، والفنية.

٢- تغيير المهام الوظيفية القديمة لكل موظف بما يتلاءم مع قدراته الفردية بناء على اسس علمية مدروسة.

٣- اختيار وتدريب العاملين بشكل علمي سليم.

٤- التعاون المستمر بين القيادة والعاملين للتأكد بأن العمل يجري بأفضل وأنجع الطرق العلمية.

٥- تقسيم وتوزيع المسؤوليات والاعمال بين الافراد بصورة علمية تنسجم مع القدرات الفردية لكل فرد.

٦- اتباع خطة تعزيز وحفز تعتمد على زيادة الانتاج للفرد.

٧- تنظيم وترتيب المعدات والاجهزة بصورة تسهل عملية الاستخدام من قبل العاملين دون حدوث تداخل واضطراب في سير العمل.

وهناك عدة ايجابيات يمكن الاستفادة منها في حالة تطبيق هذا النهج الاداري وهي:

١- انتظام وارتباط الموظفين بمختلف مستوياتهم بالسياسات المرسومة للمؤسسة والعمل.

٢- التزام جميع العاملين داخل المؤسسة بقوانين العمل واجراءاته.

٣- سهولة عمل الاداريين او المسؤولين بشكل عام بعد تحديد وتنسيق المهام لكل دائرة، قسم، وفرد داخل المؤسسة.
٤- انجاز العمل في الوقت المحدد.
٥- يستخدم بصورة فعالة في حالة تعرض المؤسسة للافلاس او الفناء.

وعلى الرغم من هذه الايجابيات الباسقة فإن هناك عدة سلبيات افرزها هذا النهج داخل المؤسسات التي تم تطبيق هذا النهج فيها وهي:

١- على ضوء هذا الاسلوب الاداري تقل امكانية التداخل والتفاعل الاجتماعي بين افراد المؤسسة طالما لا يسمح لبعضهم التدخل في اعمال بعضهم الآخر.
٢- طالما على ضوء هذا النهج يتم تحديد مكان ومجال العمل لكل فرد داخل المؤسسة بهدف تقليل الجهود أو الوقت الضائع لاستخدام تلك الجهود والاوقات لزيادة الانتاج، يسق في اذهان الافراد فكرة انهم يعاملون على اساس انهم معدات واجهزة بشرية ليس إلا.
٣- يقتصر نظام التعزيز والثواب على ضوء هذا الاسلوب على كمية الانتاج اليومي للفرد.
٤- ان عملية تحديد المهام والاعمال بصورة تامة للافراد يقلل من أو يحول دون ظهور الابداع والابتكار هذا بجانب الانعكاسات السلبية على نفوس العاملين التي تفرزها روتينية العمل.

وأخيراً يعد هذا الاسلوب الاداري من اكثر الاساليب الادارية التي انتشرت في مطلع هذا القرن وبالذات في الولايات المتحدة. ويعد هذا الاسلوب هو المحرك الاساسي لولادة اسلوب اداري جديد وهو الاسلوب الانساني.

٢ - الاسلوب الانساني Human Approach

بزغ الاسلوب الانساني في الادارة الى حيز الوجود بعد أن بدأت سلبيات الاسلوب العلمي في الادارة تلوح في الافق، إذ تبين لدى الاداريين ان هناك عدة سلبيات افرزها الاسلوب العلمي في نفوس الافراد داخل المؤسسات التي تم تطبيق الاسلوب العلمي للادارة فيها.

ومن اشهر الذين ساهموا في نشوء هذا الاسلوب الاداري الجديد اولفر شلدون (Oliver Sheldon)، شيستر بارنارد (Chester Barnard, 1886- 1961)، التون مايو (Elton Mayo, 1880-1949)، رويشلبرز برقر (Roethlisberger, 1898- 1974)، ودوغلاس مقريقر (Douglas Mc Gregor) الذي يعد من اشهر الذين ساهموا في ظهور هذا الاسلوب الاداري عن طريق انجازه العملي الرائع في النظريات الادارية وأخص بالذكر نظرية X ونظرية Y.

لذلك يمكن ان نعد الاسلوب الاداري الجديد قد ظهر الى حيز الوجود كرد فعل للاسلوب السائد في ذلك الوقت وهو الاسلوب العلمي في الادارة إذ كان جل اهتمام هذا الاسلوب هو التركيز على العمل دون الالتفات الى الافراد وداخل المؤسسة ومطالبهم المختلفة مما ادى الى امتعاض الافراد من هذا الاسلوب الاداري لما أفرزه من سلبيات مقيتة في نفوسهم.

لذلك فإن علماء الاجتماع الذين كان لهم الفضل في ولادة الاسلوب الانساني الجديد، عدوا ان القاعدة الفكرية العلمية السليمة التي يجب ان ترتكز عليها المؤسسة تنطلق من الاساسيات التالية:

١ - ان المؤسسة تعد نظاماً اجتماعياً اولا ومن ثم يمكن الالتفات الى الصفات الفسيولوجية والميكانيكية للافراد.
٢ - التركيز على الجو الاجتماعي داخل وخارج المؤسسة وكيفية تعامل الافراد اجتماعياً اثناء العمل.
٣ - تقوية وتعزيز الوشائج والولائج بين الافراد داخل المؤسسة.

ومن ابرز العوامل التي ساهمت في شيوع هذا الاسلوب الاداري الجديد ظهور نظرية X ونظرية Y حيث ساهمتا في دحض بعض الاساسيات التي بني عليها الاسلوب العلمي في الادارة وهي:

١ - بطلان صحة الاساسية الاولى التي بني عليها الاسلوب العلمي في الادارة وهي ان جميع الموظفين يحتاجون الى رقابة دائمة اثناء العمل.
٢ - عدم صحة ان الموظفين يمكن تشجيعهم وتعزيزهم نحو العمل بالامور المادية

فقط.

٣- عدم صحة النظرة الى الافراد على انهم كسالى نحو انجاز اعمالهم.

٤- هناك عدة امور يمكن ان تساهم بشكل بارز في إثارة الفرد لتحسين ورفع مستوى انتاجه مثل، التفاعل والتماسك الاجتماعي بين الافراد داخل المؤسسة، الاعتبار والاحترام من قبل الآخرين، النمو الوظيفي والاجتماعي داخل المؤسسة، والنجاح في العمل.

لذلك ركز الاسلوب الانساني في الادارة على عدة عناصر اساسية لتساعد الاداريين والمسؤولين على تنمية التعاون الاجتماعي والانساني بين الافراد داخل المؤسسة وهي:

١- تشجيع الافراد على المشاركة في اتخاذ القرارات الادارية.

٢- توزيع الاعمال والمهام على الافراد بما يتناسب مع قدراتهم ومؤهلاتهم حتى يشعر الفرد باستمرار انه امام تحد من قبل طبيعة ونوعية العمل.

٣- تحسين وتطوير وسائل وسبل الاتصال والتفاعل بين الادارة والموظفين.

فعلى ضوء هذا النهج الاداري يكون جل اهتمام الاداري على التفاعل الاجتماعي بين الافراد وتوسيع وتطوير الاطار الخلقي والانساني عندهم، هذا بجانب العمل على اتباع الطرق والاساليب الانسانية الموحدة مع جميع الافراد داخل المؤسسة.

ينطلق هذا الاسلوب من اساسية كبرى وهي اتاحة وتوفير الجو الاجتماعي والوظيفي الملائم للافراد إذ يفرز هذا الجو المريح والمناسب لكل فرد توجهاً ودافعاً داخلياً في نفوس الافراد نحو المؤسسة، وبالتالي فإنهم سوف يبذلون قصارى جهدهم من اجل الحفاظ على المؤسسة وتحقيق اهدافها. لأن الانسان بطبعه يحب ان يحافظ على استمرارية كل شيء يجلب له السعادة.

٣ - اسلوب الادارة بواسطة الاهداف

Management by Objectives (MBO)

يعتبر بيتر دركر (Peter Drucker) اول من تكلم عن هذا الاسلوب الاداري في عام ١٩٥٤ في كتابه الموسوم بـ «ممارسة الادارة». وقد أخذ هذا الاسلوب عدة اسماء منها: الادارة بواسطة النتائج (Management by results) والادارة عن

المؤسسة.

٢- قيام كل وحدة من وحدات المؤسسات بتخطيط وتنظيم العمل على ضوء الأهداف المناطة بها.

٣- تطوير وتوسيع أطر التفاعل والاتصال كما ونوعا بين الإدارة والموظفين حتى تصل في أغلب الأحيان إلى المستوى اليومي.

٤- مشاركة العمال أو الموظفين داخل المؤسسة في تحديد الأهداف الفردية المرجو تحقيقها.

٥- تحديد الأهداف بوضوح بكافة مستوياتها وصياغتها بطريقة تسهل عملية القياس والتقويم.

إن الدراسات الميدانية التي أجريت على عدد من المؤسسات التي استخدمت هذا الأسلوب الإداري مع تقارير بعض الخبراء الذين بلغ عددهم ٣٨ خبيرا، أفادت بأن فوائد جمة يمكن تحقيقها عن طريق استخدام هذا الأسلوب في المؤسسات وهي:

١- صياغة الأهداف بدقة متناهية.
٢- ربط أهداف الأفراد داخل المؤسسة بالأهداف العامة للمؤسسة.
٣- سهولة عملية المراجعة للأهداف ومدى تحقيقها باستمرار.
٤- ربط الأهداف الجزئية للدوائر والأقسام بالأهداف العامة للمؤسسة.
٥- زيادة وتوسيع أطر التفاعل والإتصال بين المدير والموظفين.
٦- تطوير كفاية المدير الإدارية من حيث التخطيط، التنسيق، التفاعل الإجتماعي، والتقويم.
٧- تشجيع المدراء والأفراد داخل المؤسسة على القيام بواجباتهم والمهام المطلوبة منهم على خير ما يرام.
٨- سهولة ترتيب الأعمال حسب الأولوية.
٩- سهولة التدقيق والبحث عن جذور وبواعث الضعف والخلل داخل المؤسسة.
١٠- سهولة وضع وصياغة خطة العمل لكل وحدة من وحدات المؤسسة.
١١- سهولة ربط عملية التقويم بالإنجاز الفردي للموظف أو العامل.
١٢- صياغة وتحديد الأهداف بطريقة تسهل عملية القياس والتقويم.

المؤسسة.

٢- قيام كل وحدة من وحدات المؤسسات بتخطيط وتنظيم العمل على ضوء الأهداف المناطة بها.

٣- تطوير وتوسيع أطر التفاعل والاتصال كما ونوعا بين الإدارة والموظفين حتى تصل في أغلب الأحيان إلى المستوى اليومي.

٤- مشاركة العمال أو الموظفين داخل المؤسسة في تحديد الأهداف الفردية المرجو تحقيقها.

٥- تحديد الأهداف بوضوح بكافة مستوياتها وصياغتها تسهل عملية القياس والتقويم.

إن الدراسات الميدانية التي أجريت على عدد من المؤسسات التي استخدمت هذا الأسلوب الإداري مع تقارير بعض الخبراء الذين بلغ عددهم ٣٨ خبيرا، أفادت بأن فوائد جمة يمكن تحقيقها عن طريق استخدام هذا الأسلوب في المؤسسات وهي:

١- صياغة الأهداف بدقة متناهية.
٢- ربط أهداف الأفراد داخل المؤسسة بالأهداف العامة للمؤسسة.
٣- سهولة عملية المراجعة للأهداف ومدى تحقيقها باستمرار.
٤- ربط الأهداف الجزئية للدوائر والأقسام بالأهداف العامة للمؤسسة.
٥- زيادة وتوسيع أطر التفاعل والإتصال بين المدير والموظفين.
٦- تطوير كفاية المدير الإدارية من حيث التخطيط، التنسيق، التفاعل الإجتماعي، والتقويم.
٧- تشجيع المدراء والأفراد داخل المؤسسة على القيام بواجباتهم والمهام المطلوبة منهم على خير ما يرام.
٨- سهولة ترتيب الأعمال حسب الأولوية.
٩- سهولة التدقيق والبحث عن جذور وبواعث الضعف والخلل داخل المؤسسة.
١٠- سهولة وضع وصياغة خطة العمل لكل وحدة من وحدات المؤسسة.
١١- سهولة ربط عملية التقويم بالإنجاز الفردي للموظف أو العامل.
١٢- صياغة وتحديد الأهداف بطريقة تسهل عملية القياس والتقويم.

١٣ – المرونة في إحداث التغيير عند الضرورة.
١٤ – تحديد مواعيد وتاريخ الإنتهاء من تحقيق بعض الأهداف أو الأعمال المعينة.

إن لكل نهج اداري صفاته الإيجابية التي تعد بمثابة الوجه الباسق المنير لهذا النهج لما يعكسه من تمكين المؤسسة التي تعتمده في تحقيق أهدافها ورغباتها. كما أن هناك بعض السلبيات التي تكتنف النهج الإداري المتبع داخل المؤسسة إذ تؤدي هذه السلبيات في أغلب الظروف إلى الحد أو التقليل من مستوى النجاح أو الإنجاز المرتقب للمؤسسة. وقد تؤدي هذه السلبيات في بعض الحالات إلى فشل المؤسسة في تحقيق أهدافها. وبعد أن فرغنا من الحديث عن الصفات الإيجابية لهذا الاسلوب الاداري، فلا بد من ان نعطف بنظرنا الى النقاط السلبية التي يمكن ان تطفو على السطح في حالة تطبيق هذا النهج الإداري. ومن أبرز الصفات السلبية ما يلي:

١ – تحتاج عملية التخطيط، والتنظيم، وتوضيح الأهداف وخطط العمل للأفراد إلى وقت طويل.

٢ – الحاجة الماسة إلى الأعمال المكتبية بشكل واسع لكتابة التقارير عن سير العمل وتوقع الإنتاج لمختلف الجهات المعنية داخل المؤسسة.

٣ – تجاهل وإهمال الأهداف التي يصعب قياسها والتي تتعلق عادة بالأمور الإجتماعية والنفسية.

٤ – يستخدم فقط في المؤسسات التي يكون فيها تأهيل الموظفين بدرجة جيدة.

٥ – عدم مناسبة هذا النهج الإداري لأغلبية الإداريين وذلك بسبب مشاركة الموظفين أو المستخدمين بصياغة الأهداف.

٤ – أسلوب تخطيط البرامج وتحديد ميزانيتها. pp bs

٥ – الأسلوب الدكتاتوري في الإدارة.

٦ – الأسلوب الديمقراطي في الإدارة.

إن جميع هذه الأساليب التي اتبعها الإنسان في الإدارة تدل على الفهم الجزئي للإنسان في هذا الوجود، إذ أن الإنسان حاول أن يفهم نفسه وأخاه الإنسان من خلال الجانب المادي فقط والمرتبط فحسب في الحياة الدنيا وما جسد فيها من أهداف وغايات إنسانية. فذهب لنسج حضارته الإدارية وفق المنطلق الفكري للإنسان

ومكانته في الوجود. لذلك نستطيع القول أن الفلسفات المادية والمذاهب الفكرية المادية عكست نفسها في النظريات الإدارية وأساليبها. لذلك كان التركيز منصبا على الكسب المادي، وزيادة الإنتاج داخل أطر المفاهيم الإنسانية للحياة الدنيا فقط.

وجدير بالذكر أن نشير إلى أساسية هامة وهي أن النظريات الإدارية وأساليبها انطلقت أيضا من موضوع فكري فلسفي وهو علاقة الفرد بالجماعة. فالفلسفة المثالية، والفلسفة الواقعية، والفلسفة الشيوعية تنادي بتقديم أهداف الجماعة على أهداف الفرد. بينما ترى الفلسفة الطبيعية، والفلسفة الوجودية تقديم مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة، بينما ترى الفلسفة البراجماتية أن العلاقة بين الفرد والجماعة يجب أن تكون تبادلية.

الإدارة في ضوء الفكر الإسلامي

يعد الحديث عن الإدارة في الإسلام من أصعب الموضوعات على الإطلاق على أي كاتب يود أن يتناول هذا الموضوع بدرجة عالية من الموضوعية، لما له من آثار واسعة النطاق على المذاهب والمدارس الإسلامية المتعددة التي تنظر إلى هذا الموضوع من منطلقات متفاوتة، مما أدى إلى فهم النصوص القرآنية، وتأويلها بطرق متعددة لتنسجم مع الهدف المنشود الذي تسعى اليه كل طائفة. هذا بجانب سياسة الدس والوضع في السنة النبوية المطهرة من جهة، والتكلف الزائد في التأويل من جهة أخرى. ويشهد التاريخ بأحداثه المؤلمة التي وقعت على كاهل المسلمين في شتى البقاع والأمصار، سواء أكان ذلك في أم القرى، أم في المدينة الفاضلة، أم في البصرة، أم في غيرها من المدن الإسلامية كيف استغل المسلمون موضوع الإدارة أو الإمارة في الإسلام من أجل تحقيق أهدافهم الدنيوية عن طريق سحق الطرف الآخر الذي لا يشاركهم الرأي. فإذا أمعنا النظر في الأحداث التاريخية السابقة نجد أن النفوس قتلت، والعيون سملت، وسياسة جز الرؤوس وقصف بيت الله الآمن وتدميره، واستباحة مدينة رسول الله بجيش يزيد، واستباحة حرمات آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق القتل والسبي، وقصف المدن الإسلامية وتدمير بيوتها على رؤوس المسلمين. إن جميع هذه الأحداث وقعت في الماضي سواء البعيد أو القريب، وما زالت تحدث في الأيام الحاضرة، وستبقى تحدث في الأيام القادمة ما لم يحل المسلمون الألغاز والشراك التي تم نسجها حول موضوع الإدارة في الإسلام. ان الصورة الحاضرة للمسلمين التي تدل على تمزقهم وتشرذمهم

وعداء بعضهم لبعض تدل بشكل ساطع على سوء فهم لهذا الموضوع الهام جدا. إن الحديث قد يطول عن المصائب والأحداث المفجعة التي حدثت للمسلمين وما زالت تحدث في هذه الأيام ولكننا روماً للاختصار نكتفي بالإشارة الموجزة التي أشرنا اليها في السطور السابقة.

إن المسلمين في هذه الأيام الذين تتداعى عليهم الأمم كتداعي الأكلة على قصعتها، تكمن مشكلتهم الأولى في الإبتعاد عن النظام الإداري الذي خطه لنا رب العزة في كتابه الحكيم. فإننا نجد أغلب المسلمين في هذه الأيام يتساءلون عن الحل للخروج من الهاوية التي وصلوا اليها عن طريق تغليب شهواتهم على حساب الإسلام وتعليماته المؤثلة. عندما تجابه هذه الأسئلة بأن الحل يكمن في اتباع نص واحد فقط في القرآن العربي الحكيم، نجدهم يتذرعون بأعذارهم الواهية التي تدل على انحرافهم عن جادة الصواب وإثارة الشكوك والأوهام التي وشجت عليها عروق الأولين، ليحرموا المسلمين فرصة الصعود من الهاوية التي وصلوا اليها بأيديهم عن طريق ابتعادهم عن الهدى الذي أرسله الحق سبحانه وتعالى هدى ورحمة وبشرى للعالمين. ولو خاطبنا مسلمي هذه الأيام بالنصوص القرآنية التالية وقلنا لهم أين موقفكم منها رحمكم الله، فما سيكون الجواب؟

قال تعالى:

«يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا أَطيعُوا اللهَ وأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولي الأَمرِ مِنكُم فَإن تَنازَعتُم في شَيءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسولِ إن كُنتُم تُؤمِنُونَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ ذلكَ خَيرٌ وأَحسَنُ تأويلاً* أَلَم تَرَ إلى الَّذينَ يَزعُمُونَ أنَّهُم آمَنوا بِما أُنزِلَ إِلَيكَ وَما أُنزِلَ مِن قَبلِكَ يُريدُونَ أن يَتَحاكَموا إلى الطّاغوتِ وَقَد أُمِرُوا أن يَكفُروا بِهِ وَيُريدُ الشَّيطانُ أن يُضِلَّهُم ضَلالاً بَعيداً* وإذا قيلَ لَهُم تَعالَوا إلى ما أَنزَلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ رَأَيتَ المُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً» (١)

أين المسلمون عن هذه النصوص القرآنية التي تقودهم من الهاوية إلى القمة؟ ألم توجد هذه النصوص في القرآن الذي بين أيديهم؟ هل فكر كل واحد منهم بأولي الأمر منهم، ومن هو ولي أمرهم الذي يجب أن يطاع وينفذ أحكام القرآن بينهم. هل فكر المسلمون ماذا سيؤول إليه حالهم لو أن لهم ولي أمر يتحدث باسمهم جميعا؟ هل فكر المسلمون أن يسيطروا على شهواتهم وأهوائهم ويتبعوا ما يأمرهم به كتاب اللـه،

---

١ - سورة النساء آية ٥٩-٦١.

فينتهوا بنواهيه. هل فكر المسلمون بالتناقض الكبير بين أقوالهم ومعتقداتهم وبين أفعالهم وأنماطهم السلوكية على شتى الصعد والاتجاهات؟ يبدو بوضوح أن المشكلة الأولى التي يعيشها المسلمون في هذه الأيام تكمن في عدم تطبيقهم لما يأمرهم به الحق سبحانه وتعالى، وعلى رأس هذه الأمور الموضوع الإداري المتمثل في أولي الأمر.

إن الإدارة في الإسلام لم تؤسس أطرها الأساسية على معلومات إنسانية محدودة ومتعارضة عن الإنسان، والكون، والحياة. بل أسست على معلومات دقيقة ثابتة وصلتنا عن طريق الأنبياء والرسل من عند الخالق سبحانه وتعالى. لقد شيد الإنسان مدارسه الفكرية والفلسفية، ونظرياته التربوية في مجالاتها المختلفة، ونظرياته الإجتماعية، والإقتصادية، والسياسية، والعسكرية وفق مفهومه الفطير للذات الإلهية والكون والحياة الدنيا وطبيعة الإنسان ومكانته في الكون وعلاقة الإنسان بالجماعة، وحقيقة النفس الإنسانية. والشيء المذهل الذي تشيب له الولدان أن نجد هذه النظريات المتعددة التي أسست في ضوء الفكر الإنساني تطبق وتمارس في المجتمعات التي تعد نفسها إسلامية على المسرح الدولي. وليت هذه النظريات تم تطبيقها تحت مظلة القانون الواحد الذي يطبق على الناس كافة كما يحدث في الدول المتقدمة، بل حتى هذه النظريات الإنسانية تم التعامل معها بطريقة مزاجية فوضوية.

في الوقت الذي شيدت فيه النظريات الإدارية في الفكر الإنساني على معلومات إنسانية فرضية حول القضايا التي تهم الإنسان، فإن الإدارة في ضوء الفكر الإسلامي شيدت في ضوء حقائق جاءت من عند الحق سبحانه وتعالى. وهذه الحقائق هي:

١- خلق الحق سبحانه وتعالى الإنسان ليقوم الإنسان بعبادة الله سبحانه وتعالى تشريعا وليس تكوينا.

قال تعالى:

«وَما خَلَقتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعبُدونِ* وما أُريدُ مِنهُم مِّن رِّزقٍ وَما أُرِيدُ أن يُطعِمُونِ» (١)

١- سورة الذاريات آية ٥٦-٥٧.

٢- فطر الحق سبحانه وتعالى الذات الانسانية على دين الحق والتوحيد تشريعا وليس تكوينا.

قال تعالى:

«فَأَقِم وَجهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطرَتَ اللهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيها لا تَبدِيلَ لِخَلقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمُونَ» (١)

٣- لقد اعطى الحق سبحانه وتعالى الانسان حرية الاختيار بين الخير المتمثل في اتباع النهج الالهي القويم وبين الشر المتمثل باتباع همزات الشياطين وتسويلاتهم للانسان لابعاده عن سبيل الخير ليشاركه نفس المصير في اليوم الآخر.

قال تعالى.

«لا إِكراهَ في الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكفُر بالطَّاغوتِ وَيُؤمِن باللهِ فَقَدِ استَمسَكَ بالعُروَةِ الوُثقَى لا انفِصامَ لَها واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (٢).

٤- لقد ركب الحق سبحانه وتعالى في النفس الانسانية جانبي الفجور والتقوى لكي يستطيع الانسان ان يمارس حرية الاختيار بين سبيل الخير وافعاله فيه وبين سبيل الشر وافعاله فيه بملء ارادته دون قيود خارجية على قراره.

قال تعالى:

«وَنَفسٍ وَما سَوَّاها* فَأَلهَمَها فُجُورَها وَتَقوَاها* قَد أَفلَحَ مَن زَكَّاها* وَقَد خَابَ مَن دَسَّاها» (٣)

٥- عدو الانسان اللدود في هذا الوجود الشيطان واجناده من الجن والانس إذ يريدون ابعاد الانسان عن سبيل الحق الذي وضحه الباري عز وجل للانسان عن طريق الرسل، وذلك عن طريق تزيين الشهوات للانسان.

قال تعالى:

«قالَ يا إِبلِيسُ مَالَكَ ألاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ* قَالَ لَم أَكُن لِّأَسجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقتَهُ مِن صَلصالٍ مِّن حَمَإٍ مَّسنُونٍ* قالَ فَاخرُج مِنها فإنَّكَ رَجِيمٌ* وإنَّ عَلَيكَ اللَّعنَةَ إِلى يَومِ الدِّينِ* قالَ رَبِّ فأَنظِرني إِلى يَومِ يُبعَثُونَ*

١- سورة الروم آية ٣٠.

٢- سورة البقرة، آية ٢٥٦.

٣- سورة الشمس، آية ٧-١٠.

«قالَ فإنَّكَ مِنَ المُنظَرِين* إلى يَومِ الوَقتِ المَعلُوم* قالَ رَبِّ بِما أغوَيتَني لأُزَيِّنَنَّ لَهُم في الأرضِ وَلأُغوِيَنَّهُم أجمَعِينَ* إلاَّ عِبادَكَ مِنهُمُ المُخلَصِينَ» (١).

٦- ان مكانة الانسان في الكون تكمن في اساسيتين هامتين، أولاهما ان الانسان خليفة الله في الارض، وهذا ما وضحه لنا الباري عز وجل في قوله عز من قائل:

«وإذ قالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إنّي جاعِلٌ في الأرضِ خَليفَةً قالوا أتَجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها وَيَسفِكُ الدِّماءَ وَنَحنُ نُسَبِّحُ بِحَمدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إنّي أعلَمُ ما لا تَعلَمونَ» (٢).

أما بالنسبة الى الاساسية الثانية فهي تكمن في وضع الانسان ومكانته في اليوم الآخر في ضوء ما قدمت يداه وهو يمارس مهمة الخلافة في الحياة الدنيا. فإذا كان من الذين اتبعوا نهج الحق سبحانه وتعالى فيكون مصيره في عليين وهي افضل مرتبة لمخلوق خلقه الحق سبحانه وتعالى. وأما إذا كان من الذين أدبروا عن نهج الحق القويم في الحياة الدنيا، فإن الموئل سيكون في الأذليين، وهو أدنى رتبة تعطى لمخلوق خلقه الحق سبحانه وتعالى.

٧- ان الحياة الدنيا بالنسبة للانسان تعد دار اختبار وامتحان ليؤول مصيره في اليوم الآخر وفق ما عمل فيها من اعمال خيرية او اعمال متصلة بجانب الشر. والذي لا يعي هذه الحقيقة يكون من الغافلين الذين استهوتهم الدنيا بزخارفها ومفاتنها ليغدو عبدا لها تنتهي وتبدأ آماله وطموحاته داخل إطارها المحدود.

قال تعالى:

«الَّذي خَلَقَ المَوتَ والحَياةَ لِيَبلُوَكُم أيُّكُم أحسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزيزُ الغَفورُ» (٣)

قال تعالى:

«إنَّا جَعَلنا ما على الأرضِ زِينَةً لَها لِنَبلُوَهُم أيُّهُم أحسَنُ عَمَلاً* وإنَّا لَجاعِلونَ ما عَلَيها صَعيداً جُرُزاً» (٤).

١- سورة الحجر، آية ٣٢-٤٠.

٢- سورة البقرة، آية ٣٠.

٣- سورة الملك، آية ٢.

٤- سورة الكهف، آية ٧-٨.

٨- ان علاقة الفرد بالجماعة لا ترتبط بمصلحة طرف على حساب الآخر. فلا يوجد اهتمام بأهداف الفرد ومصالحه على حساب الجماعة وأهدافها، ولا تقوم الجماعة على مصلحة الفرد وأهدافه، فالعلاقة بين الطرفين ينظمها الدستور الالهي، فالذي يخالف الدستور يعد مخالفاً سواء أكان فردا ام مجتمعا، هذا بجانب ان الاهداف الضرورية لأبناء المجتمع هي نفسها الاهداف التي تسعى الجماعة الى تحقيقها وفق تعليمات النهج الالهي. فعندما تخالف الجماعة شرع الحق سبحانه وتعالى فالمؤمن لا يوالي هذه الجماعة حتى ولو كان على رأسها أقرب المقربين اليه. أما في حالة مخالفة الفرد لشرع الله سبحانه وتعالى فيجب على الجماعة ان تقيم حدود الله عليه التي وضحها في كتابه العزيز.

قال تعالى:

«يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَتَّخذوا آباءَكُم وإخوانَكُم أولِياءَ إن استَحَبُّوا الكُفرَ على الإيمانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُم فأولئِكَ هُمُ الظّالِمونَ» (١)

قال تعالى:

«الزّانِيَةُ والزّاني فاجلِدوا كُلَّ واحِدٍ مِّنهُما مائَةَ جَلدَةٍ ولا تأخُذكُم بِهِما رأفَةٌ في دِينِ اللهِ إن كُنتُم تُؤمِنونَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ وليَشهَد عذابَهُما طائِفَةٌ مِّنَ المُؤمِنينَ» (٢).

٩- إقامة العدل بين الناس على اختلاف مذاهبهم، ومعتقداتهم، واجناسهم والوانهم وفق القضاء الاسلامي الذي بينه في كتابه الحكيم.

قال تعالى:

«إنَّ اللهَ يأمُرُكُم أن تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهلِها وإذا حَكَمتُم بَينَ النّاسِ أن تَحكُموا بالعَدلِ نِعِمّا يَعِظُكُم بِهِ إنَّ اللهَ كانَ سَميعاً بَصيراً» (٣).

١٠- لقد احاط الحق سبحانه وتعالى الذات الانسانية بقدسية هائلة إذ حرم قتلها الا بالحق. ومن يقترف قتل نفس بغير حق متعمدا فلن يقبل منه وسيكون من الخاسرين في اليوم الآخر.

١- سورة التوبة، آية ٢٣.

٢- سورة النور، آية ٢.

٣- سورة النساء، آية ٥٨.

قال تعالى:

«قُل تَعَالَوا أَتلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيكُم أَلاَّ تُشرِكُوا بِهِ شَيئاً وَبالوالِدَينِ إحساناً ولا تَقتُلوا أولادَكُم مِن إملاقٍ نَحنُ نَرزُقُكُم وإيّاهُم ولا تَقرَبوا الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وَما بَطَنَ ولا تَقتُلوا النَّفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بالحَقِّ ذلِكُم وَصّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَعقِلونَ» (١).

١١- هناك نوعان من الناس. فالنوع الاول لا يريد الا الاهداف والآمال والغايات المرتبطة فقط بالحياة الدنيا مبتعدين كل البعد عن الآخرة. اما النوع الثاني فانهم يطلبون الدنيا وما فيها من اهداف وطموحات وغايات في ضوء النهج الذي ارسله الحق سبحانه وتعالى ليفوزوا في امتحان الحياة الدنيا من اجل ارضاء الحق سبحانه وتعالى وتحقيق الفوز العظيم في اليوم الآخر في جنات النعيم التي اعدها الله سبحانه وتعالى لعباده المتقين.

قال تعالى:

«إنَّ الَّذينَ لا يَرجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بالحَياةِ الدُّنيا واطمَأَنُّوا بِها والَّذينَ هُم عَن آياتِنا غافِلونَ* أُولئِكَ مأواهُمُ النّارُ بِما كانُوا يَكسِبُونَ» (٢).

قال تعالى:

« وَمِنهُم مَن يَقُولُ رَبَّنا ءاتِنا في الدُّنيا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النّارِ» (٣).

١٢- ان قدرات الانسان متفاوته من فرد الى آخر ويطلب من كل فرد أن يقوم بالاعمال المناطة به حسب قدراته وطاقاته التي جسدها فيه الحق سبحانه وتعالى.

قال تعالى:

«لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفساً إلاَّ وُسعَها لَها ما كَسَبَت وَعَلَيها ما اكتَسَبَت رَبَّنا لا تُؤاخِذنا إن نَسِينا أو أخطَأنا رَبَّنا ولا تَحمِل عَلَينا إصراً كما حَمَلتَهُ على الَّذينَ مِن قَبلِنا رَبَّنا ولا تُحَمِّلنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ واعفُ عَنا واغفِر لَنا وارحَمنا أنتَ مَولانا فانصُرنا على القَومِ الكافِرينَ» (٤).

١- سورة الأنعام، آية ١٥١.

٢- سورة يونس، آية ٧-٨.

٣- سورة البقرة، آية ٢٠١.

٤- سورة البقرة، آية ٢٨٦.

١٣- ان كل انسان مسؤول عن جميع ما يصدر عنه من اعمال وافعال على المستويات كافة وفي جميع مجالات العمل في الحياة الدنيا. وسوف تحاسبه نفسه على ذلك يوم المثول امام الحق سبحانه وتعالى. لذلك فان الانسان المؤمن تكون عنده الرقابة داخلية أولا لأنه يعلم علم اليقين انه اذا استطاع ان يخدع الناس الآخرين فإنه لن يستطيع ان يغير اي شيء قد تم تسجيله في كتاب اعماله وافعاله.

قال تعالى:

«وَكُلَّ إنسانٍ أَلْزَمناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ وَنُخرِجُ لَهُ يَومَ القِيامَةِ كِتاباً يَلقاهُ مَنشوراً. إقرَأ كِتابَكَ كَفَى بِنَفسِكَ اليَومَ عَلَيكَ حَسِيباً» (١).

١٤- ان القسم الأكبر من الناس لا يحبون الحق ولا الحقيقة وقد يبذلون قصارى جهدهم لطمس الحق ومقاومة اتباعه اينما ثقفوا.

قال تعالى:

«وَلَقَد صَرَّفنا لِلنّاسِ في هٰذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أكثَرُ النّاسِ إلاّ كُفوراً» (٢).

كما ان هذا النوع من البشر يتميز بقدرة الجدل للالتفاف على الحقائق والتخلص منها والتآمر على طمسها.

قال تعالى:

«وَلَقَد صَرَّفنا في هٰذا القُرآنِ لِلنّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وكانَ الإنسانُ أكثَرَ شَيءٍ جَدَلاً» (٣).

١٥- ان طريق الصعود الى قمة القمم دون سائر الامم والاقوام الاخرى تكمن في الايمان بالله، والامر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فهذه السبيل تم توضيحها للإنسان وما سلكته امة من الامم الا وتربعت على قمة الأخلاق، والامجاد والفضائل.

---

١ - سورة الإسراء، آية ١٣-١٤.

٢ - سورة الإسراء، آية ٨٩.

٣ - سورة الكهف، آية ٥٤.

قال تعالى:

«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو ءامن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون» (١).

الاسلوب الاداري في ضوء الفكر الاسلامي

انطلاقا من الحقائق الثابتة التي اطلع الحق سبحانه وتعالى الانسان عليها عن طريق كتبه ورسله والتي اشرنا اليها في الصفحات السابقة فان الاسلوب الاداري في ضوء تلك الحقائق يختلف عن الاساليب التي اختارها الانسان في ضوء الفرضيات التي ابتدعها. وهذا الاختلاف يمتد الى اساسيتين هامتين. اولاهما الاختلاف حول الاهداف التـــي يسعى اليها كل أسلوب. ففي الوقت الذي تسعى فيه الأساليب الإدارية التي شيدت على فرضيات إنسانية إلى السيطرة على الانسان وإثارة حوافزه نحو الإنتاج لزيادة الكسب المادي، فان الاسلوب الاداري في ضوء الفكر الاسلامي يسعى الى تحقيق اهداف تتعلق بوجود الانسان ومستقبله في هذا الوجود حيث يتم التركيز على جوانب الخير في الانسان، وتوضيح معالم الحق له عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة، هذا بجانب إثارة جميع دوافع الحب والإيثار والتضحية والصدق والإخلاص والتعاون في ذات الإنسان لكي يطلب الدنيا وما فيها من اهداف وغايات لتقربه الى الفوز العظيم في اليوم الآخر. اضف الى ذلك الهدف النبيل الذي ينشده اتباع هذا الاسلوب الاداري وهو محاولة توضيح رسالة الحق سبحانه وتعالى الى عباده لكي يتساووا جميعا امام التشريع الإلهي دون تمييز على المستوى الدنيوي والفوز العظيم في اليوم الآخر. ان هذا الشعور النبيل الذي يحمله الانسان تجاه اخيه الانسان هو الذي يجب ان يسود بين الناس اذا ما ارادت البشرية ان تخرج من جحيم الدنيا الى نعيمها، ومن عذاب الآخرة الى نعيمها. ولكن هيهات ان يفهم الغافلون من الانس هذا الشعور الذي تكنه النفوس لهم. اما الاساسية الثانية فتبدو واضحة جلية في اختلاف القواعد الاساسية لكلا الاسلوبين.

ان الاسلوب الاداري في ضوء الفكر الاسلامي يتميز بعدة صفات مستمدة بشكل مباشر من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وهي على النحو التالي:

١ - اقامة دعائم العدل وممارسته في شتى المؤسسات والامور الحياتية وفق التشريـــع

---

١ - سورة آل عمران، آية ١١٠.

الالهي بين الناس كافة على اختلاف مذاهبهم، والوانهم، واجناسهم، وقومياتهم، وغاياتهم.

قال تعالى:

«إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا» (١).

وقد اشار صلوات الله عليه وسلامه الى هذه الاساسية بكل وضوح حيث قال: إنما أهلك من كان قبلكم انهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون الشريف، والذي نفس محمد بيده لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (٢).

٢- تقديم رسالة الحق الى الناس عن طريق الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي احسن لإقناعهم في التركيز على الخير في انفسهم اولا وفي الوجود ثانيا مبتعدين كل البعد عن جانب الشر سواء في نفوسهم أم في الحياة الدنيا.

قال تعالى:

«أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» (٣).

٣- اللين ورقة التعامل مع الآخرين والابتعاد عن الغلظة والقسوة في شتى انواع التعامل الاجتماعي سواء أكان داخل المؤسسات أم خارجها.

قال تعالى:

«فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين» (٤)

قال تعالى:

«واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين» (٥).

١- سورة النساء، آية ٥٨.

٢- البخاري، كتاب الحدود.

٣- النحل، آية ١٢٥.

٤- سورة آل عمران، آية ١٥٩.

٥- سورة الشعراء، آية ٢١٥.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«بحسب امرىء من الشر ان يحقر أخاه المسلم»(١)

٤- الرقابة الذاتية في انجاز العمل واتقانه عند العاملين كافة سواء أكانوا في موضع القيادة أم في منزلة التبعية انطلاقا من فهمهم الدقيق لقدرة الحق سبحانه وتعالى على مراقبتهم في جميع ما يظهرون وجميع ما يبطنون. هذا بجانب رغبتهم في ثواب الحق سبحانه وتعالى في اليوم الآخر على انجازهم لأعمالهم بالصورة الدقيقة بما يتناسب مع قدراتهم وطاقاتهم.

قال تعالى:

«ولا تَعمَلُونَ مِن عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيكُم شُهُوداً»(٢)

قال تعالى:

« إنَّ الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ إنَّا لا نُضِيعُ أجرَ مَن أحسَنَ عَمَلاً» (٣)

٥- ان شعار الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من ابرز سمات هذا الاسلوب إذ أن الافراد كافة على اختلاف مواقعهم الوظيفية مطالبون بممارسة هذا الشعار لوأد الغش، والخداع، والكذب، والاستغلال منذ اللحظات الاولى سواء في المؤسسات التربوية، او المؤسسات الاقتصادية، او المؤسسات الاجتماعية.

قال تعالى:

«كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت لِلنَّاسِ تَأمُرونَ بالمَعرُوفِ وَتَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ وَتُؤمِنونَ باللهِ»(٤)

قال تعالى:

«والمُؤمِنُونَ والمُؤمِناتُ بَعضُهُم أولِياءُ بَعضٍ يأمُرُونَ بالمَعرُوفِ وَيَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ» (٥)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان»(٦)

١- متفق عليه.

٢- سورة يونس، آية ٦١.

٣- سورة الكهف، آية ٣٠.

٤- سورة آل عمران،آية ١١٠.

٥- سورة التوبة، آية ٧١.

٦- رواه مسلم.

٦- يعد التعاون والتواد، والتراحم، والحب شعارا لكل فرد نحو الافراد الآخرين سواء أكانوا في موضع القيادة أم كانوا في موقع التبعية. وهذا جميعه يؤدي إلى خلق جو اجتماعي متميز داخل المؤسسات وخارجها مما يزيد الإنتاج في جميع أعمال الخير.

قال تعالى:

«محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم» (١)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه» (٢)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (٣)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما، وقد سئل عليه الصلاة والسلام عن كيفية نصره وهو ظالم، فقال تأخذ فوق يديه وتمنعه عن الظلم فذلك نصرك له» (٤)

٧- الشورى في اتخاذ القرارات التي لم يوجد فيها نص أو حديث نبوي شريف. وتجري عملية الشورى ضمن إطار الأفراد الذين سوف يتخذون قرارا معينا في موضوع يتعلق بهم دون غيرهم. لذلك فإن عملية الشورى في أي مؤسسة تربوية تقتصر فقط على الأفراد المعنيين بتلك المؤسسة، وكذلك يجري الأمر بالنسبة للقرارات الأخرى المتعلقة بشؤون أخرى لم يوجد فيها آيات قرآنية أو سنة نبوية مطهرة.

قال تعالى:

«والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون» (٥)

---

١ - سورة الفتح، آية ٢٩.

٢ - متفق عليه.

٣ - متفق عليه.

٤ - متفق عليه.

٥ - سورة الشورى، آية ٣٨.

يقول إمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام سألت يوما رسول الله صلى الله عليه وسلم، لو وقع لنا بعدك ما لم نجد له حكماً في القرآن أو نسمع منك فيه شيئا فماذا نفعل؟ فقال صلوات الله عليه وسلامه: « اجمعوا العابدين من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوا برأي واحد »(١)

٨- أن يعفو عن الأفراد العاملين فيما يرجع الى شخصه ولا ينتقم منهم لنفسه، وأن يقوم بتطبيق العرف فيما بينهم بما يتفق مع الشرع الإسلامي، هذا بجانب اعراضه عن الجاهل منهم وأن يأخذه بالمداراة لإبطال نتائج جهله وتقليل فساد أعماله. بمعنى لا ينظر إلى المؤسسة وما فيها من خلال شخصه، وأهدافه، ورغباته. كما ألف الناس في هذه الأيام. ان جميع الأمور تجري وفق ما يرغب فيه المسؤول أو يرغب عنه.

قال تعالى:

«خُذِ العَفوَ وَأمُر بالعُرفِ وَأعرِض عَنِ الجاهِلِينَ» (٢)

٩- الحزم والشدة وعدم الرأفة عند إيقاع القصاص على الذين يجتازون الحدود التي بينها الحق سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم وفق القصاص الذي أقره الباري عز وجل لكل حد من الحدود.

قال تعالى:

«الزَّانِيَةُ والزَّاني فَاجلِدوا كُلَّ واحِدٍ مِّنهُما مائَةَ جَلدَةٍ ولا تَأخُذكُم بِهِما رَأفَةٌ في دِينِ اللهِ إن كُنتُم تُؤمِنونَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ وَليَشهَد عَذابَهُما طائِفَةٌ مِّنَ المُؤمِنِينَ» (٣)

١٠- وضع الإنسان في مكانه المناسب بما يتناسب مع قدراته ومؤهلاته دون تمييز أو هضم لحقوق الأفراد على اختلاف مواقعهم على الهرم الإداري للدولة.

قال تعالى:

«إنَّ اللهَ يَأمُرُكُم أن تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهلِها وإذا حَكَمتُم بَينَ النَّاسِ أن تَحكُمُوا بالعَدلِ إنَّ اللهَ نِعِمّا يَعِظُكُم بِهِ إنَّ اللهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً» (٤)

١- تفسير روح المعاني، جزء ٢٥، ص٤٢.
٢- سورة الأعراف، آية ١٩٩.
٣- سورة النور، آية ٢.
٤- سورة النساء، آية ٥٨.

نتائج الدراسة:

لقد تبين معنا من خلال عرض النظريات الإدارية وأساليبها التي ابتدعها الإنسان في ضوء افتراضات معينة تم صياغتها في ضوء فهم الإنسان لطبيعة ذاته ومكانتها في الكون بجانب رؤيته المحدودة للوجود الذي تمخض عنه فهم خاطئ لحقيقة الحياة الدنيا. لذلك جاءت هذه النظريات وأنماطها الإدارية لتركز على السيطرة على الإنسان وتوجيهه نحو زيادة الإنتاج بهدف زيادة الكسب المادي. كما تم التعامل مع الانسان في شتى أموره من خلال النظرة المادية فقط والمرتبطة بالحياة الدنيا.

أما بالنسبة إلى الإدارة في ضوء الفكر الإسلامي وأسلوبها الإداري فإن الحقائق التي اطلعنا عليها الحق سبحانه وتعالى عن طريق كتبه ورسله شكلت قاعدة الانطلاق للإدارة وأسلوبها الفريد، لذلك فالإدارة في ضوء الفكر الإسلامي تهدف إلى تبصير الإنسان بحقيقته، وحقيقة وجوده في هذا الكون، ومكانته في هذا الوجود، وحقيقة الحياة الدنيا، وتوضيح حقيقة عدوه ابليس الذي يتوعده على مدار الساعة لاخراجه عن طريق الحق. كما تهدف الإدارة إلى التركيز على جانب الخير في الحياة الدنيا للفوز في اليوم الآخر. لذلك فإن تحقيق الأهداف والغايات الإنسانية في الحياة الدنيا تكون وفق هذا النهج وفي ضوء هذه الإدارة سبيلا للوصول إلى الغاية الكبرى وهي الفوز برضا الحق سبحانه وتعالى ونيل جنته.

فمن الطبيعي آنئذ أن نجد أساسيات الأسلوب الإداري في ضوء الفكر الإسلامي واضحة ساطعة في كتاب إبن الإسلام وفارسه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي أرسله إلى أحد ولاته مالك الأشتر حيث يقول فيه «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر.... أمره بتقوى الله وإيثار طاعته، واتباع ما أمر به في كتابه.... وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات ويزعها عن الجمحات فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله.... فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح. فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك، فإن الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحببت أو كرهت. وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم.... فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك والله فوق من ولاك.... ولا تندمن على عفو ولا تبجحن

بعقوبة، إياك ومساماة الله في عظمته والتشبه به في جبروته، فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال.... ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته، وكان لله حربا حتى ينزع ويتوب. وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من اقامة على ظلم، فإن الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد. وليكن أحب الأمور اليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية.... وليكن أبعد رعيتك منك وأشنؤهم عندك أطلبهم لمعائب الناس، فإن في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها. فلا تكشفن عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك. والله يحكم على ما غاب عنك.... ولا تدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ولا جبانا يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى، يجمعها سوء الظن بالله.... والصق بأهل الورع والصدق ثم رضهم على أن لا يطروك، ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدني من العزة. ولا يكون المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيدا لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءة.... ولا تنقضن سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية....وأكثر مدارسة العلماء ومنافثة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك.... فول من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك وأنقاهم جيبا وأفضلهم حلما ممن يبطئ عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء. ممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف.... ثم تفقد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما....وأن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية. وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم.... ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الذلة ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، واوقفهم فى الشبهات، وآخذهم بالحجج، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزهيه إطراء، ولا يستميله اغراء، وأولئك قليل. وأفسح له فى البذل ما يزيل علته، وتقل معه حاجته إلى الناس، واعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك.... ثم أنظر في أمور عمالك فاستعملهم اختبارا، ولا تتولهم محاباة وأثرة....فامنع من الاحتكار فإن

رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه ، وليكن البيع بيعا سمحا، بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين البائع والمبتاع.... ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعا ومعترا، واحفظ لله مااستحفظك من حقه فيهم، واجعل لذوي الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك، حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع، فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول « لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتعتع»(١)

وخلاصة القول أود أن أنوه بحقيقة هامة مفادها أن النظريات الإدارية وأساليبها التي ابتكرها الإنسان يمكن أن تكون باهرة من حيث تأديتها للغايات المرجوة، ولكن مع أناس يؤمنون بنفس الأطر الفكرية والفلسفية التي شيدت في ضوئها تلك النظريات والأساليب. وقد تكون فاشلة تماما إذا ما تم ممارستها وتطبيقها على أناس يؤمنون ويسلكون في ضوء مدرسة فكرية تختلف مع المدرسة التي شيدت في ضوئها تلك النظريات والأساليب فعلى سبيل المثال نجد أن شتى النظريات الإدارية وأساليبها المتعددة تجيز ارسال الأفراد إلى جبهات القتال بالاكراه إذا رفضوا ذلك بحجة الدفاع عن الوطن. ولكننا نجد في المقابل أن الإدارة في ضوء الفكر الإسلامى لا تسمح بهذا الاكراه على الاطلاق. كما أنني أود أن أسوق مثلا آخر لأبين التمايز الساطع بين كلا النوعين من الإدارة يتعلق في إثارة الحوافز عند الأفراد. عندما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم تجهز الجيوش لغزو المدينة. أمر بتجهيز جيش لغزو العدو المتمركز في شمال الجزيرة العربية في سنة تعد من السنين القاسية من الناحية الاقتصادية. لذلك سمي الجيش بجيش العسرة، بينما الطرف المقابل يمتلك شتى الامكانات المادية والعسكرية، وقد تخلف عن نداء الرسول صلى الله عليه وسلم المنافقون بعد أن اختلقوا أعذار صدقهم بها رسول الله. وبعد أن جهز الجيش صلوات الله وسلامه عليه اعتذر لنفر من المسلمين لعدم توفر امكانية اصطحابهم معه في الجيش، فما كان منهم الا أن ألحوا عليه في الطلب، فلما تبينوا أنه لا مجال لهم للذهاب إلى لقاء العدو الذي يفوقهم بالعدد والعدة فاضت أعينهم من الدمع حزنا على عدم الذهاب إلى القتال.

١- نهج البلاغة شرح الشيخ محمد عبده، الجزء الثالث، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص٨٢-١١١.

قال تعالى:

«وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ» (١)

ترى كيف يمكن أن نفهم عملية استثارة الحوافز عند هذا النفر من المسلمين في ضوء النظريات الإدارية أو نظريات التعلم في إثارة الحوافز في نفوس الأفراد التي ابتكرها الإنسان الحديث المعاصر؟ انه لمن الاستحالة أن نجد تفسيرا أو جوابا شافيا إلا في الحقائق الفكرية للمدرسة التي ينتمي اليها هذا النفر من الناس. ترى هل الإنسان المعاصر سيحاول جادا تطبيق هذا النمط الإداري؟

---

١ - سورة التوبة، آية ٩٢.

المراجع العربية

١ – القرآن الكريم
٢ – الدكتور أنور محمد الشرقاوي ، التعلم نظريات وتطبيقات، دار البحوث العلمية ، الكويت، ١٩٨٧.
٣ – أحمد حسين يعقوب، النظام السياسي في الإسلام، عمان، ١٩٩٠.
٤ – البخاري ، كتاب الحدود.
٥ – تفسير روح المعاني ، جزء ٢٥.
٦ – تيسير الدويك وآخرون، أسس الإدارة التربوية ، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان.
٧ – الدكتور حسن الحياري ، التصور الإسلامي للوجود، دار البشير ، عمان، ١٩٨٩.
٨ – الدكتور عبد الرحمن الضحيان، الإدارة في الاسلام، دار الشروق، جدة، ١٩٨٦.
٩ – عبد الله الدينوري الامامة والسياسة ، دار المعرفة ، لبنان.
١٠ – عثمان خيري ، الإدارة بالأهداف، القاهرة ، المنظمة العربية للعلوم الإدارية ، منشور رقم ١٧٣ سنة ١٩٧٥.
١١ – الدكتور محمد التيجاني ، فاسألوا أهل الذكر ، مؤسسة الفجر ، لندن، ١٩٩١.
١٢ – محمد علي حلاوي، مصطلحات إدارية مختارة، بغداد: مطبعة العاني ، ١٩٧٦.
١٣ – الكتور مهدي حسن والدكتور محمد قاسم، مبادئ الإدارة : نظريات ووظائف، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان، الأردن، ١٩٨٤.
١٤ – نهج البلاغة ، شرح الأستاذ الشيخ محمد عبده، الجزء الرابع، دار المعرفة ، بيروت، لبنان.
١٥ – الدكتور يوسف قطامي ، سيكولوجيية التعلم والتعليم الصفي ، دار الشروق، عمان، ١٩٨٩.

المراجع الانجليزية

(1) Abraham H. Maslow, Motivation and Personality (New york. Harper and Row, 1954).

(2) Andrew D. Szilagyi, etil., Organizational behavior, and Performance, (2nd ed.) Santa Monica, California, 1980.

(3) Clayton P.Alderfer, Existence, Relatedness, and Growth (new york: Free Press, 1972).

(4) Douglas McGregor, The Human side of Enterprise new york: Mcgraw_ Hill, 1960).

(5) Frederik W. Taylor, Scientific Management (new York: Harper and Row, 1911).

(6) Herzberg, B. Mausner, and B. Snyderman, The Motivation to work, (2nd ed.) New york: Wiley, 1959.

(7) James G. March and Herbert A. Simon . Organizations. New york: John Wiley and Sons , Inc, 1958.

(8) J. Stacy Adams, «Toward an Understanding of Inequity», Journal of Abnormal and Social psychology, November 1963.

(9) Keith Davis, Human Behavior at work. 4th ed. san Francisco: Mc Graw_ Hill Book company . 1972.

(10) Lawrence A.pervin. Personality : theory and research. 4rth edition, New york, john wiley and sons, Inc, 1984.

(11) Leonc, etal, Management concepts and Applications . Harper and Row, U.S.A. 1983.

(12) Paul Hersy, etal., Management of Organizational Behavior, (Fourth ed). Englewood Cliffs, N. J 1982.

(13) Richard A. Johnson. The Theory and Management of system, N.Y.: Mc Graw_ Hill Inc, 1973.

(14) Stephen J. Knezevich, Administration of Public Education, (3rd ed.) U.S.A. 1975.